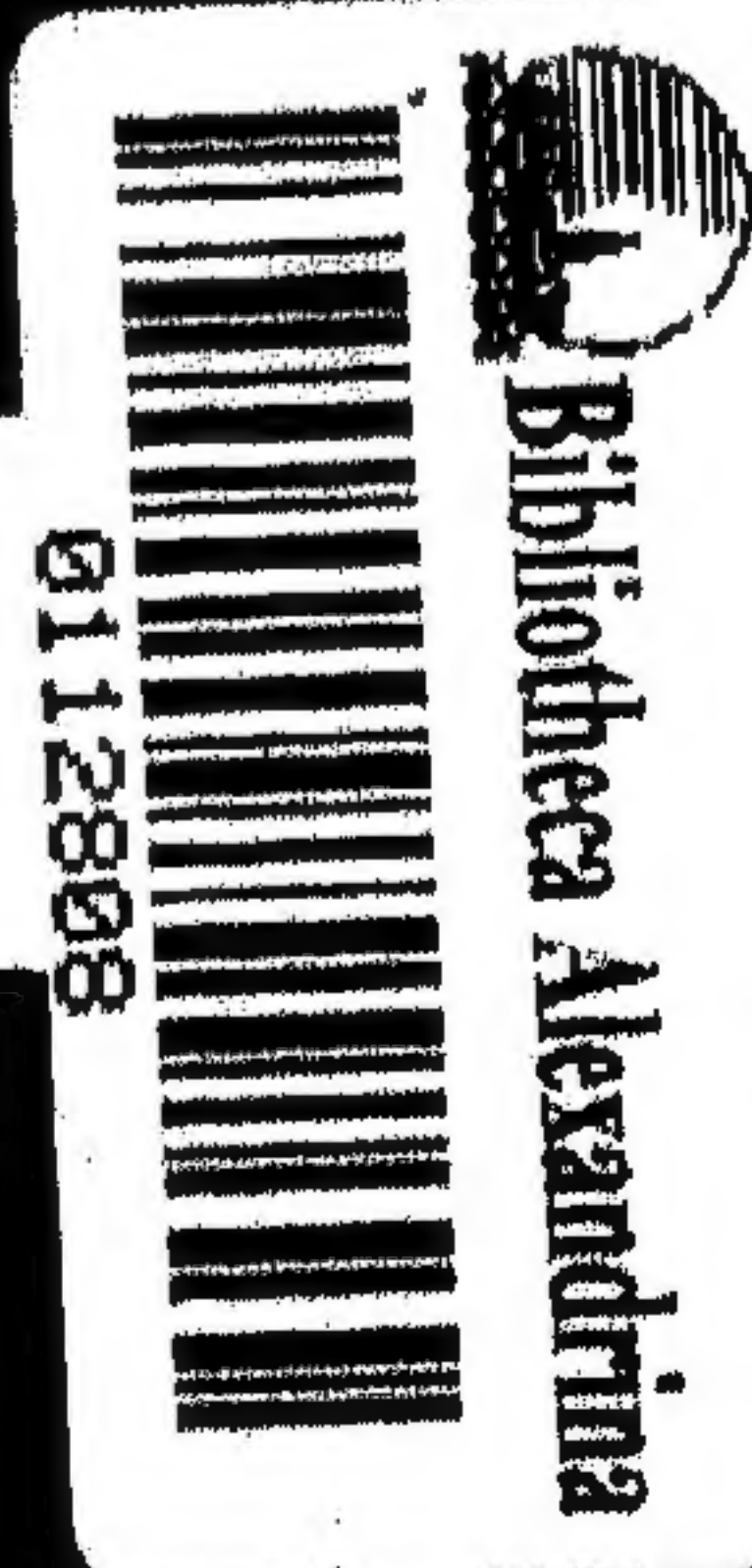


أنور أحمد

خطباء صنعوا التاريخ



خطباء صنعوا التاريخ

بقلم

أنور أحمد

مكتبة الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد فريد - القاهرة

الفهرست

صفحة

٣	هذا الكتاب
٥	ديموستين
٢٣	الإمام على
٤١	زياد ابن أبيه
٥١	الحجاج
٦٧	عبد الله بن الزبير
٧٧	ميرابو
٩٩	وليم پت الكبير
١١٥	وليم پت الصغير
١٣١	عبد الله نديم
١٥٧	مصطفى كامل
١٩٣	سعد زغلول
٢١٧	خطباء الحروب
٢٢٧	نابليون بونابرت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إهداء

إلى روح الزعيم الخطيب « مصطفى كامل » الذي أيقظت
خطبه روح أمته فانطلقت تكافح لصنع تاريخها الحديث .
المؤلف

هذا الكتاب

ليس هذا الكتاب ترجمة لحياة هؤلاء الخطباء بالمعنى المألوف للتراجيم ، ولكنه محاولة لدراسة فهم الخطابي وإلقاء الضوء على الشخصية الخطابية لكل منهم ، وبيان ملامح هذه الشخصية والعوامل التي ساعدت على تكوينها وتحديدتها . فهو بهذا لا يعتبر من كتب التراجيم ، لأنه لا يسرد تاريخ حياة الخطيب ويتتبع أحداثها إلا بالقدر الذي يتصل بحياته الخطابية ويساعد على جلائها وتوضيحها .

وقد اخترت طائفة من الخطباء الذين كانت العبقرية الخطابية أبرز صفاتهم أو من أبرزها ، وكانت وسيلة معظمهم للوصول إلى الحكم والسلطة أو مراكز القوة التي تمكنوا من خلالها أن يسيطروا على الأحداث ويسهموا بذلك في صنع التاريخ .

ولم أتقيد في هذا الاختيار بعصر محدد أو بيئة معينة ، وإنما اخترت من كل بيئة وعصر أعظم شخصية خطابية فرضت نفسها على الأحداث وأصبحت جزءاً من تاريخ عصرها .

وأبادر إلى القول بأن هذا الكتاب لم يستوعب كل العباقرة من خطباء التاريخ الذين أسهموا في صنعهم ، فهذا جهد يحتاج إلى موسوعة ضخمة ، وإنما اخترت بعض النماذج الفريدة ، ليس من بينها أحد من المعاصرين .

والواقع أن فكرة هذا الكتاب كانت تراودني وتلح عليّ منذ زمن طويل . ذلك أنه رغم ما للخطابة من جليل الأثر وعظيم الخطر في حياة الأمم ، فقد لاحظت أن المكتبة العربية تكاد تخلو من الدراسات والبحوث الخاصة بالخطباء ، على كثرة ما تقذف المطابع كل يوم إلى سوق الأدب .

— ٤ —

ولست أزعم أن هذا الكتاب الصغير سوف يسد هذا الفراغ ، ولكنني
أرجو أن يلفت أنظار الكتاب إلى هذا المجال البكر ، فتظفر المكتبة العربية
منهم بما يشفي الغليل بعد أن أسهمت فيه بجهود المقل .
القاهرة يوليو ١٩٦٩

المؤلف

ديموسستين

« إننا عندما نسمع ديموستين لا نفكر في كلماته ، فهو يُبرق ويرعد »
« وهو سيلٌ يجرف كل ما يعترض سبيله ، فلا نستطيع أن ننقده »
« أو نعجب به ، لأننا نكون قد فقدنا السيطرة على مشاعرنا . »

المؤرخ فنيالون

ديموستين

تعتبر حياة «ديموستين» نموذجا فريدا للخطيب العبقرى فى كل زمان ومكان. كانت حياته أسطورة تشبه الأساطير الأغريقية القديمة، وكانت عبقريته الخطابية أبرز معالم شخصيته، فكانت خطبه موضوعا لدراسة الخطباء فى الأجيال التى تعاقبت بعده ، حتى لقد قال « كونيلىيان » إن طلاب البلاغة يجب عليهم ألا يدرسوا خطبه فحسب ، بل أن يحفظوها عن ظهر قلب .

ولد « ديموستين » فى أثينا عام ٣٨٤ قبل الميلاد ، وتوفى أبوه وهو فى السابعة من عمره ، وترك له ثروة كبيرة ومصنعين أحدهما لصنع الأسلحة . ولكن أوصيائه الثلاثة بددوا ثروته ، فلما بلغ الثامنة عشرة من عمره طالب برفع الوصاية عنه ، كما طالب الأوصياء بحساب عن الثروة ، ودخل معهم فى نزاع قضائى دام ثلاثة أعوام .

وإذا كان « ديموستين » لم يكسب من هذا النزاع مالا كثيرا ، فقد اكتسب معرفة بالقانون وإجراءات القضاء ، وامتلاّت نفسه بغضا لكل ظلم واعتداء . أراد أن يدرس القانون لكي يتمكن من محاصمة أوصيائه ومناقشتهم ، فتعلم على « إسياس » الذى كان من علماء القانون اشتهر بالفصاحة والأسلوب الأنيق .

ولاحظ أثناء مرافعاته الأولى فى قضيته عجزه واضطرابه وخفوت صوته وتلعثمه فى الكلام ، فصمم على أن يستكمل ما ينقصه ليكون خطيبا قادرا على الكلام والمرافعة . لقد أدخلته أمه المدرسة فى طفولته فنال حظا من التعليم ، ثم قرأ كتب التاريخ والأدب ، وأعجبه فصاحة الخطباء ، وفتنه ما يحظون به من تصفيق الناس وإعجابهم ، فتأقت نفسه أن يكون خطيبا . وكانت بلاد اليونان

مقسمة في ذلك التاريخ إلى ولايات ومدن مستقلة ، وكانت أثينا أعظمها حضارة ومدنية ، كما كانت تتمتع بنظام ديمقراطي ساذج ، فكان لها مجلس للشورى أو « جمعية وطنية » تتألف من خمسمائة عضو من أفراد الشعب ، يرجع إليهم الأمر في شئون الحكم . وكان النظام القضائي يبيح لأي شخص أن يطلب إلى القضاء محاكمة من يرى أنه ارتكب أمراً يستحق عليه العقاب ، ويقوم الطالب في هذه الحالة بمهمة المدعى العام .

وفي ظل هذا النظام تزكو الخطابة ، ويستطيع الخطيب الفانيغ أن يكون ذا شأن كبير ؛ وإنه ليطمح إلى أن يكون خطيباً يشترك بفصاحته في إدارة شئون الحكم والسياسة ، ولكنه يرى أن محاولاته الأولى لا تبشر بخير ، فهو ضعيف الصوت ، قصير النفس ، مرتبك في إشارته ، وبلسانه لثغة تزيد في ارتباكها عند الكلام . وفي غمرة يأسه وحيرته صادفه « ساتيروس » الممثل الشهير الذي استكشف ما يتمتع به « ديموستين » من عقل يتوقد ذكاءً ، وقلب يشتعل حماسة ، ونفس تضطرم بالطموح ، فشجعه ونفخ فيه من روحه وأعاد إليه الثقة بنفسه ، وأقنعه أن لديه مواهب الخطيب ولا ينقصه إلا حسن الإلقاء وإجادة النطق ، وهو شيء يكسب بالمران .

ويتحدث الرواة عن الجهود المصنية التي بذلها « ديموستين » في تذليل ما اعترضه من صعاب ، فقد شعر بأن الطبيعة وهبته نفساً طموحة إلى التحايق ولكنها قصت من جناحيه ، فصمم على أن يناضل حتى يصل إلى القمة التي يريد ، وبدأ رياضة شاقة بعزيمة لا تعرف اليأس .

وبروي المؤرخ « بلوتارك » أن « ديموستين » شيد لنفسه حجرة تحت الأرض كان ينفرد فيها ليعتمر على الخطابة ، وكان يقف أمام المرأة ليتخير الأشارات المناسبة وقت الإلقاء ، وكان يضع الحصى في فمه وهو يتكلم ليحل عقدة لسانه ، ويصعد الجبل عدواً وهو ينشد أبياناً من الشعر بصوت مرتفع ، أو يقف

على ساحل البحر ويرفع صوته بالكلام حتى يطفى على هدير الأمواج ، وكان يحلق نصف رأسه ليرغم نفسه على ملازمة حجرته الشهر والشهرين لا يرى الناس منقطعا إلى دراسته وتربيته .

وبعد سنوات من هذه الرياضة الشاقة تكال جهاده بالنجاح ، ولم يعد يخشى الجمهور ، فلما ارتقى بعد ذلك منبر الخطابة ملك الأسماع والقلوب ، ولم يلبث أن أصبح خطيب الجمعية الوطنية ، بل خطيب أثينا الأعظم .

ومن عجب أن هذا اللسان الذى كان يثقل فى فمه ، أصبح لسان أثينا الذى ينفث السحر ويلهب الحماسة ، حتى قال عنه « فمليون » للمؤرخ الكبير :

« إننا إذ نسمع ديموستين لا نفكر فى كلماته ، فهو يبرق ويرعد ، وهو سيل يجرف كل شئ يعترض سبيله ، فلا نستطيع أن ننتقده أو نعجب به ، لأننا نكون قد فقدنا السيطرة على مشاعرنا . . »

والواقع أن من يقرأ خطب « ديموستين » اليوم يشعر فيها بصدق اللهجة والإخلاص الذى يوحى إليه الثقة فى الخطيب ، ويروعه منها التدفق وغزارة المادة والمنطق السليم ، وبجدها مزاجا رائعا من الموضوعية التى تقنع العقل والحماسة التى تثير الشعور . وكانت هذه أخص خصائص أسلوبه الخطابى .

وكانت عبقرية ديموستين متشعبة متعددة الجوانب ، مما جعله فريدا فى العالم القديم ، فقد جمع فى شخصه بين الوطنى المتحمس والسياسى البعيد النظر ، والفنان النابغ الذى لا يشق له غبار .

وقد خصص « دايونيسيوس » Dionysius بحثا عنه فقال إنه سما بالفنر اليونانى إلى حد السكال بما قام به من مزج رائع بين عناصر كانت لاتزال متفرقة فى ذلك الوقت بل لقد فاق بالتخصصيين فى كثير من الفنون . فاق درسة « أنتيفون » Antiphon فى الوضوح والصفاء ، ومدرسة « ليسياس » Lysias

في الحماسة ، ومدرسة « إيزوكرات Isocrates في التنوع والقوة والشعور العميق .

هذا هو « ديموستين » وقد نضجت عبقريته ، واكتملت قوته ، فها هو الدور الذي هيأ له القدر ليلعبه على مسرح الحياة ؟

لقد سخر مواهبه وعبقريته لخدمة وطنه ، وقضى حياته كلها مجاهدا في سبيل مثل أعلى في السياسة وحكم الشعوب ، ومات في سبيل ذلك كما يموت الأبطال والشهداء .

* * *

عندما درس « ديموستين » القانون كان يهدف إلى الانتفاع بذلك في مباشرة قضيته وشئونه الخاصة ، ولسكنه لم يلبث أن اتخذ مهنة يتكسب بها ، واحترف كتابة الخطب والمرافعات لمن يطلبها لإلقائها في المحافل أو أمام المحاكم ، ثم نال أجازة رسمية في الحقوق ، وطقق يترافع بنفسه في مجالس القضاء ، وجمع ثروة كبيرة .

وأخذ « ديموستين » يهتم بالسياسة ، وكانت مناقشات المجلس الأثيني العام ، — وهو البرلمان الشعبي الذي يعقد في سوق المدينة ويشارك في مناقشاته كل مواطن حر متمتع بحقوقه المدنية — ودراسته لتاريخ أثينا الحافل بالأبجاء ، تدفعه إلى الاهتمام بشئون السياسة والمشاركة في مناقشة قضايا وطنه .

وكانت المرحلة الأولى لكفاحه السياسي موجهة إلى النهوض بروح الشعب الأثيني الذي كان قد نبذ تقاليده ، وخذت حميته وأنغمس في اللهو . كان يرى أن أثينا هي الزعيمة الطبيعية لمدينة اليونان التي يجب أن تعيش في تعاون فلا تعتدى إحداها على الأخرى . ولكي تضطلع أثينا بهذا الدور يجب أولا أن تكون جديرة به ، ولهذا قدم ديموستين برنامجا عمليا لإصلاح الأنظمة السائدة بصورة تعزز الديمقراطية ، وتزيد في ثروة الدولة ، وتضاعف قوتها

العسكرية . وأخذ يطالب بإصلاح القوانين وإجراءات التقاضى ، ويهاجم محترفى السياسة والمتطفلين على التشريع ، وينادى بأن تقتصر أثينا لسكل مدينة يعتدى عليها حتى تسود العدالة السياسية ويزول الظلم والطغيان . ومن كلماته قوله « إن الظلم والخداع ونقض العهد لا يمكن أبداً أن يؤدى إلى قوة حقيقية . إنها قد تؤدى إلى سيادة وقتية ، ولكن الزمن لا يلبث أن يعصف بما شيدته من أحلام . وكما أن الطبقات السفلى للمنزل يجب أن تكون قوية متينة ، كذلك يجب أن تقوم كل سياسة على دعائم من الصدق والشرف . . . » .

ولكن جهاد « ديموستين » الأكبر الذى وقف عليه حياته ، ومات فى سبيله ، كان فى تنبيهه الأثينيين إلى خطر « فليب » ملك مقدونيا ، وحشهم على الاستعداد للقائه ثم تحريضهم بعد ذلك على مقاتلته .

وكان « فيليب » والد الاسكندر الأكبر ملكاً لمقاطعة مقدونيا فى شمال بلاد اليونان ، وكان يريد أن يبسط نفوذه على بلاد اليونان كلها ، فهب ديموستين واتخذ من فصاحته سلاحاً شهره فى وجه فيليب ليصدده عن سلب الأغريق حريتهم واستقلالهم ، وقضى بقية حياته يستنفر شعب أثينا للقتال ، ويحث شعب الأغريق على الثبات والفضال . وقد اشتهرت هذه الخطب باسم الخطب الفيلىبية أو الفيلىميات Philipics

فلنستمع إليه فى الخطبة الفيلىبية الأولى يحاول أن يشعل الحماسة الوطنية فى شعب أثينا فيقول :

أيها الأثينيون . حتى متى سكونكم وإخلادكم إلى التواني ؟ متى تدب الحياة فى عروقكم ، ويسرى الشعور بالواجب فى أعصابكم ؟ ماذا تنتظرون ؟ هل تنتظرون معجزة تهبط عليكم من السماء ؟ أى دافع للنفوس الأبية لعمل الواجب

أقوى من تهديد مجدها بالزوال وشرفها بالتمزق و كلمتها بالتفريق ؟ إنه لمار لن يفارقكم ولن يمحوه الموت يوم يوارىكم في قبوركم .

هل الوطنية أن تكتفوا بالذهاب هنا وهناك يسأل بعضكم بعضاً عما جاءه من أنباء فيليب ، فيقول واحد إنه مات ، ويقول الآخر بل هو مريض !! يا عجبا . . !! عجباً يمزق القلب . أى نبأ هناك غير أن مقدونيا يسمى لقهر أثينا وسحق مجدها واستعباد اليونانيين جميعاً . ماذا عسى أن تصيبوا من المغنم لو مرض فيليب أو مات أو انقضت على رأسه مصيبة من السماء ؟ وحق الآلهة لئن لم تهبوا من رقادكم ليسلطن عليكم فيليب آخر ليس دون هذا في الشدة عليكم . فإن فيليب ما قوى اليوم إلا بضعفكم ولا تحرك إلا بسكونكم .

ثم يستذكر ديموستين فكرة الاعتماد على الجنود المرتزقة المأجورين فيقول :
— لا تقولوا المرتزقة . نريد رجالاً أحراراً أنبتهم تربة أثينا يرون سعادتهم في عزها وشقاءهم في ذلها ، من أرضها كانت بدايتهم ، وفي أرضها نهايتهم ، منها خلقوا وإليها يعودون كرة أخرى . أولئك هم أباة الضيم الذين يبذلون دماءهم لتخليص شرفها من الأذى . »

ثم يحذرهم من الحرب المباغتة ويدعو إلى الاستعداد لها قبل وقوعها ويقول :
— إن الحروب لا ضابط لها ولا قانون . فهل تريدون الانتظار حتى يأتيكم نبأ الإغارة المفاجئة فيضيع الوقت في المشاورة وحشد الجيوش وتدبير نفقاتها حتى تفوت الفرصة ، وتسقط المواقع التي تريد الدفاع عنها في يد أعدائنا قبل أن نحف لنجدتها . إذا كنا فعلنا ذلك فيما مضى فلا أنه لم تكن لنا تجارب ولم نكن قد ابتلينا بمثله . أما الآن وقد عظم الخطب ، وتفاقم الأمر ، وأصبح فيليب على أبوابنا ، فقد وجبت علينا المبادرة إلى تغيير هذه الخطة الخرقاء . »
وقد كانت هذه الخطبة ، وتهيؤ فيليب للاستيلاء على حصن اللاثينيين بالقرب

من بيزنطة ، باعثاً لحمه أثينا ، فأصدرت قراراً بتجهيز عدة أساطيل لحماية ذلك الحصن ، فعادل فيليب عن عزمه ، ولكنه هاجم بعد ذلك « أولنتوس » وهي المدينة الوحيدة من مدن بحر إيجه التي بقيت وسعها أن توقف زحفه ، فاستنجدت بأثينا ، فأسرع ديموستين إلى المنبر يدعو إلى نجاتها ، ويصف سياسة فيليب ويرميه بالنفاق ، ويؤكد لأهل أثينا أن مصالحهم تقضى عليهم بمقاومة طغيان فيليب ويقول :

— إنكم لا يمكن أن تكونوا أخطأتم أيها الأثينيون إذا أخذتم على عاتقكم عبء القتال من أجل الحرية والسلامة للجميع . لا وحق أبائنا الأولين الذين قابلوا العدو عند « ماراثون » ، لا وحق بحارة « سالاميس » ، لا وحق أولئك الأبطال من الرجال الشجعان الذين ترقد عظامهم في أرض الوطن ، والذين كللوا هاماتنا بالمجد . أقسم بهم جميعاً ، وبكل من مات في سبيل البلاد . . . »

وقد استجابت أثينا لندائه ، وأرسلت حملة عسكرية تضم ثلاثين سفينة وألفين من الجنود المرتزقة ، غير أن سلوك القواد أضاع فائدة هذا المدد ، وبذل « فيليب » الأموال لقضاة « أولنتوس » ففتحوا له أبوابها وسلموه المدينة ، فأباحها للنهب والسلب ، وباع أهلها ببيع السلع ، وأقام حفلات فخمة حضرها كثيرون من أنحاء اليونان ، فأحسن لقاءهم وملاك قلوبهم بالمال والعطاء ، وعادوا إلى بلادهم فكانوا دعاة للهزيمة وأعواناً لفيليب .

وبسقوط أولنتوس وفشل أثينا في إنقاذها ، قوى في أثينا الحزب الذي يدعو إلى مسالة فيليب ، والذي يضم خليطاً من الزعماء ، منهم المخلص ، ومنهم المنافق ومنهم الخائن مثل « ديمادس » الذي كان صنيعة فيليب .

وكان ديموستين قد انتخب عضواً في مجلس الخمسائة ، وأخذ يعلن فيه آراءه السياسية التي فرضتها عليه الأوضاع الجديدة ، واضطر إلى مسaire دعاة

السلم ، فأرسلت أثينا وفداً للصلح مع فيليب ، وقد نص اتفاق الصلح على أن يكف الطرفان عن الحرب مع احتفاظ كل منهما بما تحت يده من البلاد .

ولكن هذا الصلح ما كان ليديم مادام فيليب لا يعدل عن أطماعه ، فقد أخذ يعمل لعزل أثينا عن باقي المدن الأغريقية ، وعاد ديموستين يحجوب أنحاء اليونان ليكشف عن نيات فيليب ، ويحث المدن اليونانية على التحالف مع أثينا ويحرض الأثينيين على الاستعداد والتأهب للقتال ، ويقول لهم :

— إن الصداقة التي تعقد بين الجمهوريات وبين الطغاة ليست بالصداقة الوثيقة التي يركن إليها . ماذا تريدون ؟ الحرية ؟ ألا ترون إذن أن ألقاب فيليب نفسها هي إنكار لهذه الحرية التي تنشدونها ؟ إن كل حاكم مستبد هو عدو للحرية وعدو للقانون . إنكم تحاولون تجنب الحرب ، ولكنني أخشى أن تقودكم هذه المحاولة إلى الوقوع تحت نير الاستعباد . . . »

ومضى « ديموستين » يخطب ويخطب ، ومهما حاولنا نقل بعض ما جاء في خطبة فستظل كلماتها رماداً متخلفاً عن نار الحياة وحرارتها بعد أن قام بينها وبين العالم ستار الموت والخلود ، وسيظل الحجاب قائماً بيننا وبين الخطيب ومنصته ، والجمهور وحماسته ، والزعيم وحرارته .

هذا هو ديموستين يرسم لأهل أثينا سياسة عملية فيقول من خطبة له في المجلس :

— إن منكم يا أهل أثينا من يعتقد أنه يخرج الخطيب إذا سأل : فماذا نفعل ؟ ولكنني أتلقف هذا السؤال وأجيب عليه فأقول لكم لا تفعلوا شيئاً مما تفعلونه الآن وافعلوا كل شيء لم تفعلوه ! وإنه لجواب حق وصدق . ولكنني سأزيد لكم الأمر إيضاحاً ، ولعل أولئك الذين سارعوا إلى السؤال يسارعون أيضاً إلى العمل . أذكروا أولاً أن فيليب قد نقض عهدكم ، وهذه حقيقة لا مرأى فيها

ولا محل للخلاف عليها . ثم أذكروا أيضاً أنه عدو أثينا الألد ، عدوها الذى يكره أرضها وأسوارها ، بل ويكره أولئك الذين يظنون منكم أنهم نالوا حظوة لديه . إن أعظم ما يخشاه فيليب ويمقته هو حريتنا ونظامنا الديمقراطي ، وإنه ليهيئ أشراكه لكى يقضى على هذه الحرية وهذا النظام ، لأنه يعلم جيداً أنه لو أخضع جميع بلاد الأغريق فسوف يظل غير آمن مادامت ديمقراطيتكم سليمة لم تمس . وهو يعلم أنه لو أصابته الأقدار بهزيمة فإن جميع هذه البلاد التى قهرها سوف تسارع إلى الانضمام إليكم لاستعادة حريتها . إن فيليب لا يعطى العبر على هذه الحرية الأثينية التى تقف موقف الجاسوس يرقب شروره وآثامه ، فهو يعبى جيوشه وينصب أشراكه لقتالنا .

والآن ماذا يجب عليكم أن تفعلوا ؟ يجب أن يسارع كل منكم إلى التبرع بنسبة ما يملك ، ثم انهضوا بال جيش واحتفظوا بقوات مسلحة قوية حتى إذا نهياً فيليب لغزو الأغريق وجدتم الجيش اللازم لصدده وامداد حلفائكم . لا تحدثوني عما يحتاج إليه هذا العمل من نفقات ومتاعب ، فإنى لست أنكرها ولسكنها تهون كلما إذا نظرنا إلى الخطر الذى يهددنا .

هل تظنون أن فيليب لن يبالى بكم بأذى إذا ظلمتم وادعين لا تحفلون بما يعمل ؟ لو أكد لكم ذلك أحد الآلهة فأنى لا أشير به عليكم ! أجل .. إنه خير لى أن أهلك من أن أشير عليكم بهذا ، فليشر به من يشاء غيرى ، واستمعوا لأقواله إذا أردتم ، أما إذا كنتم تشعرون بما أشعر به ، وترون معنى أنه كلما امتدت فتوحات فيليب كان فى ذلك تقوية له وسند يشد أزره علينا حين نضطر إلى مكافحته .. إذا كنتم ترون ذلك فلم تترددون ؟ وماذا تنتظرون ؟ هل تنتظرون حتى تقع الواقعة ويضيع الشرف ؟ هل تنتظرون حتى تشاهدوا رجال فيليب فى طرقات أثينا يلقونكم بالصفع والجلد ؟ ألا لا قدرت الآلهة .. فإن مجرد النطق بهذه الكلمات ذل ومهانة .. »

بهذه الكلمات التي تتقدحاسة وإخلاصاً كان ديموستين يدعو الإثنيين إلى القتال، ولم تكن هذه الخطب مجرد عبارات حماسية تستهوى السامعين، ولكنها كانت تحوى من أدلة الأقتناع ما جعل فيليب نفسه يقول عن ديموستين « إنى لأعطيه صوتى ليعان الحرب على بلادى وأسلمه قيادة الجيوش .. » وما أعظم هذه الشهادة من عدوه الذى كان هدفاً لسهام بلاغته ، والفضل ما شهدت به الأعداء .

. . .

ولا يتسع المجال هنا لتفصيل ما كان من نزاع وحروب بين مقدونيا وأثينا وحسبنا أن نذكر أن الحوادث كانت تجد ديموستين دائماً فى انتظارها ، وأن الخطوب كانت تلقاه مترصداً لها يلقاها أقوى ما يكون إيماناً ، وأثبت جناناً ، وأفصح لساناً ، لا يخشى العدو الظافر الذى كان يكتسح البلاد من حوله ، بل كان ذلك يزيده إيماناً بصحة فكرته ، وصدق دعوته . وعبتاً حاول « فيليب » أن يشتريه بالمال كما اشترى غيره من زعماء أثينا وخطبائها .

وقد جرد فيليب الحملات على تراقيا واحتل كثيراً من مدنها ، ولما رأت بلاد الفرس تقدم « فيليب » وتوغله عملت على محاربتة ، فقام ديموستين يبحث أثينا فى الخطبة الفيلايية الأخيرة على انتهاء الفرصة وتخليص بيرنثوس وبيزنطة من فيليب ، فسيرت أثينا إليها أسطولا ضخماً ، تبرع ديموستين بشراء وتجهيز إحدى سفنه من ماله الخاص ، فلم ينجح فيليب فى الاستيلاء على بيزنطة واضطر إلى رفع الحصار عنها والعودة خائباً . وارتفعت مكانة ديموستين فى أعين أهل أثينا ، فأهدوه تاجاً من الذهب اعترافاً بفضله وتقديراً لجهاده .

ولكن فيليب عاد فاستولى على بعض المدن التى تفتح أمامه الطريق لجنوب اليونان ، وهدد بذلك أثينا ، فدعا ديموستين إلى الحرب ، وسافر إلى بيوتيا ،

وحملها بسحره على التحالف مع أثينا ، والتقى الجيشان ، ولكن فيليب هزمها هزيمة ذكراه ، وإن كان قد قتل بيد أحد ضباطه وهو يحتفل بانتصاره وخلفه ابنه الإسكندر الأكبر .

وعندما ذاع خبر قتل « فيليب » عمت الفرحة بلاد اليونان ، وحمل أهل أثينا ديموستين على الأعناق وأدخلوه إلى المجلس العام وعلى رأسه أكليمن من الزهر ، فهاجم سياسة مقدونيا ، ودعا مواطنيه إلى الثورة على الإسكندر . وأرسلت أثينا بناء على نصيحة ديموستين سفراءها إلى البلاد اليونانية تدعوها إلى مقاومة خليفة « فيليب » والثورة عليه ، فتمردت مدينة « ثيبا » وأعلنت العصيان .

ولكن الإسكندر أسرع بالعودة من آسيا الصغرى لأخماد حركات التمرد ، وزحف على « ثيبا » وسحق ثورتها ، ونكل بأهلها ، ودمر جميع منازلها ولم يبق منها غير منزل واحد هو منزل الشاعر « بيندار » .

وبدأت « أثينا » تستعد للحصار وقد عصفت بها الرعب ، ولكن الإسكندر لم يزحف عليها ، واكتفى بإرسال وفد يطلب باسمه تسليم عدد من الزعماء والقواد اعتبرهم مسئولين عن الحركات المعادية له ، وكان في طلبهم ديموستين .

واستولت الحيرة على أثينا بشأن هذا الطلب ، وتناقش فيه مجالسها ، واشترك ديموستين في المناقشة ، وروى قصة قال فيها إن الذئب عاهدت الرعاة مرة على ألا تهاجم القطيع إذا سلموها كلاب الحراسة ، فقبل الرعاة ، ولكن الذئب عندما رأت الحظيرة بعد ذلك خالية من كلاب الحراسة هاجمت القطيع وفتيكت به .

ورفض المجلس طلب تسليم الزعماء والقواد ، وأرسل إلى الإسكندر وفدا يلتمس منه العفو عن خصومه ، فنجح الوفد في مسعاه ، وتم الصلح بين أثينا والإسكندر المقدوني .

واندفع الاسكندر يتابع سياسة أبيه ، وحقق انتصارات كبيرة في كل مكان ، ثم انحدر بجيشه الظافر حتى بلغ الهند .

وكان « ديموستين » في خلال ذلك يتبع سياسة الحذر حتى لا يعرض أثينا لما تعرضت له « ثيبا » من دمار . وامتزجت حياة ديموستين في هذه الفترة بقصة غريبة . ذلك أن « هاربال » الذي كان وزيراً لمالية الاسكندر تمرد عليه ، وانتهاز فرصة انشغاله بالحرب في آسيا فاستولى على مبلغ طائل من أمواله ، وجهرز أسطولاً من ثلاثين سفينة ، وجيشاً من المرتزقة ، وهرب إلى شاطئ أثينا المشعل الثورة على الاسكندر . ولكن أثينا رفضت قبوله بمصيحة ديموستين ، فذهب « هاربال » بمفرده إلى « أثينا » وأعلن في مجلسها العام أنه يضع نفسه وأمواله وجنوده ومراكبه تحت تصرفها ، موها إياها أن قواد الاسكندر يتحفزون للتمرد عليه . وانقسم أهل أثينا إلى فريقين ، فكان فريق يرى التعاون مع « هاربال » وإعلان الحرب على الاسكندر الذي كان مشغولاً بحربه في آسيا بينما رأى فريق آخر على رأسه ديموستين ابعاد « هاربال » وعدم الزج بأثينا في حرب لا تملك فيها من القوى ما يؤهلها لمواجهة قوى الاسكندر التي بلغ من تعاضدها أنها أطمعت صاحبها في غزو العالم كله . وفي غمرة هذه الحيرة أرسلت أم الاسكندر والقائد المقدوني « أنقيبائر » الوصيين على مقدونيا ، وفدا إلى المجلس الأثيني العام يطلبان منه تسليم « هاربال » والمال الذي في حوزته . واقترح « ديموستين » القبض على « هاربال » وحراسته حتى يعود الاسكندر ، وحفظ المال الذي معه في الأكربول ، فوافق المجلس على الاقتراح . ولكن « هاربال » هرب بعد ذلك من المعتقل ، وتبين أن نصف المال الذي كان مودعاً في الأكربول قد اختفى . ولما كان هذا المال محفوظاً تحت إشراف لجنة يرأسها ديموستين ، فقد اتهمه خصومه بالاهمال الجسيم في مراقبة الحراس ، وأثاروا الشك حوله ، فطلب ديموستين من المجلس تسكين لجنة لتحقيق الموضوع

وأعلن أنه يقبل حكم الموت إذا تبين أنه أخذ شيئاً من هذا المال. وانتهى التحقيق بادانة ديموستين ، دون تقديم دليل مادي على هذه الإدانة ، فحكم عليه بأن يدفع غرامة قدرها خمسون وزنة .

ولكن ديموستين هرب إلى إحدى الجزر حيث أقام في منفاه بعيداً عن أثينا .

ولم تمض شهور على مغادرة ديموستين وطنه ، حتى توفي الاسكندر في مدينة بابل عام ٣٢٣ ق . م بتأثير الحمى . وهبت أثينا مرة أخرى للتخلص من النفوذ المقدوني ، وانهارت مكانة صنائع مقدونيا ، وأصدر المجلس العام قراراً بدعوة ديموستين للعودة إلى بلاده ، فعاد إلى أثينا كما يعود الأبطال الظافرون ، وخرج لاستقباله الأهالي يتقدمهم القضاة والحكام والكهان .

وبهذا الاستقبال سقطت عن ديموستين العقوبة المعنوية ، ولجأ المجلس العام إلى نوع من الحيلة لأعفائه من الغرامة الضخمة التي حكم بها عليه والتي لم يكن يجيز القانون إلغاؤها . فقد كان من المعتاد أن يمنح الرجل الذي يقدم الضحية لمذبح الآله « زيوس » مبلغاً من المال ، فعهد المجلس إلى ديموستين القيام بهذه المهمة في مقابل « خمسين وزنة » وهي قيمة الغرامة .

وكانت الحرب قد اشتعلت بين أنتيباتر Antipater الذي حلف الاسكندر على حكم مقدونيا واليونان ، وبين البلاد الأغريقية الثائرة على حكمه وعلى رأسها أثينا ، وحقت البلاد الثائرة بعض الانتصارات اللامعة في أول الأمر ، ولكنها لم تلبث أن هزمت في موقعة كرانون Crannon سنة ٣٢٢ ق . م ، واقتربت الجيوش المنتصرة من أثينا .

وبدأت البلاد المحاربة ترسل وفودها إلى القائد المقدوني لمفاوضته في الصلح واستعاد الحزب الموالي لمقدونيا في أثينا نفوذه القديم فأرسلت أثينا تطلب الهدنة من أنتيباتر .

وأعلن انتيبار استعداده للتوقف عن مهاجمة أثينا بشرط أن تخضع لمطالبه ومنها تسليم عدد من الزعماء الوطنيين في مقدمتهم ديموستين .
واستطلاع «ديمادس» أكبر خصوم ديموستين أن يحمل المجلس على قبول شروط القائد المنتصر .

وأدرك الخطيب العظيم أنها النهاية . فهرب إلى جزيرة كالوريا ، ولجأ إلى معبد الاله «بوسيدن» الذي كان حرماً يقدسه أهل اليونان .

وكان «انتيمبار» قد أرسل عملاقاً من أتباعه يدعى «أركياس» الذي بدأ حياته ممثلاً للقبض على ديموستين ، فحاصر المعبد مع فرقة من فرسان تراقيا ، وحاول أن يحمل ديموستين على الخروج من المعبد المقدس ، فأخذ يؤكد له أن القائد المقدوني سيعفو عنه لو سلم نفسه .

وجلس ديموستين صامتاً يحدق في الأرض وكأنما كان يدبر في رأسه أمراً ثم نظر إلى أركياس وقال له متهمكاً :

— إنك يا أركياس لم تستطع يوماً أن تؤثر في بتمثيلك ، وإن استطعت اليوم أن تؤثر في بوعودك !

فغضب أركياس ، وبدأ يهدد ويتوعد ، فقال له ديموستين :

— إنك تتكلم الآن كمقدوني ، أما قبل ذلك فقد كنت ممثلاً زائفاً .

ولمعت عيننا ديموستين بعزم رهيب ، فقال لرسول انتيبار :

— انتظر حتى أكتب لأصدقائي .

ثم انسحب إلى داخل المعبد ، ولكنه كان ظاهراً لمن في الخارج ، وتناول قصاصة ورق ، ثم جلس أمام منضدة في الهيكل كأنه يريد الكتابة ، ووضع القلم في فيه وعض عليه بأسنانه كما كانت عادته عند الكتابة ، ثم تقلصت

عضلات وجهه فمال برأسه إلى الخلف ، وسحب عباءته فغطى بها وجهه . ورأى ذلك الواقفون بباب المعبد، فظنوا أن الخوف قد استولى على الخطيب العظيم ، ودخل إليه أركياس يريد أن يشجعه على النهوض ويكرروعوده ومساوماته . وكان ديموستين قد شعر بأن السم الذي امتصه من القلم بدأ يسرى في أوصاله ، فأزاح العبادة عن وجهه وقال لأركياس :

— يمكنك الآن أن تلعب في المأساة دور « كريون » كما تشتهى ، ويستطيع أعداء أثينا أن يطرحوا جثتي للجوارح بغير اكتراث ، ولكنني أيها الأله الكريم « بوسيدن » أترك معبدك وما زلت حيا كي لا أسمح لأنتيبار ورجاله أن يدينوا قداسته .

وتحرك ديموستين نحو الباب وهو يناديهم ويطلب إليهم أن يساعدوا خطواته المترنحة . ولم يكذ يتخطى عتبة معبد الأله حتى انهارت قواه فسقط ، وفي صيحة أخيرة أسلم الروح .

الإمام عليّ

« لا يفتينّ أحد في المسجد » وعليّ « حاضر »

عمر بن الخطاب

الأمام علي

كان « علي بن أبي طالب » إمام الفصحاء ، وسيد البلغاء ، وكان كلامه أبليغ كلام بعد القرآن والحديث . وقد فاضت كتب التاريخ العربي بالكثير المأثور عن فصاحته ومنزله العلمية ، ومقدرته الخطابية :

قال « عبد الحميد بن يحيى » :

— حفظت سبعين خطبة من خطب الأصابع ، ففاضت ثم فاضت .. !

وقال ابن نباته :

— حفظت من الخطابة كنزاً لا يزيد الإنفاق إلا سعة وكثرة . حفظت مائة فصل من مواعظ علي بن أبي طالب .

وكان الأمام علي رضي الله عنه واسع المعرفة ، فما سمعنا بعلم من العلوم الإسلامية أو العلوم القديمة لم ينسب إليه ، فكان أبرع الصحابة في علوم الدين ، إماماً في الفقه والتفسير ، حجة في الفتيا . وكان عمر بن الخطاب يرجع إليه في كثير مما يشكل عليه من المسائل ، وروى عنه أنه كان يقول « لولا عليّ لهلك عمر » ، ويقول « لا بقيت لمعضلة ليس لها أبو الحسن » . كما روى عنه أنه قال « لا يفتين أحد في المسجد وعليّ حاضر » .

وكان النبي عليه الصلاة والسلام يقول « أقضاكم عليّ » ، وكان النبي قد دعا له عندما بعثه قاضياً إلى اليمن فقال « اللهم أهد قلبه وثبت لسانه » .

والأمام علي هو الذي ابتدع علم النحو ، وأملأ أصوله الأولى على أبي الأسود الدؤلي ، وقد اتصلت الحلقات بينه وبين علماء الكلام والتوحيد ، كما اتصلت بيده وبين علماء الفقه والشريعة ، وعلماء الأدب والبلاغة ، فهو أستاذ هؤلاء جميعاً ، وكان لذلك أحق الأئمة بلقب الأمام .

سئل عبد الله بن عباس ، وكان من أعلم الصحابة في الفقه والدين والتفسير « أين علمك من علم ابن عمك ؟ » فقال « كنسبة قطرة المطر إلى البحر لمحيط .. » .

وكانت هذه الثقافة الواسعة ، والإحاطة الشاملة مادة خصبة تغذى خطبه وأحاديثه فتضفي عليها الجد والرصانة ، وتهيء له الحكمة وفصل الخطاب .

وكان رضى الله عنه يعتز بعلمه ، ويؤثر عنه أنه كان يقول « أسألوني قبل أن تفقدوني ، فوالذى نفسى بيده ، لا تسألوني فى شىء فيما بينكم وبين الساعة ، ولا عن فئة تهدى مائة وتضل مائة ، إلا أنبأتكم بناعقها وقائدها وسائقها ومناخ ركابها ومحط رحالها .. » .

أما أسلوبه فى الكتابة فكان أسلوب الأديب الذى سبق غيره إلى التفنن والتجويد ، وأضفى على الكتابة صبغة الأنشاء الذى يقتدى به فى الأساليب . وقد نسب إليه ديوان من الشعر يحوى ألفا وأربعمائة بيت أكثرها فى الحكمة والزهد والابتهال ، غير أن هذا الشعر مشكوك فى صحته نسبه إليه . أما النشر فقد وصل إلى أيدينا الكثير مما جمعه الرواة ، وهو يشمل على خطبه وكلماته فى الحكم والمواعظ والأمثال وغير ذلك . وأشهر هذه الكتب « نهج البلاغة » وهو ما جمعه الشريف الرضى من خطب الأمام ورسائله وكلماته ، وإن كان يشتمل بدوره على جزء مشكوك فيه ، مما أقحمه الرواة على كلام الأمام .

هذا هو الأمام العالم الفقيه الأديب ، ومن هذه العناصر يبرز الأمام الخطيب . فإذا قرأنا خطبه ، تمثل لنا الأمام خطيبا نادر المثل . عقل ذكى ، واسع الأفق ، يلم بشتى العلوم ، ومعرفة دقيقة بظبائع الأشخاص وخصائص الأشياء ، وأسلوب يمتاز بالجزالة والفحولة ، يتدفق بالقول البليغ المقنع ، يخاطب العقول والقلوب .

وكانت له من الصفات ما يلزم الخطيب في مثل عصره والمجتمع الذي عاش فيه . فكان شجاعاً تضرب الأمثال بشجاعته ، ويروى عنها ما يشبه الأساطير . فكان الخطيب الصريح الجريء الذي يجهر بما يعتقد حقاً لا يعرف نفاقاً أو رياء ، يجبه الناس برأيه واضحاً صريحاً ، ويخاطبهم وقد تناقلوا عن نصرته وحرب أعدائه فيقول لهم : « يا أشباه الرجال ولا رجال ، ويا طغام الأحلام ، ويا عقول ربات الرجال .. ! »

ويقول لهم من خطبة في غارة الضحاك بن قيس على الحيرة :

— أيها الناس المجتمعة أبدانهم ، المختلفة أهواؤهم . كلامكم يوهى الصم الصلاب ، وفعلكم يطمع فيكم الأعداء . ماعزت دعوة من دعاكم ، ولا استراح قلب من قاساكم . أعاليل بأضاليل ! أي دار بعد دراكم تتمعون ! ؟ ومع أي إمام بعدى تقاتلون ؟

المفرور والله من غررتموه ، ومن فاز بكم فقد فاز والله بالسهم الأخيب . أصبحت لا أصدق قولكم ، ولا أطمع في نصركم ، ولا أوعد العدو بكم . ما بالكم ؟ ما دواؤكم ؟ ما طبكم ؟ القوم رجال أمثالكم . أقولا بغير علم ، وغفلة عن غير ورع ، وطمعا في غير حق .. ؟ »

وكان حاضر البديهة ، سريع الجواب ، يسهفه علمه الواسع بالرد المطلوب . كان يخطب على المنبر في الكوفة ، فسأله رجل عن نصيب الزوجة في ميراث ميت ترك زوجة وأبوين وابنتين ، فأجابه على الفور « صار ثمنها تسعا . » . ومغنى في خطبته .

وقد اشتهر عليه السلام بساحة الخلق ، وطلاقة الوجه ، وكثرة الابتسام ، وهي صفات محبوبة في الخطيب . وقد روى عن عمر بن الخطاب أنه كان يقول له « لله أبوك لولا دعاية فيك .. ! »

وقد حاول عمرو بن العاص استغلال هذا الأمر في محاربة عليّ ، فأخذ يردد بين أهل الشام أن عليا ذو دعاية شديدة ، ليقدم بذلك في صلاحيته للخلافة ، حتى اضطر الأمام إلى الرد عليه ، فقال في إحدى خطبه :

— « عجبا لابن النابغة ، يزعم لأهل الشام أن فيّ دعاية ، وأنى أمرؤ تلعابه^(١) . لقد قال باطلا ، ونطق آثما . إنه ليقول فيك كذب ، ويمد فيخلف ويسأل فيلحف ، ويسأل فيبخل ، ويخون العهد ، ويقطع الآل .. الخ »
ولكن هذه الدعاية المنسوبة إليه إن صحت ، كانت تقربه إلى القلوب ولا تنتقص من هيئته .

قال معاوية لقيس بن سعد :

— رحم الله أبا الحسن ، لقد كان هاشما بشا ذا فـكاهة .
فقال قيس :

— أما والله لقد كان مع تلك الفكاهة والطلاقة أهيب من ذى لبدين^(٢)
قد مـسه الطوى^(٣) .

وقال « ضرار » من كلام له في وصفه رضى الله عنه ، عندما ألح عليه معاوية أن يصفه ، قال :

— كان يقول فصلاً ، ويحكم عدلاً ، يتفجر العلم من جوانبه ، وتنطق الحكمة من نواحيه . كان فينا كأحدنا ، يجيبنا إذا سألناه ، وينبئنا إذا استنبأناه ونحن مع تقريبه إيانا وقربه منا ، لا نكاد نكلمه لهيئته ، ولا نبتدئه لعظمته .

هذه بعض صفات الأمام الخطيب ، وملامح نفسه التي تشترك في تكوين شخصيته كخطيب .

(١) كثير اللعب والمزاح (٢) كناية عن الأسد (٣) الجوع

أما ملامح جسمه فقد ذكر من وصفوه أنه كان ربعة في الرجال ، أسمر اللون ، أصابع الرأس ، طويل اللاحية ، له عينان دجأوان واسعتان ، حسن الوجه ، واضح البشاشة ، عريض المنكبين ، قوى العضل ، يميل إلى السمرة في غير إفراط ، يتسكفاً في مشيته على نحو يقارب مشية النبي (ص) وكان رائع الصوت قويه ، يصيح الصيحة في الحرب فتتخلع لها قلوب الشجعان .

هذا هو عليّ ، الفارس الشجاع ، والفقيه العالم ، والخطيب البليغ ، تمتاز هذه الصفات كلها بنفسه ، لتكمل لنا ملامح الخطيب ، فإذا هو سيد المنابر في عصره ، ونموذج رائع للخطيب العظيم في كل العصور .

فما هي العوامل التي هيأت له هذه المنزلة الرفيعة في عالم البلاغة والخطابة؟

هذا سؤال بسيط الجواب عليه لمن ينظر في نشأة الإمام وتاريخه.

فالإمام عليه السلام كان من البيت الهاشمي ، أكرم عناصر قريش ، وأفصح العرب لساناً ، وكان جده « كعب بن لؤي » وهو الجد السابع له وللهي ، من أقدم خطباء العرب ، ولما مات أكبروا موته وأرخوا به حتى كان عام الفيل . وكان أجداده قصي وهاشم وعبدالمطلب ، وأبوه أبو طالب ، كلهم من خطباء العرب المعدودين .

ولما بلغ « علي » السادسة من عمره أصابت قريشا أزمة وقحط . فأشار النبي علي عميه حمزة والعباس أن يعاونوا أبا طالب في تربية أولاده ، فكان « علي » من نصيب النبي عليه الصلاة والسلام . وهكذا نشأ « علي » في بيت النبوة ، ينعم برعاية ابن عمه العظيم ، حتى إذا أظهر الرسول دعوته ، كان (علي) أول من آمن به من الصبيان ، وكرم الله وجهه عن السجود للأوثان .

شب علي في حجر النبي ، أفصح الناس وأبلغهم ، فكان النبي أستاذه الأول ، ثم تعلم الكتابة وهو صغير ، ودرس الكلام البليغ من روايات

الألسن وتدوين الأوراق . ولما نزل القرآن كان من كتاب وحى النبي، و كان أول من حفظ القرآن كله ، واشتغل بجمعه وتدوينه ، فتتلمذ بعد الرسول على القرآن ، أبلغ كلام عربى عرفه الناس ، وجعله موضوعاً للمدرس والتفكير ، ومصدراً للاقتباس والإلهام .

ولقد ساعده على ذلك أنه بقى نحو ثلاثين سنة بعيداً عن مشاغل الحكم والسياسة ، متفرغاً أو يكاد يتفرع لفنون البحث والدراسة ، ثم بويع بالخلافة بعد فتنة من أروع الفتن الدامية فى تاريخ الإسلام ، وهى مقتل الخليفة عثمان بن عفان . ومنذ اليوم الأول لخلافته لم تهدأ الفتن ، بل زادت وأستفحل أمرها ، وثارت فى وجهه عناصر مختلفة الأغراض والأهداف ، ولكنها كلها تجتمع على مقاومته وحربه ، وهكذا قضى أيام خلافته كلها يجاهد العناصر الثائرة ، ففجرت هذه الأحداث والخطوب فى قلبه ينابيع البلاغة ، وجرت على لسانه الخطب الخالدة فيما اقتضته تلك الظروف العصبية من أغراض ، واتسع المجال أمام فصاحته للظهور .

* * *

هذه لمحة عن العوامل التى هيات للإمام « على » الوصول إلى تلك المنزلة الرفيعة من البلاغة بحيث كان أفقه العلماء ، وأبلغ الخطباء فى زمانه . فما هى الأغراض التى كانت تدفع به إلى المنبر ، ليلقى فى سمع التاريخ تلك الكلمات البليغة الخالدة ؟

كانت الأغراض التى تناو لها الأمام فى خطبه مختلفة متنوعة . وإن من يطالع مجموع هذه الخطب ليأخذ العجب من تنوع أغراضها ، وتعدد نواحيها ودواعيها . وقد سبق غيره إلى الكلام فى موضوعات لم يطرقها الخطباء ، ولم يدون لأحد من الخلفاء والصحابة مثل مادون له من خطب كثيرة تدل على

اتساع أفق تفكيره ، وشمول ثقافته . كما أن الاحداث العصبية التي واجهها في سنوات خلافته ، فتحت أمامه أبوابا جديدة للخطابة ، فكان « نهج البلاغة » كما قال الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده :

« حاويا جميع ما يمكن أن يعرض للكاتب والخطيب من أغراض الكلام فقد تعرض للمدح والذم الأدبي ، وللتغيب في الفضائل ، والتنفير من الرذائل والمحاورات السياسية ، والمخاضات الجدلية ، ولبيان حقوق الراعى على الرعية وحقوق الرعية على الراعى ، وأتى على الكلام في أصول المدنية ، وقواعد العدالة ، وفي النصائح الشخصية والمواعظ العمومية . . . »

ولقد جاء الإسلام بفرض على الناس صلاة الجمعة ، ومن أركانها خطبة يلقيها الإمام قبل أن يصلى بالناس . والغرض من هذه الخطب وعظ الناس وإرشادهم إلى ما ينفعهم في أمور دينهم ودنياهم . وإننا حين نقرأ أخطب الإمام في هذا الغرض نجد قد طبعها بطابعه ، وأفاض عليها من علمه وتفكيره . فهو يتحدث فيها عن الله سبحانه وتعالى حديث المفكر المتأمل ، يستدل على وجوده تعالى ببدايع صنعه ، وعجائب مخلوقاته ، فتراه يصف السامع في بعض خطبه السطاووس والخفاش والنمل وصفاً هو آية في الدقة والبلاغة ، ليبين لهم حكمة الله ومقدرته ، ويذكر في بعض هذه الخطب من صفات الله ما كان في الواقع أساساً لعلم التوحيد وهو يعظ السامعين ليزهدهم في التكالب على الدنيا ، ويحبب إليهم التزود للآخرة بالعمل الصالح ، والجهاد في سبيل الله . ويصف لهم الأنبياء السابقين ، والقرون الماضية ، والعهود الخالية ، ويستخلص من ذلك العبرة والموعظة الحسنة ولهذا كانت خطب الأمام في الوعظ فريدة في بابها . كانت مزيجاً من حرارة إيمانه ، وغزير علمه ، وعمق تفكيره . وكان يلقي ذلك كله على الناس في أسلوب جزل بليغ .

فمن كلامه في خطبة طويلة سميت بالخطبة الغراء يعظ الناس ويحذرهم
وسوسة الشيطان :

— أوصيكم بتقوى الله الذي أعذر بما أنذر، وحذركم عدوا نفذ في الصدور
خفياً ، ونقث في الأذان نجياً ، فأضل وأردى ، ووعد فمى ، وزين سيئات
الجرائم ، وهون موبقات العظائم ، حتى إذا استدريج قرينته ، واستغلق رهينته
أنكر مازين ، واستعظم ما هون .

ومنها يصف خلق الإنسان :

« أم هذا الذى أنشأ فى ظلمات الأرحام ، نطفة دهاقا ، وعلقة محاقا ،
وجنيناً وراضعاً ، ووليداً ويافعاً ، ثم منحه قلباً حافظاً ، ولساناً لافظاً ، حتى
إذا قام اعتداله ، واستوى مثاله ، نفر مستكبراً ، وخبط سادراً ، ما تحافى
غرب هواه^(١) ، كادحاً سعياً لدنياه . . »

ثم يصف لهم سكرة الموت ، ووحشة القبر ، وعذاب الآخرة ، حتى قيل
فى خبر هذه الخطبة ، إنه لما خطبها اقشعرت الجلود ، وبكت العيون ،
ورجفت القلوب .

ومن خطبة له فى وصف الله سبحانه وتعالى :

— لا يشغله شأن ، ولا يغيره زمان ، ولا يحويه مكان ، ولا يصفه لسان .
لا يغرب عنه عدد قطر الماء ، ولا نجوم السماء ، ولا سوافى الريح فى الهواء ، ولا
ديب النمل على الصفا ، ولا مقيل الذر^(٢) فى الليلة الظلماء ، يعلم مساقط الأوراق ،
وخفى طرف الأحداق . . الخ .

(١) متح الماء نزعاً ، والغرب هو الدلو ، أى لا يستقى إلا من هواه .

(٢) الذر صغار النمل

ومن كلام له يذكر فيه حكاية أخيه « عقيل » عندما جاءه يطلب منه أن يعطيه من بيت المال ما يستعين به على إطعام أولاده. وكان عقيل قد كبر وكف بصره ، فأحى الأمام حديدة وقدمها إليه ، فظنها عقيل صرة مال ، فأهوى إليها بيده فأحرقتها ، قال :

— والله لقد رأيت عقيلًا وقد أملق حتى استأخى من بُركم^(١) صاعا ، ورأيت صبياناه شعث الشعور ، غبر الألوان من فقرهم ، وعادوني سؤكدا ، وكرر على القول مرددا ، فأصغيت إليه سمعى ، فظن أنى أبيع دينى وأتبع قياده مفارقا طريقى . فأحميت له حديدة ثم أدنيتها من جسمه ليعتبر بها ، فضج ضجيج ذى دَنَف^(٢) من ألمها ، وكاد أن يحترق من ميسمها^(٣) . فقلت له ثسكاتك الثواكل يا عقيل ، أتئن من حديدة أحماها إنسانها للعبه ، وتجرنى إلى نار سجرها^(٤) جبارها لفضبه ؟ أتئن من الأذى ولا أئن من اللظى ؟

والله لو أعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصى الله فى نملة أسلمها جلب شعيرة ما فعلت . وإن دنياكم عندى لأهون من ورقة فى فم جرادة تقضمها . ما لعلى ولنعم يفنى ، ولذة لا تبقى ؟! نعوذ بالله من سبات العقل ، وقبح الزلل ، وبه نستعين .

وقال فى خطبة له يصف بها المتقين ، وكان صاحب له يدعى « هام » قد ألح عليه أن يصف له المتقين حتى كأنه ينظر إليهم ، فقال :

— « المتقون هم أهل الفضائل ، منطقهم الصواب ، وملبسهم الاقتصاد ،

(١) البر بضم الباء القمح (٢) المرض الشديد

(٣) الميسم المكواة (٤) أحماها

الدنيا فلم يريدوها ، وأسرتهم ففقدوا أنفسهم منها . . « إلى أن قال :
— ومن علامة أحدهم أنك ترى له قوة في دين ، وحزما في لين ، وإيمانا
في يقين ، وحرصا في علم ، وعلمًا في حلم ، وقصداً في غنى ، وخشوعا في عبادة ،
وتجملا في فاقة ، وصبرا في شدة ، وطلبا في حلال ، ونشاطا في هدى ، وتحرجا
عن طمع ، يعفو عن ظلمه ، ويعطي من حرمه ، ويصل من قطعه . نفسه منه في
عناء ، والناس منه في راحة ، أتعب نفسه لآخرته وأراح الناس من نفسه . الخ »
بمثل هذه الكلمات البليغة القوية كان يعظ الناس . وعندما بويع بالخلافة
في المدينة ، خطب الناس ، فكان مما قاله في خطبته :

— ذمّتي بما أقول رهينة ، وأنا به زعيم . إن من صرّحت له العبر عما بين
يديه من المثلثات ، حجزته التقوى عن تقحم الشبهات . إلا وإن بليتكم قد
عادت كهيتها يوم بعث الله نبيكم صلى الله عليه وآله . والذي بعثه بالحق ،
لتبليبن ببلية ، ولتغربن غربلة ، ولتساطن سوط القدر ، حتى يعود أسفلكم
أعلامكم ، وأعلامكم أسفلكم . ألا وإن الخطايا خيل شمس ، تحمل عليها أهلها ،
وخلفت لجمها ، فتقحمت بهم النار . ألا وإن التقوى مطايا ذل تحمل عليها
أهلها ، وأعطوا أزمته فأوردتهم الجنة .

* * *

لم تكن خطب الإمام « علي » وعظا وإرشادا فحسب ، فإن أروع خطبه
تلك التي تتصل بالفتن التي امتزجت بسنوات خلافته . ذلك أنه لم يكذب يبايع
بالخلافة حتى بدأت متاعبه ، فتجلت في الخطابة مواهبه . فقد نقض طلحة
والزبير البيعة ، وانضمت إليهما السيدة عائشة ، وخرج عليه معاوية بالشام ، ثم
انقسم أتباعه بعد موقعة « صفين » وعصته فئة سميت بالخوارج . ووقف الإمام
(م ٣ — خطباء)

وسط هذه العواصف الهوج يكافح ويناضل، ويجاهد بيده ولسانه ، ورويت عنه في هذا الكفاح أروع خطبه .

فعندما أحاط الثأرون بالخليفة الشهيد عثمان بن عفان وقتلوه ، اتجه الناس إلى علي بن أبي طالب ليبايعوه بالخلافة ، فتردد الإمام في قبول الخلافة ، وخطب فيهم قائلاً :

— دعوني والتمسوا غيري ، فإننا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان ، لا تقوم له القلوب ، ولا تثبت عليه العقول . إن الآفاق قد أغامت ، والحجة قد تنكرت ، واعلموا أنني إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم ، ولم أصغ إلى قول القائل وعتب العاتب . وإن تركتموني فأنا كأحدكم ، ولعل أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم . وأنا لكم وزيراً ، خير لكم مني أميراً ... »

كانت هذه كلمات الإمام لمن أرادوه على البيعة . رأى الأفق يضطرب بالأحداث فزهد في الخلافة بعد أن كان يرى أنه أحق الناس بها بعد وفاة النبي . إن الآفاق قد أغامت . . . ! هكذا قال لهم الإمام . وقد أغامت الآفاق حقاً ، وبدأت متاعبه منذ اليوم الأول لخلافته ، وقضى عليه أن يقضى سنوات خلافته القصيرة في نضال متصل مع خصومه والخارجين عليه ، وقاضت بلاغته في هذه الفترة بأروع خطبه الخالدة .

عندما نقض طلحة والزبير بيعتهما وخرجا من المدينة إلى البصرة حيث انضم إليهما خلق كثير ، أسرع إليهم الإمام بجيشه ، وظفر بهم في الموقعة المعروفة بموقعة الجمل .

وكان معاوية رالياً على الشام ، فلما بويع لعل بالخلافة أيقن أنه سيعزله ، فامتنع عن مبايعته ، واتهمه بالإشتراك في قتل عثمان . وخرج « علي » لحربه ، والتقى بجيش معاوية في سهل « صفين » . فلنستمع إليه يخطب جنوده ويأمرهم

بما يتفق مع المبادئ الإنسانية ، وآداب الفروسية فيقول :

— « لا تقاتلوا القوم حتى يبدءوكم ، فأنتم بحمد الله على حجة ، وترككم إياهم حتى يبدءوكم حجة أخرى لكم . فإذا قاتلتهم فهزمتموهم فلا تقتلوا مُدبراً ، ولا تجهزوا على جريح ، ولا تكشفوا عورة ، ولا تمثلوا بقيل . فإذا وصلتكم إلى رحال القوم فلا تهتكوا سترا ، ولا تدخلوا داراً إلا بإذن ، ولا تأخذوا شيئاً من أموالهم إلا ما وجدتم في عسكرهم ، ولا تهيجوا امرأة بأذى وإن شئتم أعراضكم ، وسببن أمراءكم ، فأهن ضعاف القوى والأنفس .. »

وبعد مناوشات طويلة اشتد القتال بين الجيشين . وكان « على » يخرج كل يوم فيقف بين الصفين ثم ينادى :

— يا معاوية ... علام يقتل الناس ؟ أبرز إلىّ وأبرز إليك ، فيكون الأمر لمن غلب .

والكن معاوية لم يخرج إليه ، ورجعت كفة جيش الإمام ، وكاد أن يكسب المعركة ، لولا الحيلة المشهورة التي أشار بها « عمرو بن العاص » على صاحبه « معاوية » فرفع جيشه المصاحف على أطراف الرماح ، ونادوا بتحكيم كتاب الله . فلما رآها أصحاب « على » اختلفوا ، ورأى فريق كبير منهم قبول التحكيم ، فخطب فيهم « على » قائلاً :

— عباد الله ... أمضوا على حقكم وصدقكم وقتال عدوكم ، فإن معاوية وعمرأ وأصحابهما ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن . أنا أعرف بهم منكم ، فقد صحبتهم أطفالا ، وصحبتهم رجالا ، فكانوا شر أطنال وشر رجال . ويحكم إنهم ما رفعوا المصاحف إلا خديعة ومكيدة ... ! »

ولكن هذه الصيحات ذهبت أدراج الرياح ، واضطره أصحابه إلى الكف عن القتال وقبول التحكيم . وكان بعد ذلك ما هو معروف من

اختيار الحكيم ، وكتابة العهد بينهما ، وانفاقهما على الاجتماع بدومة الجندل
فى شهر رمضان ليحكم بين الفريقين . ورجع « على » إلى الكوفة التى اتخذها
مقراً لخلافته ، وجيشه فى شقاق واختلاف . ولم يلبث أن انشق عليه من
أصحابه جماعة الخوارج ، رموه بالكفر لأنه قبل ذلك التحكيم ، وزعموه
قبولاً للتحكيم فى كلام الله وفى دماء المسلمين ! وقام « على » يخطب الناس
ويقول :

— الحمد لله وإن أتى الدهر بالخطب الفادح والحدث الجلل . أما بعد ، فإن
معصية الناصح الشفيق العالم الجرب تورث الحيرة ، وتعقب الندامة . وقد
كنت أمرتكم فى هذه الحكومة أمرى ، ونحلت لكم مخزون رأى ، لو
كان يطاع لقصير أمر ، فأبستم على إباء المخالفين الجفافة ، والمنابذين العصاة ،
حتى ارتاب الناصح بنصحه ، وضنّ الزند بقدحه ، فكنت وإياكم . كما قال
أخوه هوازئ :

أمرتكم أمرى بمنعرج اللوى % فلم تستبينوا الرشداً الاضحى الغد
وهل أنا إلا من غزية أن غوت % غويت وأن ترشد غزية أرشد .
ولما يئس « على » من توبة الخوارج خرج إليهم بجيشه فسحقهم .

أما التحكيم فقد فشل عندما اجتمع الحكمان ، وانتهى بمهزلة محزنة ،
فأراد « على » أن يتوجه لحرب « معاوية » بعد أن قضى على الخوارج ،
ولكن أصحابه ثاقلوا عن الحرب ، وانتحلوا المعاذير لعودتهم ، وطلبوا
تأجيل الحرب فترة يستعدون فيها ، ولسكنهم لم يخرجوا بعد ذلك أبداً .

ورأى « معاوية » ضعفهم فكان يرسل جيوشه إلى أطراف الأقاليم التابعة
لعلى فتغیر عليها وتقتل من فيها من الجند وتنهب الأموال . وقضى « على »
هذه السنوات يحرص أصحابه على القتال ، وهم يتثاقلون ويسوفون . وقد روى

عن الإمام في هذه الفترة أروع خطبه التي تنضح بالمرارة ، وتم عن ضيقه بأصحابه ويأسه منهم ، وتفيض باللوم والتأنيب والتقريع .

هذا هو الإمام يقارن في إحدى خطبه بين أصحابه وأصحاب معاوية فيقول :

-- أما والذي نفسى بيده ليظهرن هؤلاء القوم عليكم ، ليس لأنهم أولى بالحق منكم ، ولكن لإسراءهم إلى باطل صاحبهم ، وإبطائكم عن حقى . ولقد أصبحت الأمم تخاف ظلم رعاتها ، وأصبحت أخاف ظلم رعيتي . استنفرتكم للجهاد فلم تنفروا ، وأسعتكم فلم تسمعوا ، ودعوتكم سراً وجهرأ فلم تستجيبوا ، ونصحت لكم فلم تقبلوا . أشهود كغياب ؟ وعبيد كآرباب ؟ أتلو عليكم الحكم فتنفرون منها ، وأحسكم على جهاد أهل البغى فما آتى على آخر القول حتى أراكم متفرقين أيدي سبا . أيها الشاهدة أبدانهم ، الغائبة عقولهم ، المختلفة أهواؤهم ، المبتلى بهم أمراؤهم ، صاحبكم يطيع الله وأنتم تعصونه ، وصاحب أهل الشام يعصى الله وهم يطيعونه . لوددت والله أن معاوية صار فى بكم صرف الدينار بالدرهم ، فأخذ منى عشرة منكم وأعطانى رجلا منهم . يا أهل الكوفة .. منيت منكم بثلاث واثنين ، صم ذوو أسمع ، وبكم ذوو كلام ، وعمى ذوو أبصار . لا أحرار صدق عند اللقاء ، ولا أخوان ثقة عند البلاء . يا أشباه الأبل غاب عنها رعاتها ، كلما جمعت من جانب تفرقت من جانب آخر » . .

وجاءته الأنباء يوماً بأن خيلاً لمعاوية أغارت على « الأنبار » ، وأن المغيرين قتلوا عاملاً له ، فخرج الإمام مغضباً يجر ثوبه حتى أتى النخيلة ، وتبعه الناس ، فرقى رباوة من الأرض وارتجل هذه الخطبة الخالدة .

قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

— « أما بعد ، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة ، فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل ، وشمله البلاء ، ودُيِّثَ ^(١) بالصغار وقد دعوتكم إلى حرب هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً ، وسراً وإعلاناً ، وقلت لكم أغزوهم قبل أن يغزوكم فوالذي نفسي بيده ما غزى قوم في عقر دارهم إلا ذلوا ، فتخاذلتم وتواكلتم ، وثقل عليكم قولي ، حتى شنت عليكم الغارات » . .

وبعد أن وصف لهم الحادث كما بلغه قال :

— يا عجباً كل العجب ! عجب يميم القلب ، ويشغل الفهم ، ويكثر الأحزان ، من تضافر هؤلاء القوم على باطلهم ، وفشلكم عن حقكم . فقبحاً لكم وترحاً حين صرتم غرضاً ترمون ولا ترمون ، ويُغار عليكم ولا تغفرون ، ويعصى الله وترضون . إذا قلت لكم أغزوهم في الشتاء ، قاتم هذه حمارة القر ^(٢) ، أنظرونا حتى ينصرم الحر عنا . وإذا قلت لكم اغزوهم في الصيف ، قاتم هذه حمارة القيظ ^(٣) ، أنظرونا حتى ينصرم الحر عنا . فإذا كنتم من الحر والبرد تفرون ، فأنتم والله من السيف أفر . يا أشباه الرجال ولا رجال ، ياطغام الأحلام ، ويا عقول ربات الحجال . وددت أن الله قد أخرجني من بين ظهرانيكم ، وقبضني إلى رحمته من بينكم . والله لوددت أني لم أركم ولم أعرفكم ، معرفة جرت ندماً وملأت صدرى غيظاً . لقد أفسدتكم على رأيي بالعصيان ، حتى قالت قريش إن ابن أبي طالب شجاع ولا يمكن لا علم له بالحرب . لله أبوهم . . ومن ذا يكون أعلم بهامني أو أشد لها مراساً ؟ لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين ، ولقد نيفت اليوم على الستين . ولكن لا رأي لمن لا يطاع » .

هذه أمثلة من خطب الإمام في الحث على الجهاد ، وهي كثيرة يمكن الرجوع إليها في « نهج البلاغة » لمن يريد المزيد .

ولقد ظل الإمام يهدر بالقول البليغ محاولاً استنهاض الهمم لحرب معاوية الذي استقل بالشام ، حتى قرر أخيراً أن يخرج لحسم هذا الأمر الذي طال . وأعلن عزمه هذا في آخر خطبة رويت عنه قبل مقتله . فقد روى عن « نوف البكالي » أنه قال :

« خطبنا هذه الخطبة أمير المؤمنين بالكوفة ، وهو قائم على حجارة نصبها له جمعة بن هبيرة الخزومي ، وعليه مدرعة من صوف ، وحمائل سيفه ليف ، وفي رجليه نعلان من ليف . وقد بدأ الإمام بذكر الله وأفاض في صفاته ، وحدثهم عن الحياة والموت حديثاً بليغاً ، ثم ختم كلامه قائلاً :

— أيها الناس . . إني قد ثبتت لكم المواعظ ، وأدبتكم بسوطي فلم تستقيموا ، وحدوثكم بالزواج فلم تستوسقوا ، لله أنتم ! ! أتتوقعون إماماً غيري يظاً بكم الطريق ويرشدكم السبيل !؟ ألا إنه قد أدبر من الدنيا ما كان مقبلاً ، وأقبل منها ما كان مدبراً ، وأزعم الترحال عباد الله الأخيار ، وباعوا قليلاً من الدنيا لا يبقى ، بكثير من الآخرة لا يفنى .

ثم نادى بأعلى صوته :

— الجهاد الجهاد عباد الله . ألا وإني معسكر في يومى هذا ، فمن أراد الرواح إلى الله فليخرج .

قال « نوف البكالي » :

— وجهز الإمام جيشه ، فعقد للحسين في عشرة آلاف ، ولقيس بن سعد في عشرة آلاف ، ولأبي أيوب في عشرة آلاف ، ولغيرهم على أعداد آخر ، وهو يريد الرجعة إلى « صفين » . فمادت الجمعة حتى ضربه « ابن ملجم » ،

فتراجعت العساكر . فكنا كأغنام فقدت راعيها تختطفها الذئاب سن كل مكان .

* * *

ونختم الحديث عن الإمام الخطيب . بالخطبة القصيرة المؤثرة التي ألقاها عند دفن زوجته السيدة فاطمة ، بنت النبي صلى الله عليه وسلم . لقد تزوجها الإمام وعاش معها لا يقرن بها زوجة أخرى ، حتى ماتت بعد موت النبي بستة أشهر ، ولم تبلغ الثلاثين من عمرها ، فدفنها إلى جوار أبيها العظيم ، وألقى عند دفنها هذه الكلمات التي تصور حزن الرجل القوى المؤمن ، وكيف يثبت للمصائب الكبار ، فلا يخرج الحزن عما يجمل به من وقار : قال :

— السلام عليك يا رسول الله عنى وعن ابنتك النازلة في جوارك والسريعة اللحاق بك . قلَّ يا رسول الله عن صفيتك صبرى ورقَّ عنها تجلدى . إلا أن لى فى التأسى بعظيم مُرقتك ، وفادح مصيبتك موضع تعزٍّ . فلقد وسدتك فى ملحودة قبرك ، وفاضت بين نحري وصدرى نفسك . إنا لله وإنا إليه راجعون ، فلقد استرجعت الوديعة ، وأخذت الرهينة . أما حزنى فسرمد ، وأما ليلى فمسهد ، إلى أن يختار الله لى دارك التى أنت بها مقيم . وسقنبئك ابنتك بضمافر أمتك على هضمها ، فاصفها السؤال ، واستخبرها الحال . هذا ولم يطل العهد ، ولم يخل منك الذكر ، والسلام عليكما سلام مودع لا قالٍ ولا سيم . فإن أنصرف فلا عن ملالة ، وإن أقم فلا عن سوء ظن بما وعد الله الصابرين .

زیراد ابنے ایبہ

« ما سمعتُ متکلباً علی منبر قط تکلم فأحسن »
« إلا أحببتُ أن یسکت خوفاً أن یسئء إلا »
« زیادا فإنه كلما أکثر کان أجود کلاماً »

الشعبی

زياد ابن أبيه

خطيب من دهاة العرب وساستها ، اشتهر بالذكاء والشجاعة ، كما اشتهر بالفصاحة والبلاغة ، حتى لقد روى عن « الشعبي » أنه قال : « ما سمعت متمكماً على منبر قط تكلم فأحسن إلا أحببت أن يسكت خوفاً أن يسيء » ، إلا زيادا ، فإنه كلما أكثر كان أجود كلاماً .

ذلك هو زياد بن عبيد ، أو زياد ابن أبي سفيان ، كما سمي نفسه عندما ألحق معاوية نسبه بوالده أبي سفيان ، أو زياد ابن أبيه كما يسميه المتورعون ، وهو الاسم الذي اشتهر به في التاريخ .

كان للحارث بن كلدة ، الطبيب النقي ، جارية تدعى « سمية » فزوجها من عبد رومي له يدعى « عبيدا » ، فولدت له زيادا هذا في السنة الأولى من الهجرة ، وقد نشأ هذا الغلام شجاعاً قارئاً كاتباً ، واشتهر بالذكاء والفصاحة ، وعرف ذلك عنه ، فاستعمله « المغيرة بن شعبه » كاتباً له ، ثم كتب لأبي موسى الأشعري عندما ولاه عمر بن الخطاب البصرة ، فأظهر ذكاء نادراً كان محسوباً عليه ، إذ عزله ابن الخطاب من عمله وهو يقول : « إنني لم أعزله لعجز أو خيانة ، وإنما كرهت أن يحمل على الناس فضل عقله » .

ومع ذلك فقد ظل عمر بن الخطاب يكلفه ببعض المهام فيقوم بها خير قيام ، وحدث أن استكفاه أمراً فقام فيه مقاماً مرضياً ، وعاد إلى الخليفة وعنده المهاجرون والأنصار ، فأمره « عمر » أن يخطب الناس على المنبر بما لديه من أنباء ، فخطب خطبة رائعة حتى قال عمرو بن العاص :

— لله هذا الغلام . . . الو كان أبوه من قريش لساق العرب بعصاه .

وكان بين الحاضرين أبو سفيان بن حرب يجلس إلى جوار علي بن أبي طالب ،
فهمس أبو سفيان في أذن الإمام علي بأنه يعرف أباه الحقيقي ، فسأله
الإمام علي :

— من هو ؟

قال أبو سفيان :

— أنا أبوه .

وروى أبو سفيان كيف اشتملت عليه أمه « سمية » منه وهو مشرك في
رحلة له بالطائف ، فقال له الإمام علي :

— فما يمنعك أن تدعيه ؟

قال أبو سفيان :

— أخشى هذا الجالس أن يخرق عليّ إهابي .

يقصد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب .

ولما بويع لعلي بن أبي طالب بالخلافة ، وعُيِّن « ابن عباس » والياً على
البصرة أرسل معه زيادا ، وعيَّنه على الخراج وبيت المال ، وأمر « ابن عباس »
أن يسمع منه ويستشيره .

وعندما قتل عامل الإمام علي بلاد فارس ، واضطرب عليه أهلها وطمعوا
في التخلص من الخراج وثاروا بعماله ، استشار الإمام علي أصحابه فيمن يوليه
فارس ، فقال له « جارية بن قدامة » :

— ألا أدلك يا أمير المؤمنين على رجل صلب الرأي ، عالم بالسياسة ، كاف

لما ولى ؟

قال الإمام :

— من هو ؟

قال قدامة :

— زياد .

فأمره الإمام بالمسير إليها ، وهناك تمكن زياد بدهائه من إيقاع النفور بين زعماء المشاغبين ، وأخذ يضرب بعضهم ببعض ، حتى قضى عليهم بأيديهم ، واستتب له الأمر بغير حرب ، وهكذا أخضع بلاد الفرس بذكائه ودهائه لعلي بن أبي طالب ، حتى قال أهل فارس « ما رأينا سيرة أشبه بسيرة كسرى أنوشروان من سيرة هذا العربي في اللين والمداراة والعلم بما يأتي » .

ولقد ساء ذلك « معاوية » الذي كان قد خرج على الإمام علي ، وأسس الدولة الأموية بالشام ، فكتب إلى زياد بهدده ويفريه بالانضمام إليه . فلما رأى زياد كتاب معاوية قام في الناس خطيباً فقال :

يا عجباً كل العجب من ابن آكلة الأكباد ورأس النفاق . . . ! يتهددني ويخوفني بقصده إياي ، ويبنى وبينه ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم في سبعين ألفاً من المهاجرين والأنصار يحملون سيوفهم على عواتقهم ، أما والله لئن خلاص إلى ليجدني أحمر مخشياً ضراباً بالسيف . » .

ولكن الأحداث تتابع بسرعة ، ويقتل الإمام علي ، ويستتب أمر الخلافة لمعاوية ، ويلقى ببصره إلى فارس فيهمه أمر زياد ويخيفه . ويصبح « معاوية » فيكاشف المغيرة بن شعبه بمخاوفه ويقول له :

— إنني ذكرت زيادا واعتصامه بفارس فلم أنم ليلتي ، وإنه لداهية العرب ، معه أموال فارس يدبر الحيل ! ما يؤمنني أن يبايع لرجل من أهل هذا البيت فإذا هو قد أعاد الحرب جذّة^(١) .

(١) أي أعادها جديدة كما بدأت

فعرض عليه المغيرة أن يكون رسوله إلى زياد ، ويفد عليه فيتلطف له ،
وينصح له بالشخص إلى الخليفة الذي يكتب له بأمانه .

ووفد زياد على معاوية فأحسن لقاءه ، وثبته على فارس .

وأراد معاوية أن يوثق صلته بزياد ويستميله ويظفر برضاه ، فادعاه أخاً له
والحقه بنسب أبيه ، وبعث القصة القديمة وأشهد عليها الشهود فأصبح زياد
يسمى بزياد بن معاوية .

وقد ولاه معاوية بعد ذلك البصرة وخراسان وسجستان ، ثم جمع له السند
والبحرين وعمان ، ثم ضم إليه الكوفة ، فأصبح والياً على العراقيين وهو أول
من جمع له بينهما .

* * *

عندما ولي زياد البصرة ، كانت قد فشت فيها المنكرات واستيقظت الفتن ،
فاستعمل في حكمها شدة لم يألّفها العرب ، وقسوة لم يعهدوها ، حتى خافه الناس
خوفاً شديداً . وزاد في شرطته فجعلها أربعة آلاف رجل ، وكان يأخذ بالشبهة
ويعاقب بالظفة ، حتى استتب الأمن ! فكان الشيء يسقط من يد الرجل أو
المرأة فلا يعرض له أحد حتى يأتي صاحبه فيأخذه . وكان يقول : « لو ضاع حبل
بينى وبين خراسان لعرفت آخذه . . » .

وكان يعاقب في مجلسه عنوان سياسته مجملة في هذه العبارة « شدة في غير
عنف ، ولين في غير ضعف ، المحسن يجازى بإحسانه ، والمسيء يعاقب بإساءته »
ولا شك في أن زيادا قد أسرف على الناس ، وقد قيل بعد ذلك في رواية
عن أبي الحسن المدائني « تشبه زياد بعمر فأفرط ، وتشبه الحجاج بزياد
فأهلك الناس » .

ولقد اشتهر زياد منذ حدائقه بالفصاحة ، وكان خطيباً بليغاً ، إذا وقف

للكلام تدفق بالقول تدفق السيل . وكان طويل النفس ، كلما أطلال كان أجود كلاماً .

ولم يحفظ لنا التاريخ كثيراً من خطبه ، ولكن القليل الذى وصل إلينا يكفي للدلالة عليه .

عندما قدم البصرة وإلياً معاوية ، ارتقى المنبر ، وخطب خطبة لم يبدأ كلامه فيها بحمد الله على عادة الخطباء فسميت خطبته الخطبة البتراء . وقد يصح أن نذكر بتعبيرنا الحديث أنه أعلن في هذه الخطبة الأحكام العرفية ، وفرض «حظر التجول» ليلاً ، واصطنع سياسة لم يسبقه إليها حاكم في الإسلام . ولكن الخطبة البتراء نموذج فريد من الفصاحة والبلاغة ، تدل على عبقرية زياد كحاكم وخطيب .

إنه يبدأ باستعراض الفساد الذى ساد واستشرى فيقول :

— إن الجهالة الجاهلاء ، والضلالة العمياء ، والغنى الموفى بأهله على النار ، ما فيه سفهاؤكم ، ويشتمل عليه حماؤكم ، من الأمور العظام ، ينبت فيها الصغير ، ولا يتحاشى عنها الكبير ، كأنكم لم تقرأوا كتاب الله ، ولم تسمعوا ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته ، والعذاب الأليم لأهل معصيته فى الزمن السرمدى الذى لا يزول . . . !

إنه ليس منكم إلا من طرفت عينه الدنيا ، وسدت مسامعه الشهوات ، واختار الفانية على الباقية ، ولا تذكرون أنكم أحدثتم فى الإسلام الحدث الذى لم تسبقوا إليه .

ما هذه المواقير المنصوبة ، والضعيفة المساوبة فى النهار المبصر والعدد غير قليل . . ؟ ! ألم يكن منكم نهاية تمنع الغواة عن دلج الليل وغارة النهار ؟ حرام على الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض هدماً وإحراقاً . ثم يمضى

زياد موضعاً سياسته الرهيبة لمحاربة الفساد والقضاء عليه فيقول :

إني رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما يصلح به أوله : لين في غير ضعف ،
وشدة في غير عنف . وإني أقسم بالله لا خذن الولي بالمولى ، والمقيم بالظامن ،
والمقبل بالمدر ، والمطيع بالعاسي ، والصحيح منكم في نفسه بالسقيم ، حتى يلقي
الرجل منكم أخاه فيقول « أنج سعد فقد هلك سعيد » أو تستقيم لي قناتكم . !
إن كذبة المنبر بقاء مشهورة ، فإذا تعلقتم على بكذبة فقد حلت لكم
معصيتي . من نقب منكم عليه فأنا ضامن لما ذهب منه . فإياي ودلج^(١) الليل ،
فأني لا أوتي بمدالج إلا سفكت دمه . وإياي ودعوى الجاهلية ، فأني لا أجد
أحدًا دعا بها إلا قطعت لسانه .

وقد أحدثتم أحداثاً لم تسكن ، وقد أحدثنا لسكل ذنب عقوبة : فمن غرق
قوماً أغرقناه ، ومن أحرق قوماً أحرقناه ، ومن نقب بيتنا نقبنا عن قلبه ، ومن
نبش قبراً دفناه حياً فيه ، فكفوا عني أيديكم وأسمتكم أكفف عنكم
يدي ولساني .

ولا يتركهم زياد قبل أن يؤكد لهم أن عواطفه الشخصية لن يكون لها
تأثير في أحكامه أو تقديره للأمور ، فيقول هذه العبارات الرائعة :

وقد كانت بيني وبين أقوام إحن^(٢) ، فجعلت ذلك دبر أذني وتحت قدمي
إني لو علمت أن أحدكم قد قتله السل من بغضي لم أكشف له قناعاً ولم أهتك له
سترًا ، حتى يبدي لي صفحته ، فإن فعل ذلك لم أناظره . فاستأنفوا أموركم ،
وأعينوا على أنفسكم ، فرب مبتئس بقدم مناسيسر ، ومسرور بقدم مناسيتئس
أيها الناس :

(١) السر بالليل

(٢) جمع إحنة أي أحقاد وضائن

إنا أصبحنا لكم ساسة ، وعنكم زادة ، نسوسكم بسلطان الله الذى أعطانا
ونذود عنكم بنىء الله الذى خولنا ، فلنأعليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ، ولكم
حليتنا العدل فيما ولينا . فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم لنا . واعلموا أنى
مهما قصرت فلن أقصر عن ثلاث : لست محتجبا عن طالب حاجة منكم ولو
أتانى طارقا بليل ، ولا حابسا عطاء ولا رزقا عن إبانة ^(١) ، ولا مجرما ^(٢)
لكم بعثا .

ثم ختم زياد خطبته بهذه الجملة .

— وأيم الله إن لى فيكم لصرعى كثيرة .. فليحذر كل امرئ منكم أن
يكون من صرعاى . . . !

ويروى أنه عندما انتهى من خطابه قام إليه رجل فقال :

— أشهد أيها الأمير أنك قد أوتيت الحكمة وفصل الخطاب فقال
له زياد :

— كذبت .. ذاك نبي الله ، داود عليه السلام .

فقام الأحنف بن قيس فقال :

— إنما الثناء بعد البلاء ، والحمد بعد العطاء ، وإنا لن ثنى حتى نبغى .

فقال له زياد :

صدقت

وقام رجل من الخوارج وهو يهمس :

— أنبأنا الله بغير ما قلت . قال الله عز وجل « وإبراهيم الذى وفى ، ألا

(١) أوانه (٢) لأحبس جيشا عن العودة أكثر من الوقت الضرورى
(م ٤ — الخطابى)

تزر وازرة وزر أخرى ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » ، وأنت تزعم أنك تأخذ البريء بالسقيم ، والمطيع بالعاصي ، والمقبل بالمدبر !
فسمع زياد قوله فقال له :

— إنا لن نبلغ ما نريد فيك وفي أصحابك حتى نخوض إليكم الباطل خوفاً .
وخطب زياد مرة فقال :

— استوصوا بثلاثة منكم خيراً : الشريف ، والعالم ، والشيخ . فوالله لا يأتيني شيخ بشاب قد استخف به إلا أوجعته ، ولا يأتيني عالم بجاهل استخف به إلا نكأت به ، ولا يأتيني شريف بوضع استخف به إلا انتقمته له منه .

وعندما وصل زياد إلى الكوفة واليا عليها خطب الناس ، فحصبهم بعضهم وهو على المنبر ، فدعا خاصته وأمرهم فأخذوا أبواب المسجد ، وجلس على كرسي الباب ، ثم دعا الناس أربعة أربعة يحلفون « ما منا من حصبك » ، فمن حلف أطلقه ، ومن لم يحلف حبسه ، حتى حبس ثلاثين ، وقيل ثمانين ، فقطع أيديهم جميعاً .

وحكم زياد ثمانية أعوام ، وتوفي بالكوفة ، وروى أنه أصيب بالطاعون في يده ، وأشير عليه بقطعها ، فأبى ومات سنة ٥٣ هجرية . وكان زياد فيه حمرة في وجهه ، وفي عينه اليمنى انكسار ، أبيض اللحية مخروطها ، عليه قميص ربما رقعته ، وهو أول من لبس الخفاف الساذجة ، وثياب الكتان .

روى ابن عبد ربه في « العقد الفريد » :

— قالوا أن الدهاة أربعة ، معاوية للروية ، وعمرو بن العاص للبدية ، والمغيرة بن شعبة للمعضلات ، وزياد لكل صغيرة وكبيرة .

الحجّاج

« إن أمير المؤمنين نثر كنفانته بين يديه ، وعجم
« عيدانها فوجدني أمرّها عوداً وأصلبها مكسراً »
الحجّاج

الحجاج

خطيب من جبابرة العرب ، لم يرث ملكا ولا حكما ، ولكنه وصل بمواهبه إلى الحكم والأمانة ، وكانت الفصاحة إحدى وسائله الكبرى . ذلك هو أبو محمد الحجاج بن يوسف الثقفي .

ولد الحجاج بالطائف سنة إحدى وأربعين للهجرة ، أى في السنة التي أسس فيها معاوية الدولة الأموية . وكان أبوه « يوسف بن الحكم » من مشايخ ثقيف وروى أنه كان معلما صبيان ، كما روى أن الحجاج كان في أول أمره يعلم الصبيان مع أبيه ، ثم صار دباغا ، وقيل أنه كان يبيع الزبيب بالطائف . ولكن أخبار الرواة قد اضطربت بشأن هذا الشطر من حياة الحجاج الأولى بالطائف والحجاز ، بحيث لا نستطيع أن نستخلص منها صورة صحيحة نظمت إليها .

والواقع أن الرواة قد نسجوا كثيرا من الأساطير حول الحجاج ، ومن ذلك مثلا ما رواه المسعودي في « مروج الذهب » حول ولادته ، قال :

— كانت أم الحجاج عند الحارث بن كلدة ، فدخل عليها في السحر فوجدها تتخلل فبعث إليها بطلاقها فسألتها عن السبب فقال « دخلت عليك في السحر وأنت تتخللين ، فإن كنت بادرت الغداء فأنت شرهة ، وإن كنت بت والطعام بين أسنانك فأنت قذرة » فقالت كل ذلك لم يكن ولكن تخللت من شظايا السواك . ثم تزوجها من بعده يوسف الثقفي فولدت له الحجاج مشوها لا دبر له ، فنقب عن دبره ، وأبى أن يقبل ثدى أمه وغيرها فأعيام أمره ، فيقال إن الشيطان ظهر لهم في صورة الحارث بن كلدة ، وقال لهم « اذبحوا جديا أسود وأولغوه دمه ؛ فإذا كان اليوم الثاني فافعلوا به كذلك ، فإذا كان في اليوم الثالث فاذبحوا له تيسا أسود وأولغوه دمه ، ثم اذبحوا له أسود سانحا

فأولعوه دمه واطلوا به وجهه فإنه يقبل الثدى في اليوم الرابع . ففعلوا به ذلك فكان بعد لا يصبر على سفك الدماء ١٠٠

ومن الواضح أن هذه الحكاية وأمثالها إنما قصد بها الرواة تفسير قسوة الحجاج وبطشه وإسرافه في سفك الدماء .

مهما يكن من الأمر فالمعروف أن الحجاج حفظ القرآن في صباه ، وروى الأحاديث وأشعار العرب . ولما كانت الطائف وسط بيضة عربية تحوطها البادية فقد نشأ الحجاج على فصاحة البدو وجفوة طباعهم .

ولقد نشأ في عصر فتن وشغب وحروب اتصلت منذ مقتل الخليفة عثمان . وعندما توفي معاوية وقام من بعده ابنه يزيد . تحدث الناس بسوء سيرته في الحجاز والعراق ، وامتنع عن البيعة له الحسين بن علي وعبدالله بن الزبير ، وخرج الحسين إلى الكوفة حيث قتل في الطريق ، فبايع الناس في مكة عبدالله بن الزبير . وأرسل يزيد جيوشه فحاصرت مكة ، ثم جاءت الأخبار بموت يزيد ، فرجع عنها الجيش ، وبايع أهل الحجاز والعراق عبدالله بن الزبير ، فولى أخاه « مصعب » العراق ، وبقي هو في مكة . أما في الشام فقد بايع الناس « معاوية بن يزيد » الذي تمازل عن الخلافة ، فبايع الأمويون « مروان بن الحسك » الذي لم تطل خلافته غير شهر ثم مات ، فقام من بعده عبد الملك بن مروان .

وكان الحجاج قد بلغ الخامسة والعشرين من عمره عندما قام عبد الملك ابن مروان بالخلافة . ويروى المؤرخون أن أباه خرج به إلى الشام حيث وفد على أمير المؤمنين وكان الحجاج قد سمع الكثير عن سير الولاة والقواد . وفتنته بوجه خاص سيرة « زياد بن معاوية » فطمحت نفسه إلى التشبه بهم والسير على نهجهم ، فاتصل بروح بن زنباع الجذامى ؛ وزير عبد الملك ، والتحق بشرطته .

وهنا يبدأ التاريخ السياسى للحجاج ، فقد أظهر من الذكاء والجرأة والحزم ما لفت إليه أنظار الخليفة واستثار إعجابه .

وروى المؤرخون أن « عبد الله بن مروان » أراد أن يخرج لقتال « زفر ابن الحارث » الذى كان قد تمرد على حكم بنى أمية ، فلما مضى بجيشه فى الطريق لاحظ من عساكره تخاذلاً وعصياناً . إذ كانوا لا ينزلون بنزوله ولا يرحلون برحيله . وشكا الخليفة ذلك إلى « روح بن زنباع » فقال له :

— يا أمير المؤمنين .. إن فى شرطتى رجلاً يقال له الحجاج بن يوسف . لو ولاه أمير المؤمنين أمر عسكره لأرحلهم برحيله وأنزلهم بنزوله .

ففعل « عبد الملك بن مروان » . فكان لا يقدر أحد أن يتخلف عن الرحيل والنزول إلا أتباع « روح بن زنباع » . فوقف الحجاج عليهم يوماً وقد رحل الناس . وهم على طعام يأكلون . فقال لهم « ما منعكم أن ترحلوا برحيل أمير المؤمنين ؟ » فقالوا « إنزل فكل معنا يا بن اللعناء .. ! » .

فقال الحجاج « هيهات .. ذهب ما هنالك » ثم أمر بهم فجعلوا بالسياط وطوفهم فى العسكر . وأمر بنخيامهم فأحرقت : فدخل روح بن زنباع على عبد الملك باكياً شاكياً يقول :

— إن الحجاج بن يوسف . الذى كان فى عديد شرطتى . ضرب عبيدى . وأحرق فساطيطى .

فاستدعى الخليفة الحجاج وسأله عما فعل فقال الحجاج :

— ما أنا فعلته يا أمير المؤمنين .

قال الخليفة .

— ومن فعله ؟

قال الحجاج :

— أنت والله فعلت، إنما يدى يدك . وسوطى سوطك وماعلى أمير المؤمنين أن يُخلف على روح بن زنباع للفسطاط فسطاطين . وللغلام غلامين ولا يكسرنى فيما قدمنى له .

وقد أعجبت هذه الجرأة « عبد الملك بن مروان » : فموض وزيره عن خسائره . وزاد تقديره للحجاج . فلما أراد الخروج إلى العراق لمحاربة « مصعب بن الزبير » جعل يستنصر أهل الشام فيثاقلون عن الخروج للحرب : فقال له الحجاج :

— سلطنى عليهم فو الله لأخرجهم معك . .

فسلطه عليهم . فكان الحجاج لا يمر على باب رجل قد تخلف عن الخروج إلا أحرق عليه داره . فلما رأى ذلك أهل الشام خرجوا . وسار بهم « عبد الملك » بعد أن ولى الحجاج قيادة قسم من الجيش : وأخضع العراق وقتل مصعب بن الزبير .

ثم بعث الحجاج لمحاربة عبد الله بن الزبير ، فزحف الحجاج إلى مكة ، وحاصرها خمسين ليلة ، وضربها بالجانيق ، وهزم عبد الله بن الزبير وقتله وصلبه ، فأرسل إليه عبد الملك يعينه واليا على الحجاز واليمن واليامة ، فبقى بها ثلاثة أعوام أخضع فيها أهل الحجاز واشتد عليهم .

ويُروى أنه كتب بعد ذلك إلى عبد الملك يقول « إني حُزرت الحجاز بشمالى ، وبقيت يمينى فارغة » ، وكان قد توفى والى العراق بشر بن مروان ، فبعث عبد الملك عهده إلى الحجاج يوليه العراق أيضاً .

ولم تسكن السنوات الأولى من حكم الحجاج بالعراق هادئة مستقرة ، فقد ثارت الفتن في أطراف العراق ، واتصلت الحروب . ولكن الحجاج بذل جهداً

عظيماً في إخضاع الخارجين عليه وعلى ملك بني أمية ، فوجه « المهلب » لقتال الأزارقة ، ثم نهض بنفسه لقتال ابن الأشعث ، وكانت بينه وبين الخارجين من أهل الكوفة والبصرة حروب طويلة ، انتهت بموقعة « دير الجماجم » التي استمرت مائة يوم ، وانتهت بانتصار الحجاج .

وهكذا أنقذ الحجاج ملك بني أمية مما كان يهدده من أخطار ، وأخذ الثورات في الحجاز والعراق وفارس والأهواز ، ومد حدود الدولة الإسلامية إلى نهر السند ، وفتح إقليم ما وراء النهر حتى بخارى وسمرقند . ولهذا كان عبد الملك بن مروان يقول « إن الحجاج جلدة ما بين عيني » . وللمات عبد الملك وخلفه « الوليد » أقر الحجاج على ما بيده وظل الحجاج عشرين عاماً واليا على العراق ، حتى توفي سنة ٩٥ للهجرة وله من العمر أربع وخمسون سنة .

* * *

هذه لمحات سريعة عن حياة الحجاج ، والظروف التي عاش فيها ، فأين من هذا كله الحجاج الخطيب ؟

الواقع أن الحجاج كان من أخطب الناس في زمانه ، قديراً على ارتجال الكلام ، مبتكراً للمعاني يستلهمها من طبعة الفياض ، وبديهة الحاضرة . إلى جانب حفظه القرآن ، وعلمه بالسنة ، وروايته للادب ، وخبرته بنفوس الجماهير ، فكان يعرف كيف يستشهد بما يؤيد عمله ويبرر سياسته .

وكان أسلوبه يمتاز بالجزالة والفجولة ، فكان أشبه بأساليب البدو في قوته وتأثيره في النفوس .

ومما زاد في قوة أسلوبه الخطابي الأغراض التي كانت تدفعه إلى الخطابة ذلك أن سياسة الحجاج كانت تقوم في جملتها على البطش والقمع ، وكان يقول

« إني والله ما أرى أن أرد بنى اللكيعة إلى طاعتي إلا بالسيف » . وهكذا مثل دور الطاغية ، واتخذ أسلوب الدكتاتور ، وكانت معظم خطبه سلسلة متصلة من الوعيد يرهب بها الناس ، ويصحبها عليهم قذائف حاصدة ، وحمماً ملتهبة ، ويرسل النذر في كلمات لها بريق السيوف ، ودوى القنابل .

أجل . . . كان يحكم الناس بسيفه ولسانه .

ومن عجب أن هذا الطاغية الجبار كان يعنى بهيئته وملبسه .

روى صاحب العقد الفريد عن الرياشي ، عن العتبي عن أبيه قال « مارأيت مثل الحجاج . كان زيه زى شاطر ، وكلامه كلام خارجي ، وصولته صولة جبار فسألته عن زيه فقال كان يرجل شعره ويخضب أطرافه » وروى أنه حينما وفدت وفود العراق على سليمان بن عبد الملك وسألهم عن الحجاج قالوا : « يا أمير المؤمنين ، إنا نخبرك عن عدو الله بعلم ، كان يتزين تزين المومسة ، ويصعد المنبر فيتكلم بكلام الأخيار ، فإذا نزل عمل عمل الفراعنة » .

وقال ابن عبد ربه « كان الحجاج إذا صعد المنبر تلفع بمطرفه ، ثم تكلم رويداً فلا يكاد يسمع ، حتى يتزايد في الكلام ، فيخرج يده من مطرفه ، ثم يزجر الزجرة فيفزع بها أقصى من في المسجد . ! » .

إن هذه الصورة التي نقلها صاحب العقد الفريد تدل على أن الحجاج كان أستاذاً ماهراً يعرف كيف يلعب بأعصاب المستمعين .

وهذه خطبته الشهيرة : عندما ذهب واليا على العراق تصور أسلوبه وخصائصه وطابعه الفني . فهو يبدأ أول خطبة له بأسلوب تمثيلي يستدرج به أهل العراق ويسترعى انتباههم ، ثم يستشهد بالشعر والقرآن ، ويقذف وجوههم بعبارات خشنة كأنها قطع الصخر . ومن الواضح أنه كان متأثراً كما قلنا بزياد

ابن أبيه ، وكأني به قد استحضر في خياله خطبته البتراء التي استهل بها ولايته على البصرة .

أنظر إليه وقد خرج إلى الكوفة في إثني عشر راكباً على النجائب ، ثم دخلها فجأة حين انتشر السحر ، وبدأ بالمسجد فدخله وقال « عليّ بالناس » . وصعد المنبر وقد تلثم بعمامة خز حمراء غطى بها أكثر وجهه ، متقلداً سيفاً ، متكياً قوساً ، وجلس ساعة لا يتكلم حتى قال الناس بعضهم لبعض « قبح الله بني أمية حيث تستعمل مثل هذا على العراق » وقال « عمير بن ضابي البرجمي » :

ألا أحصيه لكم ؟

فقال له الناس « أمهل حتى ننظر » .

فلما رأى الحجاج أن عيون الناس إليه ، قام فكشف عن وجهه وقال :
أنا ابن جلا' وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني
يا أهل الكوفة :

إني لأرى أبصاراً طامحة ، وأعناقاً متطاولة ، ورءوساً قد أينعت وحان
قطافها ، وإني لصاحبها . وكأني أنظر إلى الدماء تتفرق بين العائم واللقى .
ثم أنشد :

هذا أوان الشد فاشتدى زيم^(١) قيد لفها الليل بسواق^(٢) حطم^(٣)
ليس براعى إبل ولا غنم ولا بجزار على ظهر وضم^(٣)

...

(١) اسم فرسه أو ناقته (٢) السواق الحطم أي الشديد القاسي الذي بسوقها يعنف
فتندافع فيحطم بعضها بعضاً (٣) الوضم خشبة الجزار التي يقطع عليها اللحم .

قد لفها الليل بعصلي^(١) أروع^(٢) خراج من الدوى^(٣)

مهاجر ليس بأعرابي

..

قد شمرت عن ساقها فشددوا وجدّت الحرب بكم فجددوا

والقوس فيها وتر عرود^(٤) مثل ذراع البكر أو أشد

لا بد مما ليس منه بد

إني والله يا أهل العراق ما يقع لي بالشئان^(٥) ، ولا يغمز جانبي كتغماز
التين^(٦) ، ولقد فررت عن ذكاء ، وفقتشت عن تجربة ؟ وإن أمير المؤمنين
— أطال الله بقاءه — نثر كنفاته^(٧) بين يديه ، فعجم^(٨) عيدياتها ، فوجدني
أمرها عوداً وأصلبها مكسراً ، فرماكم بي ، لأنكم طالما أوضعتم^(٩) في الفتنة ،
واضطجعتكم في مراقد الضلال . والله لأحزمنكم حزم السلمة^(١٠) ، ولأضربنكم
ضرب غرائب الأبل^(١١) ، فأنكم لكأهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها
رغداً من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله ، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما
كانوا يصنعون .

إني والله لا أقول إلا وفيت ، ولا أهم إلا أمضيت ، ولا أخلق إلا
فريت^(١٢) . فأياي وهذه الجماعات ، أما والله لتستقيمن على طريق الحق ، أو
لأدعن لكل رجل منكم شغلا في جسده .

(١) العصلي هو الشديد القوى (٢) ذكي (٣) الدوى والدوية الفلاة المتسعة
التي يسمع لها دوى بالليل والمعنى أنه شديد ذكي يخرج من كل شدة .
(٤) شديد (٥) جمع شن وشنة وهي القرية اليابسة يضرب عليها فيسمع لها صوت
كالطبل فتخاف الأبل (٦) أي لست ابن المغمز (٧) الكنفانة وعاء السهام
(٨) عضها بأسنانه ليختبر صلابتها (٩) اسرعتم (١٠) السلمة شجرة كثيرة الشوك
(١١) الأبل الغريبة عن المرعى (١٢) قطعت والمعنى لا أعزم على أمر إلا أتمته .

ثم أنهى خطبته بأول أمر له في الكوفة قال :

— إن أمير المؤمنين أمرني أن أعطيكم أعطيائكم ، وأن أوجهكم لمحاربة العدو مع « المهلب بن أبي صفرة » ، وإني أقسم بالله لا أجد رجلاً تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا ضربت عنقه . . »

قال ابن نباتة : « فلما سمع أهل الكوفة هذه الخطبة تساقط الحصى من أيديهم حزناً ورعباً ، وثبتت مهاجرة في قلوبهم ، وتحكم حينئذ في رقابهم » وأراد الحجاج أن يخرج للحج فخطب في الناس قائلاً :

— أيها الناس . إني أريد الحج ، وقد استخلفت عليكم ابني هذا ، وأوصيته بخلاف ما أوصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأنصار . إن رسول الله أوصى أن يقبل من محسنهم ، وأن يتجاوز عن مسيئهم . وإني أمرته ألا يقبل من مسيئكم ولا يتجاوز عن مسيئكم !

ألا وأنكم ستقولون بعدى مقالة ما يمنعكم من اظهارها الا مخافتى ، ألا وانكم ستقولون بعدى « لا أحسن الله له الصجابة » . ألا وإنى معجل لكم الإجابة « لا أحسن الله الخلافة عليكم . . »

ثم نزل دون أن يجرؤ أحد على توجيه كلمة اليه .

ورجف الناس يوماً بموت الحجاج ، وبلغته الإشاعة ، فخرج الى المسجد وخطب قائلاً :

— إن طائفة من أهل الشقاق والنفاق ، ومساوىء الأخلاق ، نزع الشيطان بينهم فقالوا مات الحجاج ومات الحجاج . كفه . . ؟! وهل يرجو الحجاج الخير إلا بعد الموت ؟ والله ما يسرنى ألا أموت وإن لى الدنيا وما فيها ، وما رأيت الله رضى بالتخليد إلا لأبليس أهون خلقه عليه . ولقد دعا الله العبد الصالح

فقال : « رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي » فأعطاه ذلك
إلا البقاء .

وبعد انتصاره في دير الجماجم خطب في أهل العراق خطبة كانت آية في
البلاغة والإبداع الفنى قال :

— يا أهل العراق

إن الشيطان قد استبطنكم^(١) فخالط اللحم والدم والعصب والمسامع
والأطراف والأعضاء والشفاف^(٢) ، ثم أفضى إلى الخناخ والأصماغ^(٣) ، ثم
ارتفع فعمشش ، ثم باض وفرخ ، فحشاكم شقاقاً ونفاقاً . اتخذتموه دليلاً تتبعونه ،
وقائداً تطيعونه ، ومؤمراً تستشيرونه ، فكيف تنفعكم تجربة ، أو تعظكم
وقعة ، أو ينفعكم بيان ؟

ثم أخذ يذكرهم بمواقفهم في الحرب والمواقع فيقول :

— ألسنم أصحابي بالأهواز حيث رمتهم المسكر ، وسعيتهم بالغدر ، واستجمعتم
للكفر ، وظننتم أن الله يخذل دينه وخلافته ؟ وأنا أرميكم بطرفي وأنتم تنسلون
لواذاً ، وتهزمون سراعاً ؟

ثم يوم الزاوية وما يوم الزاوية ! بها كان فشلكم وتخاذلكم وبراءة الله
منكم ، إذ وليتم كالإبل الشوارد إلى أوطانها ، النوازع إلى^(٤) أعطانها ،
لا يسأل المرء عن أخيه ، ولا يلوى الشيخ على بنييه ، حتى عضكم السلاح ،
وقصمتكم الرماح .

ثم يوم دير الجماجم وما يوم دير الجماجم ! بها كانت المعارك والملاحم ،

(١) نفذ إلى باطنكم (٢) غلاف القلب (٣) فتحات الأذن الداخلية
(٤) مبارك الأبل

بضرب يزيل الهام عن مقيله ، ويذهل الخليل عن خليله !

يا أهل العراق

هل استخفكم ناكث ، أو استغواكم غاو ، أو استنصركم ظالم ،
أو استعضدكم خالع ، إلا تبعتموه ونصرتموه ؟

هل شغب شاغب ، أو نعب ناعب ، أو زفر زافر ، إلا كنتم
أتباعه وأنصاره ؟

ثم التفت إلى أهل الشام وهم حول المنبر ، وقال يمدح موقفهم :

يا أهل الشام

إنما أنا لكم كالظلم^(١) الرامح عند فراخه ، ينقى عنها المدر^(٢) ،
ويباعد عنها الحجر ، ويكنها من المطر ، ويحميها من الضباب^(٣) ، ويحرسها
من الذئاب .

يا أهل الشام

أنتم الجنة^(٤) والرداء ، والعدة والخذاء^(٥) .

وهذا هو الحجاج يذهب إلى البصرة ، فيخطب في أهلها خطبة تذكروهم
بخطبة زياد فيقول :

— « أيها الناس

من أعياء داؤه فعندى دواؤه ، ومن استطال أجله فعلى أن أعجله ، ومن
ثقل عليه رأسه وضعت عنه ثقله ، ومن استطال ماضى عمره قصرت
عليه باقيه .

(١) ذكر النعام ويضرب به المثل في الدفاع عن صفاته فيرمح من يقترب منها أى يرفسه
(٢) الطين اليابس (٣) جمع ضرب (٤) الوقاية (٥) من حازى بمعنى ساعد وآزر

إن للشيطان طيفاً ، وللسلطان سيفاً ، فمن سقمت سريرته صحت عقوبته ،
ومن وضعه ذنبه رفعه صلبه ، ومن لم تسعه العافية لم تضق عنه الملـكة ، ومن
سبقته بادرة فمه سبق بدنه بسفك دمه ، إني أنذر ثم لا أنظر ، وأحذر ثم لا أعذر
وأتوعد ثم لا أعفو ، إنما أفسدكم ترنيق ولا تكـم ، ومن استرخى لبيه ساء أده
إن الحزم والعزم سلـباني سوطي وأبدلاني به سيفي ، فقائم في يدي ، ونجاده
في عنقي ، وذبابته قلادة لمن عصاني . والله لا أمر أحدكم أن يخرج
من باب من أبواب المسجد ، فيخرج من الباب الذي يليه إلا ضربت
عنقه ! . . . » .

* * *

هذه بعض خطب الحجاج تدل عليه وعلى سياسة حكمه ، وبهذه السياسة
القائمة على البطش والشدّة وطد ملك بني أمية ، وحفظه من الفتن .

ولكن خطب الحجاج لم تكن كلها وعيداً وصواعق يصبها على رؤوس
السامعين .

فقد كان من واجباته أن يؤم الناس في صلاة الجمعة وأن يخطبهم فكانت
له خطب دينية تختلف عن خطبه السياسية ، وقد ضاعت أكثر خطبه لأن
عصره لم يكن عصر تدوين للخطب ، بل كان عصر حفظ ورواية ، وحفظ
النثر وروايته أصعب من حفظ الشعر .

ومن خطبه التي تدل على ذكائه ولباقته هذه الخطبة القصيرة التي ألقاها
على الناس في مكة بعد مقتل عبد الله بن الزبير ، فقد ارتجت مكة بالبـكاء ،
نخطب الناس قائلاً :

— ألا إن عبد الله بن الزبير كان من أحبار هذه الأمة حتى رغب في
الخلافة ونازع فيها ، وخلع طاعة الله ، واستكن بحرم الله . ولو كان شيء
مانعاً للعصاة لمنع آدم حرمة الجنة . لأن الله تعالى خلقه بيده ، وأسجد

له ملائكته، وأباحت جنته ، فلما عصاه أخرجه منها بخطيئته . وآدم أكرم على الله من ابن الزبير ، والجنة أعظم حرمة من الكعبة .. ! » .

ومن كلامه في خطبه الدينية قوله في خطبة الجمعة :

— نعم أمرؤ حاسب نفسه، أمرؤ راقب ربه، أمرؤ زود عمله، أمرؤ فكر فيما يقرؤه غداً في صحيفته ويراه في ميزانه ، أمرؤ كان عند همه آمراً ، وعند هواه زاجراً ، أمرؤ أخذ بعنان قلبه كما يأخذ الرجل بخطام جملة ، فإن قاده إلى حق تبعه ، وإن قاده إلى معصية الله كفه . إننا والله ما خلقنا للفناء وإنما خلقنا للبقاء ، وإنما ننتقل من دار إلى دار .

وقوله في خطبة أخرى .

— أيها الناس .

قد أصبحتم في أجل منقوص ، وعمل محفوظ . رب ساع لغيره ، فالموت في أعناقكم ، والنار بين أيديكم ، والجنة أما مكم . خذوا من أنفسكم لأنفسكم ، ومن غناكم لفقركم ، ومما في أيديكم لما بين أيديكم ، فكم أن ما قد مضى من الدنيا لم يكن ، وكأن الأموات لم يكونوا أحياء ، وكل ماترونه فإنه ذاهب . هذه شمس عاد وثمود ، هذه الشمس التي طلعت على الأكاسرة وخزائنهم السائرة بين أيديهم وقصورهم المشيدة ، ثم طلعت على قبورهم ! أين الملوك الأولون ؟ أين الجبابرة المتكبرون ؟ المعاسب الله . والصراط منصوب وجههم تزفر وتتوقد ، وأهل الجنة في روضة ينعمون . جعلنا الله وأياكم من الذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخرجوا عليها صما وعمياناً » .

ويروى أنه عندما حضرته الوفاة كتب إلى الوليد بن عبد الملك يقول :

« أما بعد ، فقد كنت أرعى غنمك ، أحوطها حياط الناصح الشفيق برعية مولاه ، فجاء الأسد فبطش بالراعى ومزق المرعى كل ممزق ، وقد نزل بمولاك ما نزل بأيوب الصابر ، وأرجو أن يكون الجبار أراد بعبد غفرانا لخطاياهم وتكفيراً لما حمل من ذنوبه » . .

عبد الله بن الزبير

« إِنَّا وَاللَّهِ مَا نَمُوتُ عَلَى مُضَاجَعِنَا ، وَلَكِنْ
« قَعَصًا بِالرَّمَا حِ وَمُوتًا تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ »
ابن الزبير

عبد الله بن الزبير

إن سيرة هذا الفارس الخطيب تعرض لنا صورة رائعة لحياة حافلة بالشجاعة والطموح ، زاخرة بأعمال البطولة الجريئة ، حتى لتكاد تشبه أساطير المغامرين كان أبوه الزبير بن العوام ، حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وابن عمته ، وأمه أسماء بنت أبي بكر ، ذات النطاقين . وقد ولد في السنة الثانية للهجرة ، وكان أول مولود للمهاجرين بالمدينة ، ففرح المسلمون بولادته وكبروا ، لأن اليهود كانوا يزعمون أنهم قد سحروهم فلن يولد لهم . . . وقيل إن النبي حنكه بتمر لا كها بقمه ، وسماه عبد الله .

ونشأ عبد الله في رعاية أبويه العظمين ، فصيحاً ، جريئاً .

قال هشام بن عروة « كان أول ما أفصح به عمى عبد الله بن الزبير وهو صغير ، السيف ، فكان لا يضعه من يده ، فكان الزبير يقول : والله ليكونن لك منه يوم وأيام . . ! »

وحدث في صباه أنه كان يلعب مع الصبيان في الطريق ، فمر بهم عمر بن الخطاب ، ففر الصبيان من وجه عمر ، وبقي هو ، فقال له عمر :

— مالك لم تفر معهم ؟

فأجابه الصبي الجريء :

— لم أجرم فأخافك ، ولم تكن الطريق ضيقة فأوسع لك .

ولقد امتاز عبد الله بن الزبير بعد ذلك في حياته بمخصال ثلاث سيطرت على حياته كلها ، وكانت مقومات شخصيته . أولها الشجاعة التي سنرى مظاهرها في وقائع حياته ، وثانيها الفصاحة التي جعلت منه خطيباً ممتازاً ، وأخيراً

إيمانه العميق ، وورعه وتدينه، فقد كان صواماً قواماً . ورد في تاريخ ابن الأثير أنه لم يكن باب من أبواب العبادة يعجز عنه الناس إلا تكلفه ابن الزبير، وأنه حدث أن سيلاً أحاط بالبيت الحرام ، فكان ابن الزبير يطوف بالبيت سباحة وعندما أمر عثمان بن عفان عامله على مصر بفتح شمال أفريقيا ، أمدّه بجيش يرأسه عبد الله بن الزبير ، فاشترك في إدارة الموقعة الفاصلة بشجاعة وذكاء ومهارة ، وفاجأ « جريقوريوس » عامل الروم على طرابلس والمغرب وشتت جنوده وقتله بيده .

ورجع إلى الخليفة عثمان فقص عليه كيف كانت الموقعة ، فأعجب عثمان بما سمع ، وطلب إليه أن يروي للناس حديث الفتح الجديد وسأله :
- أتقوم بمثل هذا الكلام على الناس ؟

فقال عبدالله :

- يا أمير المؤمنين ، إني أهيب لك ، مني لهم .

فقام عثمان خطيباً في الناس وبشرهم بفتح أفريقيا وقال لهم إن ابن الزبير سوف يخبرهم خبرها . وكان ابن الزبير إلى جانب المنبر فقام خطيباً ، وكان أول من خطب إلى جانب المنبر ، فوصف للناس في بلاغة وتدفق ما حدث من فتح ، حتى إذا انتهى نهض إليه أبوه الزبير ، فقبل بين عينيه وقال « ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم ، مازلت يا بني تنطق بلسان أبي بكر حتى صمت . . »

وكان عبد الله مع أبيه في وقعة الجمل ، وجرح جراحاً كثيرة ، ولكنه نجا وشفى من جراحه . ولما استقرت الخلافة لمعاوية كان الزبير من زعماء جفنده ، واشترك في غزوة القسطنطينية التي جهزها معاوية . وإن من يتتبع أخباره وأحاديثه مع معاوية يشعر بأنه كان ينفس على معاوية ما وصل إليه ، ويلمح

أنه كان يطمح إلى الأمانة ، ويرى أنه جدير بها وكانت له في مجالس معاوية
مخاصمات ومناقشات أغلظ فيها القول لمعاوية وتفاخر عليه .

حدث يوما أن رد على معاوية فخطب الحاضرين في مجلسه قائلا :

— أسألكم بالله ، أتعلمون أن أبي حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم
وأن أباه أبا سفيان حارب رسول الله ؟ وأن أمي أسماء بنت أبي بكر الصديق
وأمة هند آكلة الأكباد ؟ وجدى الصديق وجده المشدوخ بيد رأس الكفر
وعمتي خديجة ذات الخطر والحسب وعمته أم جميل حمالة الخطب . وجدتي صفية
وجدته حمامة ؟ وزوج عمتي خير أبناء آدم محمد صلى الله عليه وسلم ، وزوج
عمته شر بني آدم أبو لهب ، سيصلى نارا ذات لهب ؟ وخالتي عائشة أم المؤمنين
وخالته أشقى الأشقين ؟ وأنا عبد الله وهو معاوية ؟»

بهذه اللهجة كان يخاطب معاوية ، وبهذه الجرأة كان يتحداه على الملأ ،
وكان معاوية يحسب حسابه ، ويخشى منه على ابنه وولى عهده يزيد ، فقال في
وصيته الأخيرة ليزيد يحذره من ابن الزبير :

— لست أخاف عليك غير « عبد الله بن عمر » ، « والحسين بن علي »
و « عبد الله بن الزبير » .

أما عبد الله بن عمر فرجل قد وقذه^(١) الورع ، وأما الحسين فإني أرجو أن
يكفيكه الله بمن قتل أباه وخذل أخاه ، وأما ابن الزبير فإنه خب^(٢) ضب ، فإن
ظفرت به فقطعه إربا إربا . . . » .

وعندما أراد معاوية أن يروض الناس على البيعة لابنه يزيد قال
لابن الزبير .

(١) صرعه (٢) الحب الخداع ، والضب الحقد الدفين ، ورجل خب ضب يعنى مراوغ

— ما ترى فى بيعة يزيد ؟

فقال له ابن الزبير :

— يا أمير المؤمنين . . . إني أناديك ولا أناجيك . إن أخاك من صدقك ،
فانظر قبل أن تتقدم ، وتفكر قبل أن تندم ، فإن النظر قبل التقدم ، والتفكير
قبل التندم . . . » .

فضحك معاوية وقال :

— ثعلبٌ رَوَّاعٌ . . . ! فى دون ما سبعت به على ابن أخيك ما يكفيك .

وعندما جمع معاوية الوفود ليحدثهم فى أمر البيعة ليزيد ، وتكلم
الخطباء بين مؤيد ومعارض ، قام عبد الله بن الزبير فقال بعد أن حمد الله
وأثنى عليه .

— أما بعد ، فإن هذه الخلافة لقريش خاصة ، تتناولها بآثرها السنية ،
وأفعالها المرضية ، مع شرف الآباء وكرم الأبناء . فاتق الله يا معاوية ، وأنصف
من نفسك ، فإن هذا عبد الله بن عباس ، بن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم
وهذا عبد الله بن جعفر ذى الجناحين ابن عم رسول الله ، وأنا عبد الله بن الزبير
ابن عمه رسول الله ، وعلى خلف حسنًا وحسينًا وانت تعلم من هما وما هما .
فاتق الله يا معاوية ، وأنت الحاكم بيننا وبين نفسك .

. . .

هكذا كان شأن الزبير مع معاوية ، فلما توفى سنة ستين هجرية وخلفه
ابنه يزيد ، كان ابن الزبير ممن امتنع عن مبايعته ، وكان أشدهم عليه ، ولكنه
لم يجاهر بطموحه إلى الخلافة لعله أن أعداء بنى أمية يؤثرون الحسين بن على .
فلما قتل الحسين سنة إحدى وستين هجرية ، وجد الفرصة سانحة ، والتمرة
ناضجة ، فنار بالحجاز ، وأخذ البيعة لنفسه ، وكاتب أهل العراق واليمن

وخراسان ومصر فوافقه الجهم الغفير منهم على خلع بنى أمية ، فأرسل العمال ، وولى الولاية . فلنستمع إليه الآن يخطب في أهل مكة بعد مقتل الحسين ، يعظم مقتله ، ويلوم أهل العراق والكوفة خاصة ؟ ويحرك العواطف ضد بنى أمية فيقول :

— إن أهل العراق أهل غدر وشر إلا قليلا ، وإن أهل الكوفة شرار أهل العراق . لقد دعوا الحسين لينصروه ويولوه عليهم ، فلما قدم عليهم ثاروا إليه فقالوا له إما أن تضع يدك في أيدينا فنبعث بك إلى ابن زياد بن سمية سلميا ، فيمضى فيك حكمه ، وإما أن تحارب . فرأى والله — وأصحابه قليل بين كثير — أنه مقتول . ولكنه اختار الميعة الكريمة على الحياة الذميمة . فرحم الله الحسين وأخزى قاتله . لعمرى لقد كان من خلافهم إياه وعصيانهم ، ما كان في مثله واعظ وناء عنهم . ولكنه ما حم نازل ، وإذا أراد الله أمرا لن يدفع ، أفبعد الحسين نطمئن إلى هؤلاء القوم ؟ أيمن أن نصدق قولهم ونقبل لهم عهدا ؟ لا . . ولا نراهم لذلك أهلا . أما والله لقد قتله طويلا بالليل قيامه ، كثيرا في النهار صيامه ، أحق بما هم فيه منهم ، وأولى به في الدين والفضل .

ثم يختم خطابه معرضا بيزيد فيقول :

— أما والله ما كان يبدل بالقرآن الغناء ، ولا بالبكاء من خشية الله الحياء ، ولا بالصيام شرب الحرام ، ولا بالمجالس في حلق الذكر ، الركض في تطلب الصيد ، فسوف يلقون غيا . .

وكانت بين ابن الزبير ويزيد حروب كثيرة ، فلما توفي يزيد سنة ٦٤ هجرية اشتد أمر عبد الله بن الزبير ، ودانت له أكثر البلاد الإسلامية ، عدا بلاد الشام ، فقد بايع أهلها معاوية بن يزيد ، ثم مروان بن الحكم الذي سار إلى مصر ففتحها ، ثم توفي بعد شهور من خلافته وخلفه ابنه عبد الملك ابن

مروان ، فاتصلت الحروب بينه وبين ابن الزبير الذى ثارت عليه فتن كثيرة ،
ففارقه الخوارج ، وانتقض عليه أهل الكوفة ، واشتغل ابن الزبير
بقتالهم جميعاً .

وكان ابن الزبير قد ولى أخاه مصعباً على العراق ، فخرج عبد الملك بن مروان
لقتاله بنفسه فى جيش كبير من أهل الشام فأخضع العراق وقتل مصعب بن الزبير
وعندما وصل خبر مقتل مصعب إلى أخيه عبد الله سكت أياماً ثم صعد
المنبر فجلس عليه ملياً لا يتكلم والكآبة على وجهه وجبينه يرشح عرقاً ، فقال
رجل من قريش لجاره :

— ماله لا يتكلم ؟ أتراه يهاب المنطق ! فوالله أنه للبيب الخطباء .

ثم تكلم ابن الزبير فقال :

— الحمد لله الذى له الخلق والأمر ، وملك الدنيا والآخرة ، يؤتى الملك من يشاء ؛
وينزع الملك ممن يشاء . ويعز من يشاء ويذل من يشاء ، ألا وإنه قد أتانا خبر من
العراق : بلد الغدر والشقاق ، فساءنا وسرنا . أتانا أن مصعباً قتل رحمة الله عليه
ومغفرته فأما الذى أحزننا من ذلك ، فأن لفراق الحميم لدعة ولوعة يجدها حميمه
عند المصيبة : ثم يرعوى من بعد ذو الرأى والدين إلى جميل الصبر وكريم العزاء .
وأما الذى سرنا منه : فأنا قد علمنا أن قتله شهادة له . فقد أسلمه الطعام الصم
الأذان لإسلام النعم الخطمة^(١) ، وباعوه بأقل من الثمن الذى كانوا يأخذون منه
فإن يقتل فيه^(٢) . . . ! لقد قتل أبوه وعمه وأخوه وكانوا الخيار الصالحين .
إنا والله ما نموت على مضاجعنا ، ولكن قعصاً^(٣) بالرماح ، وموتاً تحت ظلال
السيوف ، وليس كما يموت بنو مروان . والله ما قتل منهم رجل فى زحف فى

(١) الأبل المربوطة من أنوفها (٢) فماذا فى الأمر ؟ (٣) قعصه أى قتله وأجهز
عليه ومات إفلان قعصاً أى أصابته ضربة أوطمته فمات مكانه

جاهلية ولا إسلام . ألا إنما الدنيا عارية من الملك القهار الذي لا يزول سلطانه
ولا يبيد ملكه . فأن تقبل الدنيا علىّ ، لم آخذها أخذ الأشر البطر ، وأن
تدبر عني لم أبك عليها بكاء الخرق المهين . أقول قولي هذا واستغفر الله
لي ولكم . . . »

* * *

وانقد أدبرت عنه الدنيا ، إذ أرسل عبد الملك بن مروان الحجاج لقتاله ،
فحاصر مكة طويلا ، ورمى الكعبة بالمنجنيق . ولما طال الحصار واشتدت
الجماعة تفرق الناس عنه وخرجوا إلى الحجاج بالأمان .

ودخل ابن الزبير على أمه أسماء بنت أبي بكر فقال لها :

— خذني الناس حتى ولدي وأهلي ، فلم يبق عندي إلا اليسير ممن ليس
عنده أكثر من صبر ساعة ، والقوم يعطونني ما أردت من الدنيا . . فما رأيك ؟
فأجابته أمه جوابها الخالد الجدير ببنت الصديق ، قالت :

— أنت والله يا بني أعلم بنفسك . إن كنت تعلم أنك على حق وإليه تدعو
فأمض له فقد قتل عليه أصحابك ، ولا تمكن من رقبتك يتلاعب بها غلمان بني
أمية . وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت . أهلكت نفسك ومن
معك . وإن قلت كنت على حق فلما وهن أصحابي ضعفت عزيمتي ، فهذا ليس فعل
الأحرار ولا أهل الدين . كم خلودك في الدنيا؟ القتل أحسن ما ينزل بك يا ابن الزبير
فوالله لضربه بالسيف في عز أحب إلى من ضربة بالسوط في ذل .

فقال لها :

— إني أخاف إن قتلني أهل الشام أن يمثلوا بي .

قالت :

يا بني . . إن الشاة لا يضرها السليخ بعد ذبحها . . !

فدنا منها فقبل رأسها ، فعانقته فوقعت يدها على درع كان يلبسه .

فقال له :

— ما هذا صنيع من يريد ما تريد .

قال :

— ما أبسته إلا لأشد متنتك .

فقال :

— فإنه لا يشد متنى .

فنزح الدرع وانطلق فقاتل قتالا شديداً حتى أنحن بالجراح وقتل ، فأرسل
الحجاج رأسه إلى عبد الملك ، وصاب جثته .

ومرت الأم العظيمة بابنها المصلوب فلم تزد على أن قالت :

— أما آن لهذا الفارس أن يترجل . . ؟ !

وكتب عبد الملك إلى الحجاج يلومه على صلبه ، فأمر بتسليم جثته إلى أمه
فغسلته ودفنته ، وكان له من العمر اثنتان وسبعون سنة ، ودامت خلافته
تسع سنين .

وقد لقي الحجاج بعد ذلك أمه فقال لها :

— كيف تريذنى صنعت بابنك ؟

فأجابته قائلة :

— أفسدت عليه دنياه ، وأفسد عليك آخرتك .

ولحقت به بعد قليل .

ميرابو

« اذهب وقل لمولايك إننا هنا بأرادة الشعب »
« ولن نبرح مكاننا إلا على أسنة الحراب »

ميرابو

ميرابو

لقد ترك « ميرابو » اسماً لامعاً كالجد الأسطوري ، ولكن حظه كان أقل من نبوغه .

هكذا قال عنه « بارتو » الوزير الفرنسي الشهير الذي يعتبر خير مؤرخ لميرابو والواقع أن هذه العبارة تلخص بدقة حياة هذا الخطيب العبقري الذي عاصر الثورة الفرنسية في مهبها ، وقاد خطواتها الأولى بشجاعة وحكمة واعتدال .

وفي عهود الثورات الشعبية العارمة يكون للخطابة شأن خطير في توجيه الحوادث . فالخطباء هم الذين يقودون الجماهير ، ويثيرون حماسهم بكلماتهم النارية . وكل مطلع على تاريخ الثورة الفرنسية يعرف كيف سيطر الزعماء من خطباء الجماهير على مجرى الأمور ، ثم أمسكوا بأيديهم زمام الحوادث ، وقبضوا بعد ذلك على السلطة في فرنسا زمننا ، وكيف كانوا يوجهون الجماهير لأغراضهم فيلهبون حماسهم بالخطب المعسولة ويحشدونهم لتنفيذ مآربهم وإرهاب خصومهم . وكما شهدت شوارع باريس وحدثاتها والجمعية الوطنية الخطباء من أمثال ديمولان ، ودانتون ومارا ، وروبيشير يشبون بخطبهم نار الثورة ويذكون أوارها حتى اندلع لهبها وكأنها الجحيم قد فتح أبوابه وقذف قذائفه . . . 1 ولقد دفع هؤلاء الخطباء المتطرفون الثورة في طريق مظلم مخضب بالدماء ، وارتكبوا أفظع الجرائم باسم الحرية ، ونشروا على فرنسا ظلاماً كثيفاً من الرعب والأرهاب ثم انتهى الأمر بمعظمهم إلى المقصلة فسقطت رؤوسهم تحت سكينها التي طالما تخضبت بدماء الأبرياء .

لقد دفعوا الشعب إلى الجنون ، فسكروا من الدم ، ثم سقاوهم من الكأس
التي جرعوها الآلاف من ضحاياهم .

والكن ميرابو لم تبتلع الثورة المجنونة ، بل إنه سحرها ولم يخضع لسحرها
ولم يجن مع الشعب بل ظل عاقلاً ، وكان الوحيد بين زعماء الثورة الذي لم
تسقط رأسه تحت سكين المقتلة ، بل ظلت مرتفعة في خضم الحوادث ، يحميها
بسحره الخطابي وشجاعته وجرأة بيانه ضد كل هجوم ، فلم تصل إليها يد حاقدة
حاسد ، ولم تقتلها سكين الجلال .

ولد « أونوريه جابريل ريكييتي كونت دي ميرابو » في ٩ مارس عام
١٧٤٩ ، وعندما بلغ الخامسة من عمره عهد به أبوه إلى السيد « بواسون »
الذي أخذ يلقنه مبادئ التاريخ والفلسفة ويعلمه اللاتينية واليونانية ، ثم أدخله
مدرسة داخلية في باريس حيث درس مختلف العلوم والفنون ، ثم ألحقه بعد
ذلك بسلاح الفرسان . وسافر « ميرابو » مع فرقته إلى بلدة « سانت »
ولكنه في عام واحد دخل السجن خمسة أشهر . وذات مساء بعد أن خسر في
الميسر مبلغاً كبيراً ، هرب من وجه الدائنين تاركاً وراءه فتاة غرر بها بعد أن
وعدها بالزواج . وأصدر وزير الحربية أمراً بنفيه في قلعة ياحدى الجزر ، ولكن
استطاع قبل أن يخرج من المنفى أن يحصل على رتبة ملازم ثان في الجيش المسافر
لقمع الثورة في جزيرة « كورسيكا » . وهناك حارب بشجاعة وكتب يقول
« إنني ولدت لأكون محارباً ، فقد وهبني الطبيعة النظرة الفاحصة الخاطفة ،
وليس هناك كتاب في فنون الحرب كتب بلغة حيية أو ميتة لم يقع نظري
عليه . . . » .

ومن مصادفات القدر أنه بينما كان « ميرابو » يحارب في جزيرة كورسيكا
عام ١٧٦٩ شهدت « أجاكسيو » عاصمة الجزيرة مولد ناپليون بوناپرت في

منزل متواضع! . ولكن الأقدار كانت تدخر لهذا المحارب الشاب حياة أخرى ، فكانت تلك الحملة هي المعركة الوحيدة التي اشترك فيها ميرابو ، ثم عاد إلى فرنسا ليعيش مع عمه الذي تنبأ له بمستقبل عظيم ، وكان يقول عنه « سيكون هذا الفتى أهم مواطن في أوروبا ، ومن المحتمل أن يصبح بابا أو وزيراً أو جنرالاً أو مستشاراً . . . ! » .

ولكن « ميرابو » خيب ظن عمه ، فقد اندفع إلى حياة حافلة بالمغامرات الغرامية والمشاجرات ولعب القمار ، وأسرف في الاستدانة حتى بلغت ديونه أكثر من مائتي ألف من الجنيهات ، وأصبح الدائنون يطاردونه في كل مكان . وتدخل أبوه لأنقاذه ، فاستصدر من الملك أمراً بأبعاده ليكون بئامن من الدائنين . ولكن ميرابو فر مع إحدى عشيقاته وهي المركيزة « دي مونييه » إلى هولندا ، وهناك اضطر إلى احترام الكتابة ، فنشر عدداً من الكتب والملازم والرسائل التي أذاعت صيته قبل الثورة .

وعندما اكتشف البوليس مكانه قبض عليه ، وأرسل ميرابو إلى قلعة « قنسان » حيث ظل سجيناً نحو أربعة أعوام .

وفي هذا السجن بدأ « ميرابو » يكتشف نفسه ، وأخذت تتجلى مواهبه الخطابية . فقد عاد إلى الكتابة فوضع عدة كتب كان أشهرها كتاب «الذكريات» الذي قال عنه « سانت بوف » إن عباراته البليغة مليئة بالثورة والحركات اللا إرادية للخطيب . ومن سجنه وجه إلى أبيه وإلى عمه رسائل يشرح فيها موقفه ويدافع عن نفسه كانت بمثابة خطب ومرافعات رائعة وكأنها أرهاص بمولد الخطيب المنتظر .

وقد واجه الجمهور لأول مرة بعد اطلاق سراحه ، عندما وقف «ميرابو» يدافع عن نفسه في ساحة المحكمة في القضية التي رفعتها عليه زوجته تطلب (م ٦ — الخطباء)

الطلاق . وحولت القضية إلى البرلمان فكانت بلاغته موضع الدهشة والإعجاب ثم سافر « ميرابو » إلى إنجلترا ، وهناك شهد كيف تسير الديمقراطية الناشئة ، وكيف يستطيع أن يظفر بالحكم أكثر الناس جرأة وبلاغة ، ، وزار مجلس العموم ، وسمع الخطباء ، ورأى وزيراً في الرابعة والعشرين من عمره يسيطر على أقدار بريطانيا العظمى في ظل الديمقراطية . وعندما سمع « وليم بت » الصغير يخطب ، أدرك مقدار القوة التي يمكن أن يثيرها اسم شهير اذا وهب الفصاحة والقدرة الخطابية .

لقد عاش « ميرابو » اثنين وأربعين عاماً قضى معظمها بين نفي وسجن واغتراب ، بسبب مغامرات الشباب ، ولكنه كان حيث ذهب يدرس ويقرأ ويكتب ، وساعده على ذلك ذكاء حاد ، وذاكرة قوية جعلت أباه يقول عنه وهو في السادسة من عمره « انه كالرمل يبتلع كل شيء » وعندما بدأت أحداث الثورة كان في الأربعين من عمره ، وقد استكمل عدته ليلعب دوره الكبير ، ولكنه كان يحمل على كتفيه أخطاء شبابه ونزوات صباه . وكان هذا الماضي يعرقل خطاه ، ويمنعه من اظهار قدراته كاملة ، فكان يقول في أسف حزين :

« أسفاه . . اكم أساءت عشرات الشباب الى المصلحة العامة ، اذ حالت بيني وبين الكثير مما أصلح له . لو كانت لي السمعة الحسنة فكم من أقدار كنت سأضمنها لبلادي ، وكم من مجد كنت سأقرنه باسمي ! »

* * *

عندما ساءت الحالة المالية لفرنسا ، واشتدت الضائقة المالية بالحكومة حتى أصبحت على شفا الإفلاس ، اضطر الملك لويس السادس عشر إلى دعوة مجلس الأمة ليعاونه على معالجة الأزمة المالية ، وينظر في سياسة الإصلاح التي وضعها الوزير « نسكر » .

وكان « ميرابو » في « برلين » عام ١٧٨٨ عندما سمع بدعوة المجلس الذي لم تشهد فرنسا جلساته منذ عام ١٦١٤ ، وعلم بأن الاستعداد يجري لانتخاب أعضائه ، فأسرع عائدا الى فرنسا .

كان « ميرابو » بطبيعة مولده أرسقراطيا من الأشراف ، فسعى للحصول على مقعد في المجلس بين النبلاء ، ولكنهم أعرضوا عنه وأبوا عليه هذا الشرف ، فحقد عليهم واتخذهم هدفا لجملاته منذ ذلك اليوم .

واتجه « ميرابو » إلى الشعب فألقى بنفسه بين أحضانه ، ورشح نفسه عن العامة في دائرتين ، وخاض غمار المعركة الانتخابية مناديا بحقوق الشعب ، مناديا بالإصلاح ، منددا بالأشراف وامتيازاتهم وبالفساد المستشري في البلاد . وفتن الشعب بهذا النبيل الذي يدافع عن حقوقه ، وتحمس له ، فكان يقابله كما يستقبل الأبطال الظافرين ، حتى بلغ الأمر بالجمهور أنه كان يقبل مكان مرور عجالات عربته !

وكانت المعركة الانتخابية فرصته الكبرى ليمتحن قدرته على الخطابة ، ولايكشف عن نبوغه وعبقريته في التأثير على الجماهير . لقد استطاع أن يخلب الألباب بسحر بيانه ، وروعة بلاغته ، وأن يسيطر على الجماهير فيطويها وينشرها على هواه ، ويخضعها لسحره ، مما جعله يقول :

— هكذا يصبح الشعب عبدا . . . !

ونجح في الدائرتين فاقتار النيابة عن « أكس » ، وعندما اجتمع « مجلس طبقات الأمة » في ٥ مايو ١٧٨٩ خلع « ميرابو » ثياب الأشراف وذهب إلى المجلس مرتديا ثياب نواب الشعب السوداء وجلس بين صفوفهم .

وكان المجلس مكونا من ثلاث طبقات هي الأشراف ورجال الدين والعامة .

وكن عدد نواب العامة مساويا لمجموع عدد نواب طبقتى الأشراف ورجال الدين. وعندما افتتح الملك المجلس أعلن أن الغرض الأساسى من الاجتماع هو معالجة الحالة المالية ، ولم يشر إلى موضوع الدستور الذى كان يطالب به الشعب . وفى اليوم التالى ذهب نواب العامة إلى المجلس فلم يجدوا الأشراف أو رجال الدين ، فقد اجتمعت كل طبقة منهما فى قاعة منفردة . وأدرك نواب الشعب أن الهدف من ذلك هو حرمانهم من الانتفاع بميزة عددهم المضاعف عند أخذ الأصوات ، فيكون لهم صوت واحد ، ولكل من الطبقتين الآخرين صوت مماثل .

وأنقضى اليوم بغير عمل ، فقد وجد نواب الشعب المنتخبين أنفسهم وحدهم ، حائرين بغير برنامج أو خطة عمل ، يتساءلون أين الحكومة وممثلوها ، وقد استولى عليهم الخوف والحذر .

وكان « ميرابو » ينظر إليهم فيرى خمسمائة من النكرات المتشابهة قد انتخبهم الشعب ولكنهم لا يدرون ماذا يصنعون . إن لهم أهدافا ولكنهم لا يعرفون وسيلة لتحقيقها . وأدرك أنهم فى حاجة إلى من يقودهم ، إلى العقل المفكر ، والرأس المدبر ، والقلب الذكى الشجاع ، واللسان الذى يصول ويحول . إنها اللحظة التى كان ينتظرها ، فها هى ذى المنصة ليس أمامه إلا أن يصعد درجاتها ، وهؤلاء هم نواب الشعب يتلفتون بحثا عن الزعيم ، فلماذا لا يتقدم ولديه كل المزايا التى تؤهله لسد الفراغ ؟ وبعد أيام من الحيرة والتردد والمفاوضات العقيمة مع الطبقات الأخرى ، أعلن « ميرابو » انه علم أن « سيسيس » نائب باريس لديه اقتراح عملى . وتقدم « سيسيس » باقتراحه وهو أن تستقل طبقة العامة بالعمل وتطلق على نفسها « الجمعية الوطنية » وتبدأ على الفور بوضع دستور تصان فيه حقوق الشعب .

ووافق النواب بالإجماع ، وانضم إليهم عدد من النبلاء ورجال الدين ، وانتخبت الجمعية رئيساً مؤقتاً لها من نواب الشعب .

ولكنهم عندما توجهوا في اليوم التالي إلى قاعة الاجتماع ، وجدوا الأبواب مغلقة بحجة إعداد القاعة لجلسة مقبلة ، فأتجهوا إلى ملعب التنس المجاور ، وهناك أقسموا على أن « نواب فرنسا قد أقسموا على ألا يتفرقوا ، وأن يجتمعوا في كل وقت ، وفي كل مكان ، حتى يضعوا لفرنسا دستوراً على أساس متين » .

وفي يوم ٢٣ يونية دعيت الطبقات الثلاث للاجتماع في القاعة العامة ، وحضر الملك وألقى خطاباً ضمنه إلغاء القرار الذي اتخذته نواب الشعب ، وحدد الإصلاحات التي رأى بحثها لادخالها على نظام الحكومة ، ثم أعلن قراره الأخير بوجوب انفصال طبقات المجلس عند المناقشة وأخذ الأصوات ، ثم غادر القاعة ومن ورائه الأشراف ورجال الدين ظافرين بما كانوا يطلبون .

وبقي نواب الشعب وقد تولام الدهول ، وتنازعهم عوامل السخط والتمرد والخوف

ودخل رئيس التشريعات يذكرهم بأمر الملك ويطلب إليهم أن يتفرقوا ، ولكنهم جمعدوا في أما كنهم وقد خيم على القاعة صمت رهيب .

وأطل عليهم التاريخ يرقب ما يصنعون .

ولجأة برز « ميرابو » من بين الصفوف الواجمة ، وتقدم نحو رسول الملك وعيناه تقدحان بالشرر ، وصوته يدوي كإرعد وكأنه صوت القضاء المحتوم ، وهو يقول :

— إذهب وقل لمولايك إننا هنا بإرادة الشعب ، وإن نبرح مكاننا إلا على أسنة الحراب ..

أرسل ميرابو هذه الكلمات فاخفى رئيس التشريعات ، وتشجع النواب فظلوا في أما كنهم وتجاهلوا أمر الملك وكأنه لم يكن ، وسلم « لويس » واستسلم للامر الواقع ، وعرفت الجمعية الوطنية زعيمها وسيدها الأمر .

وتناقل الشعب عبارات « ميرابو » فأصبح رجل الدولة ورمز الثورة .

* * *

وكان « ميرابو » قد وضع لنفسه خطة سياسية واضحة . فهو يرى الأبقاء على الملكية مع إقامتها على نظام ديمقراطي كالنظام الإنجليزي ، فيكون للشعب مجلس نيابي منتخب يضع القوانين ويفرض الضرائب . وكان ينادى بوضع دستور يفصل بين السلطات ، ويحدد اختصاص كل منها فلا تطفئ أحداها على الأخرى . ولكن الجمعية الوطنية لم تسكد تبدأ عملها حتى بدأ الملك يتنكر للشعب ، فاستقدم الجيش إلى « فرساي » حيث أحاطت جنوده بالجمعية لأرهاب أعضائها .

ولما يئست الجمعية من استجابة الملك لطلبها أن يسرح الجنود ، صعد « ميرابو » إلى المنبر ، وألقى خطبة ملتهبة هاجم فيها علناً لأول مرة سياسة الملك ، وندد ببطانته ، وعاب على الملك خضوعه لزوجته « ماري أنطوانيت » ولبطانة السوء وقال :

— هل قرأوا في تاريخ الشعوب كيف تبدأ الثورات وكيف تسير ؟ وهل أدركوا أن الحوادث في تفاعلها واشتباكها قد تدفع بأشد الناس اعتدالا إلى أقصى حدود التطرف . . ؟

وأدهش « ميرابو » الجمعية مرة أخرى بشجاعته وبلاغته .

وعندما جاء الملك إلى الجمعية يعرض عليها أن تنتقل إلى مدينة أخرى بعيداً عن الجنود الذين يحيطون بقصر فرساي ، قال « ميرابو » ساخراً :

— إننا لم نطلب الهرب من الجنود، وإنما نطلب إجلاء الجنود عن العاصمة!
ولكن الملك مضى في تدبيره الرجعى، فعزل « نكر » الذى كان
الشعب يعلق عليه الآمال فى اصلاح الحالة المالية . وهاجت الخواطر بتأثير
المتطرفين من أمثال « مارا وكاميل دى مولان » الذى أسرع بنقل الخبر
إلى « باريس » ووقف على احدى الوائد فى ميدان « الباليه رويال » يخطب
الجمهير التى احتشدت حوله ويقول « لقد عدت الآن من فرساييل ، وقد عزل
الملك « نكر » ، وعزله ايدان بوقوع مذبحه يهلك فيها الوطنيون . لقد
انطلقت جنود الجيش هذا المساء لتبسط بكم ، فبادروا إلى حمل السلاح
ولا تضيعوا لحظة واحدة، واحملوا شارات تميز بها ، احملاوا الشارة الخضراء
رمزاً للامل ، أيها الأخوان . . اننى أدعوكم الى الحرية . . » ثم لوح بمسدسه
وصاح « ان يذللنى أحد حيا ، فسوف أعرف كيف أموت بشجاعة . ان مصابا
واحداً هو الذى يمكن أن يتزل بى ، ذلك أن أرى فرنسا مستعبدة . . » ثم
تناول شريطاً أخضر وضعه فى قبعته، فحمله الناس ، وانطلقوا يطلبون السلاح ،
ثم اقتحموا الانفاليد ودار الصناعات واستولوا على ما فيهما من سلاح .

ووثب الشعب فى ١٤ يولية على الباستيل فسوى جدرانها بالأرض، وانطلقت
الثورة من عقالها حيواناً مفترساً متعطشاً للدماء ، وهاجم الشعب فى الأقاليم
قصور الأشراف ، وسادت الفوضى فى كل مكان .

وأزعج ذلك « ميرابو » فأخذ يعلن أن استمرار دكتاتورية الشعب
سوف يعرض الحرية للدمار ، وأطلق نبوءته التى تحققت بعد عشرة أعوام
عندما قال :

— إن الشعب إذا اعتاد الفوضى وسفك الدماء ، فإنه بدلا من تحقيق
الحرية، سوف يسقط فى هاوية العبودية، وسوف يخرج من أعماق تلك الفوضى
مستبد قاهر يتراءى للشعب فى ثياب المنقذ . .

وعندما ازدادت القوضى فزع الملك من تمادى الشعب ، فاستدعى فرقة « الفلاندر » الموالية له لتكون بمثابة حرس خاص يدافع عنه فى فرساي .
وانتهز المهييجون الفرصة لأثارة الشعب ضد الملك ، ولارغامه على الإقامة فى باريس ليأمنوا جانبه ، فدبروا ثورة النساء المطالبة بالخبز ، واقتحم المتظاهرون قصر فرساي ، ولكن « لافايت » أسرع لنجدته على رأس الحرس الأهلى ، وحال بين الملك وبين الشعب المأجج على أن يعود الملك إلى باريس واضطر « لويس إلى الاستسلام ، وعاد إلى قصر « التويلرى » بباريس وسط موكب النساء ، حاملا على صدره شارة الثورة .

وهدأت الحالة فى فرنسا بعض الشيء وانتقلت الجمعية الوطنية إلى باريس وانصرفت إلى وضع الدستور الذى بدأته فى فرساي .
وفى هذه المرحلة تجلت عبقرية الخطيب العظيم ميرابو .

* * *

اشتركت عناصر عديدة فى تكوين شخصية الخطيب العبقرى ميرابو .
وهبته الطبيعية جسماً فريداً ، فكان طويل القامة ، عريض المنكبين ، له رأس ضخيم يغطيه شعر كثيف يصفقه ، وعينان تشعان بريقاً خاطفاً ،
رأهما « شاتوبريان » فقال « رايت فيهما الكبرياء والرديلة والعبقرية ، وعندما تذبلان على طريقته الخاصة ، فحدث ما شئت عن السحر الذى لا يقاوم » .
إذا اعتلى المنبر طالعك منه وجهه قبيح ، سلط الزمن عليه الجدرى فى صباه فسكساه طابع الجهامة ، فكان يبدو بشعره الهائل كمعرفة الأسد ، شيئاً مخيفاً لا يجرؤ أحد على مقاطعته . قال عنه أحد أعضاء الجمعية « كان ميرابو وحشاً هائجاً مفترساً ، له وجه النمر ، لا تراه متكلماً إلا ثائراً منفعلاً » . وكان هو يقول عن نفسه « إنهم لا يدركون ما لقبح وجهى من قوة . . . ! » .

أما صوته فكان هبة الطبيعة الكبرى للخطيب . صوت موسيقى ذو جرس ورنين ، يعرف كيف ينوعه بمهارة، تسمعه تارة عذبا رقيقا ناعما ، وتارة صاخبا هائجا كقصف الرعد، يقذف عباراته الغاضبة كالصواعق تترجح لها جنبات المجلس .

دخل المجلس في سن الأربعين رجلا مكتمل النضج والتجربة ، مزوداً بذخيرة ضخمة من المعلومات ، قد اختلط بالفلاحين في مقاطعته ودرس أحوالهم وتعامل مع المرابين ورجال المال فعرف أسرارهم ، وخاض غمار المحاكم في قضاياها الخاصة فأدرك عيوب إجراءاتها ، كما عرف أسرار السياسة ودسائس البلاط وخفايا القصور ، وساعده على ذلك ذهن لائح، وذكاء خارق، وذاقة ذرة واعية ، وبديهة حاضرة .

وكانت له كما قلنا خطة واضحة وسياسة مرسومة يؤمن بأنها تحقق الحرية للشعب وتعصم فرنسا من الفوضى . كان يقف بين الملك والشعب ينصب لها الميزان ، ويمنع القوتين المتصارعتين من أن تشتط إحداهما أو تطفئ على الأخرى .

وعندما لمع نجمه في سماء الجمعية أحاطت به الأحقاد من كل جانب ، وتربص به خصوم انكروا عليه كل فضيلة ، وأطلقوا حوله الإشاعات والافتراءات ، ولكنه لم يعبأ بهم ، وظل في مكانه شجاعا جريئاً قوياً .

وكانت رباطة جأشه على المنبر تثير الدهشة ، إذ كانت له قدرة عجيبة على السيطرة على عواطفه في أشد الأوقات وأحرجها ، فكانت أمواج الحقد والغضب التي يثيرها تتحطم عند قدميه دون أن تثيره أو تحرك منه ساكناً . كان يتكلم عن التسمية التي يقترحها للمجلس في الدستور الجديد فقاطعه خصومه، وانتهالت عليه التهديدات والشتائم ، وظل ساكناً حتى تهدأت الضجة .

وعندما ترك المنبر التفت نحو الرئيس وقال بصوت جهورى :
— لقد تركت على مكتبك يا سيدى الرئيس الجزء الذى أثار كثيراً من
الهدير، والذى أسىء فهمه. إننى أقبل أن أحاكم على أساس محتوياته على أيدي
كل أصدقاء الحرية . .

وفى إحدى المرات قاطعه فريق من الأعضاء وأشبعوه سبا ، فتوقف عن
الكلام ونظر إليهم فى هدوء ثم قال :

— إننى انتظر يا سادتى حتى تنتهى تحييتكم الرقيقة . . !

ثم واصل حديثه من النقطة التى توقف عندها .
وكان وهو جالس فى مقعده يرسل العبارة الواحدة تحمل من المعانى
مالا تحمل الخطبة الكاملة . قال مرة عن « روبسبير » :
— سيذهب هذا الرجل بعيداً لأنه يؤمن بكل ما يقول .

وقال عن « لا فاييت » قائد الجيش :

— إن لا فاييت له جيشه ، أما أنا فلى رأسى .

وصاح مرة موجهها كلامه إلى فريق من الأعضاء المشاغبيين :
— ليسكت الأعضاء ذو الثلاثين صوتاً .

ويقول « بارتو » إن « ميرابو » كان مزوداً بما يمكن أن نسميه بالخيال
التاريخى ، وقد ساعده على ذلك إطلاعه الواسع على التاريخ ، فكان بارعاً فى
بعث أحداث الماضى ليستشهد بها أو يدلل على صحة فسكرته ، فيلتقط الحادثة
التاريخية ويلقى بها نابضة بالحياة فى خضم المناقشة . فعندما تردد الملك فى الموافقة
على « إعلان حقوق الإنسان » الذى وضعته الجمعية ، وقف « ميرابو »
يحاول التوفيق بين السيادة الوطنية للجمعية وبين السلطة الملكية ، ويقول
محذراً الملك .

— يبدو لي أنه في الإمكان توجيه رد إلى الملك نكلمه فيه بتلك الصراحة التي خاطب بها مجنون يدعى « فيليب » نفسه قائلاً « ماذا عساك تفعل يا فيليب إذا كان العالم كله يقول كلا ، عندما تقول أنت نعم ؟ »

وعندما طالب أحد الأعضاء من رجال الدين بإعلان المذهب الكاثوليكي ديناً رسمياً للدولة ، اختلفت الآراء واحتدمت المناقشة ، فلما قال أحد الأعضاء إن لويس الرابع عشر كان قد وعد بالألا يسمح بقيام المذهب البروتستانتي وطالب بالوفاء بهذا الوعد ، نهض ميراو ليحتج على هذا العمل الاستبدادي الذي يصادر حرية العبادة ولا يصلح نموذجاً لمثلى شعب حر وقال بلمجة رائعة :

— بما أنه قد ذكرت نصوص تاريخية في الموضوع فأنتى لن أذكر إلا نصاً واحداً . ألا فتعلموا أيها السادة أنني أرى من هنا ، ومن نفس هذا المنبر الذي أحدثكم منه ، شرفة القصر الملكي يطل منها المنحرفون الذين يمزجون مصالحهم الدنيوية بأكثر الأمور الدينية قدسية ، ويستخلصون من يد ملك ضعيف السلاح القاتل الذي أعطى الإشارة لبدء مذبحه سان بارتلمى .. !

واستولى الدهول على أعضاء المجلس ، وخيم عليهم صمت عميق وكأنما صمعتهم المفاجأة ، وراحوا يحدقون في الخطيب الذي كان ما يزال يشعلهم بنظراته النارية وهو يرتعد من التأثر ، ثم اندفعوا يصفقون ويهتفون . وبعد بضعة أيام كان أحد الأعضاء يهتفه بانتصاره ويقول له ضاحكاً إنه كان مبالغاً في تصويره ، لأنه لم يكن يستطيع أن يرى قصر اللوفر من مكانه فوق المنبر ، فرد عليه ميراو : — في لحظة الإلهام هذه ، كنت أرى كل ما أقوله .

والواقع أن « ميراو » كانت تسعفه بديهية حاضرة ، ومخيلة تومض بما يشبه الإلهام في ساعات الحرج . وقد قال يوماً لخصمه « بارناف » الخطيب الشهير :

— أتدرى ماذا ينقصك ؟ إنه لا يوجد لديك إلهام !

وكانت له سخريات لازعة.

اتهمه خصومه بأنه شوهد يحول شاهرا حسامه بين صفوف الفرق العسكرية المربطة في فلاندر ، ولم يكن هذا صحيحا ، فقد خلطوا بينه وبين « جاماش » الذى يشبهه فوقف يقول ساخراً :

— وهكذا ترون أن شهادة السيد الذى اتهمنى لن يكون فيها ما يكدر حقاً إلا بالنسبة للسيد « جاماش » الذى سيجد نفسه متهما بشدة القبح والدماة ، لا لشيء إلا لكونه يشبهنى . . . !

وعندما كان يتكلم فى المناقشة التى أثارت حول يمين الكفيسة ، انفجر هدير حزب اليمين ، فقال :

— أتوسل إلى الحزب الذى يقاطعنى فى المجلس أن يدرك جيداً أننى لا أطمع فى أسقفية .

* * *

واقعد خاض « ميرابو » أروع معاركه الخطابية عند وضع الدستور . كانت الجمعية الوطنية تسمى الظن بالملك ، فأخذت تحرمه فى مشروع الدستور من كثير من الحقوق التى تعتبر عادة من اختصاص السلطة التنفيذية وثار الخلاف فى الجمعية حول حق إعلان الحرب ، فكان من رأى « ميرابو » أن يكون هذا الحق الملك ، وأخذ يدافع عن رأيه متسائلاً كيف يستطيع سبعةائة من النواب أن يقطعوا برأى سليم فى موضوع إعلان الحرب . ألا يكون من أثر الحماس الملازم لكل مناقشة حول الكرامة الوطنية ، أن تندفع الجمعيات الشعبية دائماً إلى إعلان الحرب ؟ أما إذا ترك الأمر للملك فإنه لن يعلن الحرب إلا بعد بحث هادئ يحيط بكل الظروف والاعتبارات . وقال :

. — ما الذى تخشونه من وضع هذه الساطة فى يد الملك ؟ لقد كانت روما جمهورية ومع ذلك قام فيها قيصر بحروبه ، وخرج هانيبال من صلب قرطاجنة ولم تكن ملكية ، وقد كانا من شياطين الحروب كما تعلمون . .

وصدمت الجمعية بهذه الآراء ، وأسرع زعماء نادى اليعاقبة يطلبون إلى « بارناف » أن يرد عليه ، باعتباره خطيبا شهيرا مجربا من أعضاء الجمعية ، وأشاعوا أن « ميرابو » قد خان الثورة وباع نفسه للملك ، ودعوا الشعب إلى سماع رد « بارناف » .

وألقى « برناف » خطبته فرد على ما قاله « ميرابو » وناقش أدلته وآراءه ، وهاجمه هجوما عنيفا ، ثم ختم خطابه فقال للتدليل على أن الملك إذا كانت لهم سلطة إعلان الحرب استخدموها فى غير صالح بلادهم :

— هل تعلمون أن « بركليس » عندما طالبتة أثينا أن يقدم لها حسابا عن أموالها شغلها عن هذا الطلب بإعلان الحرب .

وغادر « بارناف » المنصة وسط عاصفة من التصفيق والهتاف وانتهت الجلسة وقد خيل إلى الجميع أن « ميرابو » قد انتهى .

وعلم زعماء اليعاقبة أن « ميرابو » سوف يرد فى اليوم التالى ، فحشدوا خمسين ألفا من أهل باريس أحاطوا بالجمعية ليشهدوا خيانتة للثورة ويشوشوا عليه . وعندما اعتلى « ميرابو » المنبر قوبل بالصياح والصفير ورفض النواب الاستماع إليه ، فظل مكانه محاولا أن يظفر منهم بالصمت ، ولما طال به الوقت صاح قائلا :

— إن أصدقاء برناف إما أنهم يعتقدون أن خطبته من القوة والصدق بحيث لا يمكن الرد عليها وتفنيدها ، وإما أنهم يعتقدون أن من اليسير الرد عليها وهدمها . فإن كانت الاولى كان لى أن أتوقع من كرمهم ألا يخشوا ردى عليه

أما إذا كانوا يعلمون أنها ليست فوق مستوى الرد فإن الواجب الوطنى يفرض عليهم بأن يفهموا الموضوع من جميع جوانبه حتى يكون قرارهم سليماً .

وتهامس النواب وقد أخرجهم هذا التحدى ، ثم سمحوا له بالكلام . وبدأ كلامه هادئاً غير مكترث بما دبروه له ، فأخذ يقارن بين مظاهر التأييد المصطنعة التى أعدت لبرناف ، وبين ما دبر له من وسائل التهديد والتشهير قائلاً :

— لقد أشاعوا أراجيف الرشوة والخيانة ، وتهددونى بانتقام الشعب ليقيموا دولة الآراء المستبدة . إن الذين احتفلوا بى منذ أيام وقدموا إلى أكاليل المجد والفخار هم أنفسهم الذين ينادون اليوم فى الشوارع بخيانتى العظمى . . . ثم تغير صوته وأرتفع زئيره وصاح :

— أنا أعلم أن المسافة قريبة بين صخرة « تاربيان »^(١) وبين الكايتول بين المكان الذى رفعت لى منه راية المجد وبين الصخرة التى تنتظر الزعيم المتهم ولكن ذلك لن يخيفنى ، وسأخاطبكم كرجل لا يبالى بضربات الأيدي وتصفيقها ، ولا يعبأ بهمسات الألسن وإشاعاتها . إن ذلك كله لن يوقف تيار حياتى المتدفق ولن يعترض سبيلى .

ثم تناول موضوع المناقشة فقال متحدياً الجمعية :

— التزموا الصراحة وقولوا لا نريد ملكاً ، أما أن تقولوا نريد ملكاً ، ولكننا نريده عاجزاً غير نافع ، فهذا تناقض لا يمكن احتمالاه . هل لأن الملكية أخطاءها تريدون أن نمنعوا مزاياها عن الشعب ؟ أم أن أجل أن النار قد تحرق فى بعض الأحيان تريدون أن تحرموا الناس من حرارتها وضوئها ؟ أجيبنى

(١) الصخرة التى كان يلقى الرومان من فوقها الحونة بينما يحتفلون فى الكايتول بانتقاد

إن استطعتم ، ثم نادوا إن شئتم بعد ذلك بخيانتى وعارى . . !
ومضى «ميرابو» يستعرض خطاب « بارناف » ويرد على ما قاله فقرة
فقرة ، وكلما انتهى من الرد على إحدى حججه قال :

— أية قيمة لهذه الحجة ؟ أجيبونى . . إنكم لا تجيبون . . وإذن سأستمر
واستمر « ميرابو » يناقش خطاب « بارناف » ويمزقه إربا إربا بمنطق قوى وبلاغة
رائعة ، وشجاعة لا تحفل بالخطر ، ثم أنهى خطابه قائلاً :

— إن « بارناف » لم يتكلم فى الموضوع ولم يمسه ، ولكنه كان يستثير
عواطفكم . لقد أراد أن يثبت لكم أن الحكومات قد تحاول أحياناً الهرب من
المسئولية فيعلن ماوكها الحرب ليشتغل بها الناس فحضر مثلاً بالحرب التى أعلنها
« بركليس » حتى لا يقدم حساباً طلب منه . ولقد خيل لكم وأنتم تستمعون
إليه أن « بركلس » هذا كان ملكاً من الملوك الطغاة أو وزيراً مستبداً ،
ونسى الجميع أن « بركلس » كان رجلاً يعرف كيف يتماق عواطف الجمهور ويظفر
بتصفيقه عندما يعتلى المنبر ، وبهذا أمكنه أن يظفر بالتأييد لأعلان الحرب على
الليبيون . هل تعرفون تأييد من الذى كسبه لى يعلن الحرب ؟

وتوقف « ميرابو » وتفرس فى الوجوه المرتفعة نحوه قبل أن يقول :
— أتعرفون من الذى أيده ووافق على إعلان الحرب ؟ إنها الجمعية
الوطنية لأثينا . . . !

وهنا بلغ « ميرابو » ذروة التأثير وأحس الأعضاء بالوخزة التى وجهها
الخطيب إلى الجمعية ، وفهموا من عبارته أن الجمعية قد تعلن الحرب يوماً بتأييد
خطيب مثل بركليس . وخرج « ميرابو » ظافراً بثقة الجمعية وأصواتها .
قال « بارتو » يصف هذه الخطبة فى كتابه عن ميرابو .

— إن ما قاله ميرابو لا يمكن تلخيصه . وإذا فقتشنا فى تاريخنا الخطابى

عن خطبة توازى خطب الفحول القدماء من رجال أثينا وروما يل تفوقها قوة
إلقاء ، وروعة أداء ، وشرف استلها ، وحسن توفيق فى اختيار العبارات
والألفاظ بلغ حد الإعجاز ، فلن نجد سوى هذه الخطبة التى تعتبر نموذجا
للكمال ، ولا تزال كلماتها ومعانيها تنبض بالحياة .

* * *

وقد طمع الملك لويس فى أن يجتذب « ميرابو » إلى صفه ، وقابلته
الملكة مارى انطوانيب ، ودفع القصر عنه ديونه ، وتراءى للناس فى صورة
من باع نفسه للقصر ، ولكن « ميرابو » لم يكن ليفرط فى عقيدته بما لم تكن
آراؤه فى الجمعية الوطنية صادرة عن اقتناع وإيمان عميق بما يقول ، فقد كان
يتمنى أن يقوم فى فرنسا حكم ملكى ديمقراطى على غرار النظام الإنجليزى
الذى شاهده عند زيارته لبريطانيا .

وقد شعرت الجمعية الوطنية بتقرب القصر إليه ، ولكن أحدا من
أعضائها لم يجرؤ على مواجهته بذلك ، غير أنها أغلقت فى وجهه الطريق إلى
الوزارة ، فقررت عند وضع الدستور أنه لا يجوز أن يتولى الوزارة أحد
من أعضائها .

ولقد حاول « ميرابو » عبثا أن يمنع وضع هذا النص فى الدستور حتى
لا تحرم البلاد من الكفاءات التى تضمها الجمعية ، وقال :

— إنكم تريدون إذن أن يتخذ الملك وزراءه من حاشيته وبطانته ،
بدلا من أن يختارهم من نواب الشعب الحائزين لثقتهم ؟

وقال ساخرا :

— يكفيكم أيها السادة أن تجعلوا قراركم هذا مقصورا على كونت ميرابو

ومع ذلك فقد عرف الشعب له فضله وآمن بإخلاصه ، فرفعه إلى أعلى مقام لديه ، فاختره في أواخر عام ١٧٩٠ رئيساً لنادى اليقويين .

ولعل أروع وصف لميرابو الخطيب هو ما كتبه شاعر فرنسا الكبير فيكتور هيجو ، قال :

— ميرابو يتكلم . . هذا هو الماء يجرى ويتدفق ، هذا هو الموج يرغب ويذهب ، بل تلك هي النار تقدح بالشرر . لا مائدة ولا أوراق ، ولا محبرة ولا أقلام ، ولكنه الرخام يهوى عليه بضربات ، ودرجات المنصة يهرول عليها جارياً . المنصة . . ؟ لا . . بل قفص من أقفاص الوحوش الضارية يروح فيه ويغدو ، ويسير ويتحرك ، ويقف ويلهث ويثرأ . يشبك ذراعيه ، ويضم قبضتيه يحمل الكلام بأشاراته الموقعة ، ويضيء أفكاره بنظراته المعبرة . وجمهور حاشد يكره الخطيب ، هم أعضاء الجمعية الوطنية ، لكن يحيط بهم جمهور آخر أعظم منهم محبة ، ذلك هو الشعب . ومن حوله عقول كبيرة ، وأرواح عظيمة ، وشهوات ومطامع وطبائع متباينة يعرفها ويضرب عليها فيخرج منها النعمة التي يريد بها بيد ماهرة ، وريشة قادرة . ومن فوقه قبة الصالة الكبرى ترتفع إليها عيناه كأنه يستنزل من سمائها وحى الفكرة ، فتنزل الأفكار من تلك القبة المظلمة فوق تلك الرأس العظمى . هذا هو ميرابو في مكانه ، بل تلك هي البذرة الصالحة في أرضها .

* * *

في يناير ١٧٩١ انتخبت الجمعية الوطنية « ميرابو » رئيساً لها ، وظل الخطيب العظيم يعتلي المنصة ويدلى برأيه في الموضوعات التي تبحثها الجمعية . ولكن الجهد العنيف الذي بذله خلال عامين حافلين بالأحداث ، والأرهاق (م ٧ - خطباء)

المتصل الذى تعرض له خلال كفاحه ، أنهك صحته ، فسقط مريضا فى مارس من ذلك العام ، ولم يلبث أن فارق الحياة فى الثانى من إبريل عام ١٧٩١ وفقدت الثورة رجالها الكبير الذى كان لها بمثابة صمام الأمن يفل من غربها ويطامن من غلوائها . وفقدت الملكية نصيرها العظيم الذى كان قادرا على إنقاذها .

وكان ميرابو أول من دفن فى البانثيون من العظماء .
وقد قيل عنه إنه قسم حياته شطرين ، شطرا للهوى وشطرا للثورة ، فكانت حياته ثورتين ، ثورة للشباب ، وثورة للحرية ، فقضى حياته كلها ثائرا .^(١)

(١) محمد صبرى أبو علم « الخطابة والخطباء » فى البلاغ الأسبوعى .

وليم پٽ الكبير

« لقد أجهدت أنفاسي وقاست كثيراً »

« ولما أخرجت في نهاية الأمر للعالم رجلاً »

فدريك الأكبر

وليم بت

قال عنه « ما كولى » أكبر ناقديه « لو فتشنا بين العظماء الذين تجاوز عظامهم فى التراب عظامه فلن نجد من يفوقه نبالة اسم وطهارة ذكر . . »
وقال عنه فردريك الأكبر « إنه أعظم رأس فى إنجلترا »

وقال عنه لورد بروكهام « هو الخطيب الذى لم يعرف المنبر له مثيلا ،
والسياسى عندما يصيب أكبر حظ من التوفيق . . »

ويعتبر المؤرخون « وليم بت الكبير » واحداً من بناة الامبراطورية
البريطانية فى القرن الثامن عشر .

ولد وليم بت فى نوفمبر عام ١٧٠٨ ، وكان جده لأبيه حاكماً لمقاطعة مدراس
فى الهند ، فهو من أسرة غنية محترمة . وكان أبوه « روبرت » عضواً فى
البرلمان ، فلما توفى ورث أبنه الأكبر « توماس » المال والعقار فلم يبق
لويليم إلا الشئ اليسير .

وتلقى « بت » عاومه فى مدرسة « إيتون » ثم التحق بجامعة أكسفورد ،
ولكنه كان يعانى من مرض النقرس ، فنصح به الأطباء بالسفر إلى فرنسا
وإيطاليا للعلاج ، فقطع دراسته قبل أن يحصل على درجة علمية .

وعندما توفى أبوه التحق فترة بالجيش ، ثم تركه ليلقى بنفسه فى خضم
الحياة السياسية . وفى عام ١٧٣٥ دخل مجلس العموم وهو فى السابعة والعشرين
عن عمره .

وقضى « بت » الدورة البرلمانية الأولى وهو لا يكاد يفتح فمه .
ولاشك أنه كان خلال هذه الفترة يدرس الحياة السياسية ويحاول أن ينفذ إلى

أسرارها وخباياها ، وأن يلم بالأعيب الأحزاب ومناوراتها ، كما يفعل المحارب الذكى عندما يدرس أرض المعركة ويتعرف إلى أبعادها وطبيعتها قبل أن يخوض غمارها .

وقد أزعج « بت » ما تبينه من فساد الحياة السياسية ، وهاله أن يرى أصوات الأعضاء تشتري بأموال المصاريف السرية ، فتحفز للنضال والهجوم على وزارة « والبول » الذى كان على رأس الحكم .

وعندما ألقى « بت » خطابه الأول فى مستهل دورة المجلس عام ١٧٣٦ أدرك الجميع أنهم أمام قوة جديدة ، واستولى على انتباه الأعضاء واهتمامهم فصاروا يصغون إليه بأعجاب وشغف كلما هم بالكلام .

وحاول « والبول » رئيس الوزراء أن يرهب الشاب الخطيب أو يكتم فمه فعمد إلى السخرية منه معيراً إياه بحداثته سنه ، فوقف « بت » وارتجل تلك الخطبة الرائعة الساخرة التى تناقلها الناس والتى قال فى مطلعها :

— مع الاحترام العظيم للشعور الرمادية التى تزين رؤوس حضرات الأعضاء المحترمين . . .

وعند ذلك نزع « والبول » جديلة الشعر المستعار من فوق رأسه فظهر شعره الرمادى فضج المجلس بالضحك ، واستمر « بت » يقول :

— إن جريمة حادثة السن ، هذه الجريمة الهائلة التى راق لرئيس الوزراء أن يقذفنى بها فى خفة ورشاقة ، إن أحاول إنكارها أو تخفيف أثرها ، إذ يكفينى أن أتمنى لنفسى أن أكون من أولئك الأحداث الذين ينتهى حمقهم بإنهاء حداثتهم لا من أولئك الذين كلما امتدت بهم السن زاد جهلهم وكبر حمقهم رغم طول التجارب . وسواء كان الشباب جريمة يحاسب عنها المرء ، فلن أشغل نفسى بالتحرى عن هذا الأمر أو تحقيقه ،

فلا جدال في أن الشيخوخة تجلب السخرية إذا كانت التجارب التي سافتها تمر من غير أن تثمر ، وإذا كانت الرذيلة تغلب عندما تنطفئ جذوة الشباب . إن من ارتكب كثيراً من الأخطاء والآثام ورأى نتائجها ولا يزال رغم ذلك يقارف كل يوم إثمًا جديدًا ، وكلما امتد به العمر جمع إلى العناد حمقًا وغباوة ، يستحق من كل سخرية واحتقار ، ولن يحميه شعره الرمادي من سخطنا .!

وهكذا عرف الخطيب الشاب كيف يرد الصاع صاعين ، ويصب غضبه وسخريته على رأس رئيس الوزراء الذي جلس يترنح من قسوة الخطيب الجريء .

ومضى « بت » يشق طريقه صاعدًا إلى ذروة الشهرة بقصافته ومقدرته الخطابية التي نضجت بالممارسة والمران . ولم يكن ينتسب إلى حزب فتححر من الالتزام الحزبي الذي يفرض عليه الدفاع عن أشياء قد لا يؤمن بها ، فلم يكن يتكلم إلا بوحى من ضميره واقتناعه ، دفاعًا عن حق أو هجومًا على تصرف خاطيء ، وكان يقول :

— لقد جئنا إلى هذا المجلس بقوة الشعب وسلطانه .
ووقف يحول بين الأحزاب ومحاولة العبث بالدستور ، فعلمها كيف تجمع على احترام الدستور وتقديسه . قال مرة لأعضاء المجلس :
— إذا كان مقدراً أن يصاب الدستور ، فأرجو ألا توجهوا إليه الطعنة في هذا الظلام الشامل وفي جوف هذا الليل الحالك .

وسرعان ما أصبح « بت » خطيب البرلمان الأول غير منازع ، تحسب الوزارة له ألف حساب ، وتتوعد إليه المعارضة ، ويرهف الأعضاء أسماعهم مبهورين إذا وقف للكلام .

ولقد كان « بت » خطيباً عظيماً .

وهبته الطبيعة في سخاء كل ما يحتاج إليه الخطيب، فكان طويل القامة ،
رشيقة الحركة ، يوحى منظره بالسيطرة والتحكم . أما عيناه فكانتا كعيني النسر
إتساعاً وتحديقاً ، ينبعث منهما شعاع يثير الرهبة . وصوت رائع واضح الذبذبات ،
إذا انخفض كان حلواً رقيقاً حافلاً بالأنغام ، وإذا ارتفع ملاء المجلس دويماً ، وهو
في الحالين يعرف كيف يستخدمه لأحداث التأثير المطلوب .

قال عنه « ما كولى » الناقد الكبير :

— عندما ظهر في البرلمان خطيباً لأول مرة ، بدا شكله رائعاً ، نبيلاً
ومتحكماً ، والدار تنبعت من عينيه . وكان صوته إذا تكلم هامساً يسمع بوضوح
من أقصى المقاعد الخلفية . أما إذا علا وارتفع فكان يجلجل في المجلس كأنه
صوت أرغن ضخيم في كاتدرائية كبيرة ، وكان يسمع في أروقة المجلس وتصل
أصدائه العالية إلى بهو وستمسستر .

وقال عنه ناقدوه بأنه كان يلجأ إلى الحركات التمثيلية في خطبه ، حتى لقد
كتب « ما كولى » يقول .

— لو صعد « بت » خشبة المسرح لكان خير من يمثل دور بروتس .

والواقع أن الخطيب الناجح يحتاج إلى شيء من التمثيل الذي يعاونه على
تلوين صوته وتجميل إشارته والاحتفاظ بانتباه السامعين والتأثير فيهم .

وكان « بت » خطيباً مرتجلاً ، فلم تكن خطبه خطب الأديب الذي ينطق كلامه ،
بل كانت وحي الساعة ، والهام الظروف ، فإذا وقف منفعلاً بفكرة تدفق كالسيل
وتفجر كالينبوع ، وانطلق بصوغ أفكاره وخواطره في عبارات تستعير من
النار حرارتها ومن البلاغة جلالها وسحرها .

وقد قال عنه نقاده إنه لم يكن يملك زمام نفسه إذا وقف للكلام ، فلم يكن يعرف إلى أى مدى ينتهى به تدفق الخطابي . وقال « ما كولى » :
وإن « بت » لم يكن سيداً لخطابته بل كان عبداً لها .

وقال « بت » نفسه مرة للورد شلبورن عند مناقشة موضوع حساس كان يعرف أسرارهِ الرسمية :

— يجب أن أجلس صامتاً ، لأننى عندما أقف للكلام تتبادر إلى شفتى كل خواطرى .

وصفه اللورد « روزبرى » فقال :

— عندما قام « بت » خطيباً فى المجلس استولى عليه صمت عميق ، وحبس الأعضاء أنفاسهم وهم يتابعون كلامه ، وهو ينتقل من استهلال بارع مؤثر فياض بالذكريات الممتعة ، والقصص الزاهية ، إلى تهكم مر وسخرية قاتلة كان يهمس فإذا همساته تهديد ، ويصرخ فيلقى الرعد والوعيد . وتحسب الأعضاء من فرط الانتباه أثناء كلامه ، وقد سكنت حرركاتهم وانحبت أصواتهم ، كأنما قد أصابهم الشلل أو أنعدت أسننتهم من خمر حديثه .

وقال عنه لورد « تشستر فيلد » الخبير بأساليب الكلام :

— كانت هجماته صادقة مخيفة ، وكان إلقاؤه وأداؤه وتحفزه للنضال يخيف أكبر الخطباء استعداداً لمجادلته ، فكان خصومه يلقون أمامهم سلاحه .

* * *

ومضت أعوام ونجم الخطيب الشاب يعلو ويلعب ، بينما أخذت المتاعب والأضطرابات تهدد الإمبراطورية البريطانية فى أكثر من مكان . وبدأت الاشتباكات بين الجيوش البريطانية فى الهند وكندا وبين الجيوش الفرنسية . وأخذت

أنباء الهزائم تأتي من الشرق والغرب ، وكان أفجعها فقدان بريطانيا لجزيرة « مينورقا » . واشتعلت النار في المستعمرات البريطانية التي لا تغرب عنها الشمس ، وفرض فردريك الثاني الصلح على حليفته بريطانيا وكان صلحاً مخزياً وأحس الجميع بضعف الحكومة وعجزها عن مواجهة الأحداث الجسام وسقطت وزارة « والبول » وجاء الملك بوزارة أخرى اشترك فيها ولیم پت وزيراً وزعيماً للمجلس النيابي ، ولكنها لم تدم في الحكم سوى خمسة شهور .

ويقول « ما كولي » في كتابه الذي ترجم فيه لحياة پت :

— في ذلك الوقت كان پت يغير مركز أو لقب ، وبغير ثروة ، وكان مكروها من الملك جورج الثاني ، مكروها من الطبقة الأرستقراطية والأسمالية ومع ذلك فقد كان يبدو أهم شخصية في الدولة .

وكان يرى بلاده تهان وتنهال عليها الهزائم رغم مواردها العظيمة ، ويعتقد أن موارد الإمبراطورية لو وجدت من يحسن استخدامها بحزم وقوة ، فسوف يتغير الأمر . وكان يقول في ثقة بنفسه وقدراته :

— إنني واثق من قدرتي على أنقاذ هذه البلاد ، وأن لا أحد سواي يستطيع ذلك .

وفي عام ١٧٥٨ وجد الملك نفسه مضطراً إلى دعوته للحكم ، حيث تولى الأشراف بنفسه على الشؤون الخارجية وشؤون الحرب .

وما كاد « پت » يتولى الحكم حتى قال :

— أريد أن أبعث إنجلترا من حالة العجز واليأس التي جعلتها تنهزم أمام عشرين ألف جندي فرنسي .

ومضى « پت » ينفخ من روحه في البلاد كلها ، ويبث في الجميع الثقة والأمل ، حتى قال عنه خصمه « والبول » :

— لقد بث الحياة في مجالسنا ، وبعث في نواحيها روح النشاط ، وحارب الخمول واليأس ، ورفع لإنجلترا أعلام النصر .

وقال أحد القواد العسكريين :

— ما دخلت مكتب بت إلا وخرجت منه أقوى عزماً وأثبت جأشاً وأشد إقداماً .

ولم تسكد تبدأ سنة ١٧٥٩ حتى تحوات هزائم بريطانيا إلى انتصارات في كل مكان . لقد توالى الهزائم قبله على الجيوش البريطانية في بروسيا والهند وكندا ، ولكنه لم يكد يتسلم زمام الأمر حتى أنساها الهزائم ، وكان سقوط « كويبك » يوم اجتماع مجلس العموم في مستهل عام ١٧٥٩ قمة الانتصار فقابله المجلس بمظاهرة رائعة من الهتاف والتصفيق

وجاء عام ١٧٦٠ والانتصارات يتلو بعضها بعضاً ، فقد سقطت « مونتريال » في يد الإنجليز ، وارتفع العلم البريطاني على جميع أرجاء كندا ، ولحقت الكوارث بالأسطول الفرنسي على الشواطئ الأوروبية والأمريكية ، واستطاع « بت » أن يوطد أركان الإمبراطورية البريطانية في الهند وأمريكا .

في ذلك الوقت قال فردريك العظيم وقد راعته عظمة « بت » :

— لقد أجهدت إنجلترا نفسها وقاست كثيراً ، ولكنها أخرجت في نهاية الأمر للعالم رجلاً . .

وكان « بت » يمضى في طريقه مؤمناً بقدرته يشتعل حماسة ونشاطاً رغم مرضه ، محترقاً لوسائل الرشوة والفساد التي كان يعتمد عليها الساسة في زمانه لتحريك أداة الحكم ، عظيم الكبرياء ، شديد الترفع ، متسامياً عن المادة والأنانية الشخصية .

دعى مرة إلى القصر الملكي فقال :

— لن أذهب إلى القصر إلا إذا وثقت من أننى سأعود ومعى الدستور نافذاً محترماً .

وفى أكتوبر عام ١٧٦٠ توفى جورج الثانى وتولى العرش الملك الشاب جورج الثالث .

وبدأت أحداث جديدة تتوالى ، وعقدت فرنسا معاهدة سرية مع أسبانيا فأعلن « بت » أنهما يستعدان لمهاجمة بريطانيا ، واقترح إعلان الحرب فوراً على أسبانيا ، ولكن رأيه لم يؤخذ به ، فانسحب من الحكم والوزارة . وعرض عليه الملك أن يعينه حاكماً عاماً لكندا ، ولكن « بت » رفض العرض رغم مرتب المنصب الكبير .

ورغم اعتزاله الحكم فقد ظل « بت » معبود الشعب

حدث أن أقيمت فى جيلد هول مأدبة عشاء تكريماً للملك وعروسه دعى إليها بت . ويروى « ما كولى » ما حدث فيقول :

— إن الملك الشاب قد تلقى فى تلك الليلة درساً ، فقد كانت كل العيون منصرفة عنه إلى الوزير المستقيل . وعندما مرت عربة « بت » فى الشوارع انفجر هدير من الهتاف له من الجماهير المحتشدة بالطريق وعلى الشرفات . ولوحت له النساء بمناديلهن من النوافذ . واندفع الناس نحو عربته يقبلون الخيل التى تجرها . . . وارتفع الهتاف من كل مكان « بت إلى الأبد . . »

* * *

انسحب « بت » من الحياة السياسية الرسمية ، وأشتد عليه مرض البقرس فالزمه الفراش . وتولى الحكم وزراء لم يحسنوا التدبير ، وفرضت الحكومة

على مستعمراتها الأمريكية ضرائب فادحة أيقظت الفتنة النائمة في العالم الجديد وكانت الشرارة التي أشعلت حرب الاستقلال الأمريكية . وكان من رأى « بت » أن من حق أمريكا أن تقرر بنفسها الضرائب التي تفرض عليها . وفي يناير من ١٧٦٦ ذهب إلى مجلس العموم ليشارك في مناقشة خطاب العرش الذي كان قد استعرض حالة أمريكا .

وقال بت في خطبة شهيرة ارتجلها في تلك المناقشة :

— لقد طال غيابي عن هذا المجلس الموقر ، وكان فراش المرض يضمنى عندما صدر القرار الخاص بفرض الضرائب على أمريكا . ولو كنت أستطيع في ذلك الوقت أن أحتمل النقل من فراشي لا لتمت يدأ محسنة كريمة ترفعني من فراش المرض إلى هذا المجلس لكي أسمعكم صوتي . إنني أعلم أن قراركم قد أصبح قانوناً ، ويجب أن أتكلم باحترام عن القوانين التي تصدر عن هذا المجلس ، ولكنني مع ذلك أرجو أن تسمحوا لي بالتحدث عن هذا القانون ، لأنكم تملكون إعادة النظر فيه إذا تبين لكم وجه الحق .

ومضى « بت » يسوق الدليل تلو الدليل على أن فرض الضرائب على المستعمرات لا يدخل في سلطة الحكومة المركزية ، وليس من اختصاص البرلمان ، لأن الضرائب منحة يقدمها الشعب إلى الحاكم ، ولا يعقل أن يقدم الانجليز للملك برطانيا أموال أمريكا منحة من غير رضاها . ورد عليه رئيس الوزراء مستذكراً مهاجمة قانون أصدره المجلس ، فقال بت :

— لقد تكلم كثير من الخطباء ضد هذا القانون بحرية عدها البعض جريمة ، وإنني ليؤسفني أن تعتبر حرية القول في مجلسكم هذا جريمة ولكن هذا الاتهام لن يرهبنى ، لأنه يلد لي أن أمارس هذه الحرية وأتمتع بها إلى آخر حدودها ..

يقول رئيس الوزراء إن أمريكا عنيدة ، وإنها في شبه ثورة ، وإنه
للسعدنى أن أسمع أن أمريكا تقاوم . فلو أن الملايين الثلاثة الذين يقيمون في
أمريكا من الأنجلو ساكسون ماتت فيهم كل عواطف الحرية ، وقبلوا أن
يساموا الخسف كالعبيد ، لأصبحوا آلات صالحة لأن تجعل من بقية هذا
الجنس عبداً أذلاء .

إن العضو المحترم يتساءل متى انفصلت أمريكا عنا ؟ فليسمح لى أن أسأله
بدورى : متى كانت أمريكا عبداً لنا ؟

لقد تحدثوا عن أمريكا و ثرائها ومبلغ سعادتها ، وهذا حديث غير مأمون
إننى أعلم أن بريطانيا تستطيع أن تقضى على أمريكا وتهزمها في حرب شريفة ،
ولو قدر لنا أن ننتصر في معركة لتأييد هذه الضرائب فسيكون انتصارنا محفوفاً
بالخاطر . إن أمريكا إذا سقطت فأنها تسقط كما سقط شمشون الجبار ، إذ
تقبض بيديها على أساس الدولة وأعمدتها ، وإذا ذاك يتداعى وينهار معها كل
بنائنا الدستوري . فهل هذا هو السلام الذى تريده ؟ سلام يغمد فيه سيفكم ،
لا في قرابه ، بل في صدور أبنائكم . . . ؟

لقد ظلمنا الأمريكيين ودفعناهم إلى الجنون ، فهل تريدون أن تعاقبهم على
جنون أنتم سببه ومصدره ؟ فليسمعوا صوت العقل والحكمة والاعتدال من
جانبنا ، وأنا كفيل بأن أمريكا سوف تقابلنا بالمثل «

وقد نجح « بت » في إلغاء القانون بعد الصراع العنيف الذى خاضه
في مواجهة الحكومة وأغلبية البرلمان .

وسقطت وزارة « روكنجهام » ودعى « بت » لتشكيل الوزارة ،
ومنحه الملك لقب إيرل ، ففقد مقعده في مجلس العموم ، وأصبح عضواً في
مجلس اللوردات باسم « إيرل شاتام » الذى عرف به في التاريخ .

ولكن المرض عاوده واشتد عليه فتغلى عن الحكم وابتعد عن الحياة العامة أكثر من ثلاثة أعوام حتى ظن الجميع أنه قد اختفى إلى الأبد .

ولكنه عاد فجأة إلى البرلمان مرة أخرى . كانت الحكومة البريطانية قد عادت تصب غضبها على أمريكا وترسل القوات لأخضاعها، فتحامل « شاتام » على نفسه وذهب إلى مجلس اللوردات ليقول كلمته في سياسة الحكومة . وصف « ماكولى » ظهوره الفجائي فقال :

— عاد عودة مفاجئة وكأنما قد بعث حيا . لقد اعتاد الناس أن يتكلموا عنه كما يتكلمون عن الموتى ، فلما ظهر لهم عند افتتاح الدورة في حاشية الملك اضطربوا كأنهم يرون شبحا . .

وعاد « شاتام » يدافع بجرارة عن أمريكا . وكان مما قاله :

— سوف أقوم بواجبي حتى النهاية ، ولن يقعدنى عن ذلك إلا المرض إذا ألصقنى بالفراش ومنعنى من الحركة . وسوف أظل أدق الباب على الوزارة الغافلة المرتبكة حتى أفتح عينيهما على الخطر الخدق . إننى لأطلب لأمريكا عطفاً أورحمة بل عدلاً وإنصافاً ، ولا أطلب إلغاء قوانين بل إلغاء آلامها ونخاؤها . ثم ألقى في وجه اللوردات بهذه النبوءة التى تحققت بعد أعوام فقال :

— سادنى اللوردات .

إننا لن نقدر على غزو أمريكا وقهرها ، وسوف نضطر في النهاية إلى الانسحاب ، فلننسحب قادرين لا مرغمين . وسنضطر إلى إلغاء هذه القوانين الظالمة ، وسوف تلغونها بأنفسهم ، وأقسم لكم على ذلك بشرفى لو كنت أمريكياً بقدر ما أنا بريطانى ، ورأيت جنود العدو تطأ بلادى لما وضعت سلاحى أبداً . . . أبداً . . . أبداً »

وكانت هذه الخطبة من أروع خطبه في أعوامه الأخيرة وقد سمعها ابنه وليم بت الصغير الذى كان إذ ذاك في السادسة عشرة من عمره وسمعها « لورد ستانجوب » فوصفها بقوله :

— سمعت قبل اليوم الفصاحة مجردة من الحكمة ، أو الحكمة خالية من الفصاحة ، والى سمعتهما اليوم وقد امتزجتا في خطبة شاتام .

* * *

بينما كانت وطأة المرض تشتد على « شاتام » ، كانت الأحوال تزداد سوءا في أمريكا التي ثارت وأعلنت استقلالها عن بريطانيا . وساد الضعف والاضطراب أعضاء البرلمان والحكومة ، وتلفتت الأنظار نحو السياسي المريض تلتمس عنده الأنقاذ من الحالة السيئة .

وتقدم « لورد نورث » باستقالة الوزارة إلى الملك وأشار عليه باستدعاء شاتام .

ولكن شاتام أرسل إلى مجلس اللوردات يعلن أنه سيحضر جلسة يوم ٧ أبريل ١٧٧٨ ليبدى برأيه في الاقتراح الخاص باستقلال أمريكا .

ويصف مؤرخه وناقده « ما كولى » عودته الأخيرة إلى البرلمان ، إلى الميدان الذي شهد مجده السياسي والخطابي فيقول إن أطباءه نصحوه ألا يغادر فراشه ولكنه لم يستمع إليهم ، وذهب إلى وستمنستر في صحبة ابنه ولیم پت وصهره لورد ماهون ، واستراح في حجرة جانبية حتى بدأت المناقشة ، وعندئذ مضى يعرج إلى مقعده بالمجلس مستندا إلى ذراعي رفيقيه . كان يرتدى كمادته حلة من القطيفة السوداء ، ويده عصاه ، وقد تهضم وجهه من الهزال حتى لا يكاد الناظر إليه أن يمين من ملامحه سوى أنفه العالى المقوس وعينييه اللتين ما يزال يومض منهما بريق تلك النار القديمة .

وتكلم رئيس الوزراء ثم وقف شاتام وبدأ يتكلم بصوت غير مسموع ثم أخذت نبرات صوته في الوضوح ، والمجلس يصغى إليه في صمت وسكون عميق ، والأعضاء يحبسون أنفاسهم كي يلتقطوا كل كلمة تخرج من شففيه .

ورفع إيرل شاتام إحدى يديه عن عصاه واتجه بعينيه نحو السماء وهو يقول..

— أشكر الله الذى وهبني القدرة على الحضور إليكم اليوم لأؤدى واجبي .
لقد أصبحت شيخاً ضعيفاً يخطو نحو القبر ، وقد يكون اليوم آخر عهدى بكم ،
ولسكنى قمت من فراشى لىكى أؤيد قضية بلادى .

ثم أخذ يصف الحرب الأمريكية ويتحدث عن شرورها والمسؤولين عن
إشعال نارها وقال :

— إنها نعمة من الله أن القبر لم يطبق بعد على جوانبه ، وأنه ما زالت
لدى القدرة لأرفع صوتى ضد تمزيق هذه المملكة الكريمة ، وإذا كان مقدراً
لدا أن نسقط . . فلنسقط رجالاً .

وكان الأعضاء يصغون إليه فى سكون رهيب ، وهم يشعرون أنه لم يعد
يملك قواه ، وأنه يتحدث إليهم من عالم آخر ، كما لو كان شعباً قد نفى عنه
أ كفان القبر .

ورد عليه دوق ريتشموند بلطف وأدب ، ولكنه لاحظ أثناء كلامه أن
شاتام يتمايل فى ضيق وألم شديد ، فجلس الدوق ، وعند ذلك قام شاتام ولكنه
لم يستطع الكلام وراه الأعضاء يضع يده على صدره ثم يسقط على مقعده .
وأسرع لنجدته عدد من الأعضاء ، وانفضت الجلسة ، ونقل شاتام إلى دوننج
ستريت ومنها إلى قريته حيث فاضت روحه .

وهكذا سقط الخطيب العظيم كما يسقط الجندى فى ميدان القتال ، وشاء
القدر أن تكون نهايته على منبر البرلمان ، وهو ميدانه الذى عرف فيه النصر
وحقق لنفسه مجداً خالداً على الزمان .

وليم بيت الصغبر

« كنت وأنا أخطب أبحث عن الكلمة حتى أجدها ، »

« أما بيت فكان يجد الكلمة المطلوبة دائماً في متناول »

« يده ولسانه »

« فوكس »

وليم بت الصغير

اشتهر في التاريخ باسم وليم بت الصغير ، تميزأله من أبيه وليم بت الكبير ، أولورد شاتام الذى تحدثنا عنه فى الفصل السابق .

ولكنه لم يكن صغير القدر والمجد ، وإذا كان قد انتفع بالإسم الضخم الذى ورثه ، فقد بنى لنفسه بمواهبه وكفاحه مجداً أضخم كاد ينسى الناس مجد أبيه العظيم .

ولد فى عام ١٧٥٩ بين هالات المجد الذى تحيط بأبيه ، وفى السنة التى أسس فيها أبوه مستعمرة كندا ، وكان اسمه أرفع لأسماء وأعظمها فى بريطانيا.

وكان بت نحىلاً ضعيف الجسم ، فتلقى تعليمه فى المنزل تحت إشراف أبيه الذى أخذ يعمده منذ طفولته للحياة العامة ، ويكلف بتعليمه أروع الأساتذة ويلقنه أصول الخطابة .

وأخذ بت يطالع خطب الأقدمين من عهد ديموستين وشيشرون ، ويدرسها بعناية ، ويحفظ الكثير منها ، ويردها أمام أبيه . وكثيراً ما كان يذهب إلى دار البرلمان ليشهد الجلسات الحافلة بالجدل الخطابى ، وليستمع إلى أعظم خطباء عصره ، وكأنه يتلقى دروساً عملية فى الخطابة والجدل البرلمانى . ولم يدرك بت الصغير أيام والده فى مجلس العموم ، عندما كان يصول على منبره ويجول ، ولكنه أدركه فى مجلس اللوردات ، عندما كان يعالى المرض ويقاومه بعناد .

وقد أحب وليم بت مجلس العموم وأخذ يعد نفسه ليكون من أعضائه وليشارك فى توجيه سياسة بلاده مترسماً خطى أبيه . وماذا ينقصه ؟ إن لديه

الاسم اللامع والمقدرة الخطابية ، وقد قال « ماكولى » بحق « إن انجلترا يحكمها أقدر خطيب » .

وتوفى أبوه وهو فى التاسعة عشرة من عمره ، فلما بلغ الحادية والعشرين نجح فى الانتخاب ودخل مجلس العموم ، وكان ذلك فى يناير ١٧٨١ وهكذا دخل وليام بيت المجلس الذى طالما ذهب إليه متفرجاً يعجب ببلاغة الخطباء ، ليصبح خطيبه اللامع ونجمة الساطع .

دخل المجلس ووزارة « لورد نورث » تهتز تحت ضربات المعارضة القوية وتواجه الهزائم المتلاحقة فى مستعمراتها الأمريكية ، وتكلم « بيت » فلفت الأنظار وبهر الأعضاء ، وأعاد إلى الأذهان مواقف أبيه حتى قال أحد زعماء المجلس :

— إن بيت ليس شبلاً لأبيه شاتام ، ولكنه الأسد نفسه ! .

وقال أحد الأعضاء لخطيب الأحرار وزعيمهم « فوكس » .

— إن هذا الغلام سيكون من رجال البرلمان المعدودين .

فقال له فوكس :

— إنه لكذلك من اليوم .

وسقطت وزارة « لورد نورث » ، وشكل « روكينجهام » الوزارة الجديدة ، وعرض على بيت منصب وزير إيرلندا ، وكان منصباً وزارياً لا يسمح لمن يشغله أن يكون عضواً عاملاً فى الوزارة . وقد أدهش بيت الجميع عندما رفض قبول المنصب الذى كان يعد من غنائم الحياة السياسية ، والذى تولاه أبوه نفسه فى مستهل حياته السياسية ، وقال فى تعفف وكبرياء :

— إننى لا أقبل أن أكون مسئولاً عن أعمال وزارة لا أجلس بجانب أعضائها ولا أشارك فى مداولاتها . . .

وضمت الوزارة الجديدة « فوكس » و « بيرك » ، ولكن روكنجهام توفى بعد قليل ، ودعا الملك « شلبورن » لتشكيل الوزارة الجديدة التى رفض أن يشترك فيها « فوكس » و « بيرك » فاعتمد الرئيس الجديد على تأييد « بت » له فى مجلس العموم . ولكن فوكس اتفق مع خصومه السابقين ، وقام ائتلاف بينه وبين لورد نورث ، وهاجموا الوزارة حتى أسقطوها . ووجد الملك نفسه مضطراً إلى قبول وزارة ائتلافية ، ثم انتهز أول فرصة وأقالها ، وكلف وليام بت بتشكيل وزارة جديدة .

* * *

كان تكليف بت بتشكيل الوزارة حدثاً فريداً فى تاريخ السياسة البريطانية . شاب لم يبلغ الخامسة والعشرين من عمره ، ليس له فى المجلس حزب يسنده ، ولم يسبق له أن تولى منصباً وزارياً ، يرأس وزارة بريطانيا العظمى ، بلد التقاليد المحافظة ، فى أواخر القرن الثامن عشر . . . لهذا لم يكن غريباً أن يقول أحد الساسة المحترفين :

— أولاد يلعبون فى الوزارات ، وبعد قليل سوف يطردون منها ليعودوا إلى مدارسهم وتعود الحياة العامة لتجرى فى مجراها الطبيعى .

وشارت فى وجهه العواصف منذ اليوم الأول ، وكان خصومه يقابلونه فى المجلس بالتصفير ، وفى اليوم الثالث لتأليفه الوزارة استقال منها أحد كبار أركانها فهمل خصومه فرحاً وقالوا « لقد انتهينا من هذا الولد » . وعرض بت بعض المناصب الوزارية على أصدقائه فرفضوها اعتقاداً منهم بأن وزارته لن تعمّر طويلاً .

ووقف « بت » وسط هذه الأعاصير صلباً رابط الجأش ، ثابت الجنان لم يفقد إيمانه وثقته بنفسه ، وهى صفات ورثها عن أبيه . واتجه نحو الشعب يتحدث إليه من فوق منبر مجلس العموم ، فيثير حماسه ، ويبث فيه الأمل فى حياة سياسية نظيفة ، ويبشره بالخلاص من الأعباء السياسية المحترفين ، ويهاجم الفساد الذى استشرى فى أداة الحكم ، ويضرب بنفسه أروع الأمثلة العملية لما يجب أن يكون عليه السياسى المسئول . ومن خطبه فى تلك الفترة فى مجلس العموم خطبة رائعة قال فيها :

— إننى لم أكن شغوفاً بتولى الحكم أو متهاكاً عليه . ولن أتردد فى التخلّى عنه إذا تراءى للشعب أن يستغنى عن خدماتى . ولقد كان أقصى غايتى فى المدة القصيرة التى قضيتها فى الوزارة أن أؤدى واجبى بكل ما فى طاقتى من قدرة وقوة ، وبنزاهة وشرف كملت استمد منهما القوة والثقة لمواجهة ما يعترضنى من عقبات . وأستطيع الآن أن أقرر بثقة تامة أنه لم تكن لى يوماً غاية لا تتعلق بمصلحة هذه الأمة .

ولكننى مع ذلك سأقلد العضو المحترم فى الصراحة التى زعم أنه أصطنعها فى كلامه ، فأعترف أن لى أيضاً أطماعى . إن المركز الكبير والنفوذ العظيم أشياء يتمناها معظم الرجال ، ولا أخجل من السعى إليها والحصول عليها . وطالما كان الحصول عليها بشرف ، والاحتفاظ بها بكرامة ، فأننى لست أقل رغبة فى أن أكون قويا وعظيما مما هو طبيعى لدى أى شاب مثلى . ولكننى أتخلّى عن هذه الأشياء كلها وأسحقها بقدمى فى اللحظة التى أرى فيها أن واجبى نحو أمتى يحتم على القيام بهذه التضحية . وحينئذ أنسحب إلى عزلتى ، لا خائفاً بل منتصراً منتصراً باعتمادى أننى قد استخدمت مواهبى ، على تواضعها ، بكل قوة وحاس وبقدر ما أفهم ، فى سبيل النهوض بمصالح بلادى .

وقد اتهم بضعف الفهم ، أو الخطأ في الحكم ، ولكن لا يمكن أن ينسب إلى أننى سميت إلى مصلحة شخصية ، كما أنه لا يمكن أن ينسب إلى أى شيء يمس نزاهتى من قريب أو بعيد .

وعندما يحين الوقت الذى أتخلى فيه عن منصبى ، فإن تكون خطتى أن أزعيج هذه البلاد وأهدد طمأنينتها ، فأأخذ من منبر هذا المجلس — كما يفعل غيرى الآن — ملجأً أحتسب به ، وأترأى بالغيرة على الصالح العام ، وأصيح مقبلاً عليها ، بينما هم فى الواقع يندبون مطامعهم الخائبة .

وأحس خصومة بالخزعة القاسية فارتفع ضجيجهم فى المجلس ، ولكنه مضى فى خطبته ، وأرتفع صوته مدوياً وهو يقول :

— إن من يشعر نحو أمته مثل شعورى ، ويتفانى فى خدمتها كما أفعل ، لا يهمه أن يكون فى الحكم أو خارجه ، وكل ما يهمه أن تراعى مصالح الدولة وأن تدار بحكمة ونزاهة .

إننى ألقى بمقاليد الحكم إلى من يستطيع السير بها أفضل منى ، وأخرج بغير حرب ، وبغير احتجاج . ولكننى أرجو أن يحملوا معهم إلى دور الوزارات المبادئ الوطنية الحققة التى تخلوا عنها عندما عادوا إلى صفوف المعارضين . . . ثم ختم خطابه موجها حديثه إلى الشعب خارج المجلس قائلاً :

— إننى أتجه إلى المستقلين فى هذا المجلس ، وأتجاوز حدود هذه القاعة فأتجه إلى الشعب عامة ، إذا لم يكن لطلب التأييد الذى تستحقه هذه الوزارة ، فعلى الأقل لتبرئتها من اللوم والنقد .

لقد كان كل همى أن أبذل ما فى وسعى لخدمة بلادى بشرف ونزاهة ، وكانت كل مشاعرى متجهة لخدمة الشعب ، وهذه المشاعر لا تزال تملأ نفسى

وستبقى إلى الأبد تضطرم في قلبي ، وسأعتر بها كأعظم تراث . على هذه المبادئ • دخلت البرلمان وتوليت الوزارة ، وإني أشهد المجلس الآن على أنني لم أضطر يوماً إلى أن أخالف وعداً واحداً قطعتة على نفسي للشعب

إنني أضع نفسي الآن تحت تصرف هذا المجلس الموقر ، وكيفما كان قراره . فأنتى أقبله باغتباط . إنكم تستطيعون أن تجردوني من مظاهر السلطة وامتيازاتها ولكم لا تستطيعون أن تحرموني من العواطف الحارة التي تجيشها نفسي نحو مجد بريطانيا العظمى ، هذه العواطف الوطنية التي هي فخر حياتي ، والتي تكون شرفي ، وأستمد منها سعادتي ، والتي أعتقد أن الموت وحده يستطيع أن يطفئها وما دام هذا العزاء باقياً لي ، فأنتى آمل أن أستطيع أن أنسى سريعاً ضياع النفوذ ، وضياع الثروة.

ومع ذلك فإن « بت » هزم مراراً في التصويت ، وأزعج ذلك الملك الذي كان يؤيده فعاد إلى لندن وصرح له بكل مجلس للعموم واستفتاء الشعب بأجراء انتخابات جديدة . ولكن « بت » رأى أن يترىث حتى يضمن كسب الرأي العام قبل الأقدام على هذه الخطوة ، ومضى يتحدى خصومه المعارضين وفي مقدمتهم حزب الأحرار ، ويسلط عليهم نيران فصاحته ، ويقدم الدليل بعد الدليل على نزاهته وطهارة يده . ومن ذلك أنه خلت وظيفة شرفية أعتاد أن يتقلدها رؤساء الوزارات لكي يستعينوا بمرتبتها الكبيرة على التفرغ للخدمة العامة . ورغم أن « بت » لم يكن غنياً ، بل كان مثقلاً بالديون ، فإنه تعفف عن قبول الوظيفة التي كان يقبلها غيره من الرؤساء ، وزهد في آلافها الثلاثة وعين فيها سياسياً كان في حاجة إلى مرتبتها .

واستطاع وليم بت أن يمكن نفسه في قلوب الشعب ، وأن يقضى على الزوابع التي يثيرها خصومه ، فأصبح معبود الجماهير ، حتى أن مدينة لندن ،

معقل حزب الأحرار ، أهدت إليه مفتاحها في صندوق من الذهب . وذهب لاستلام الصندوق في موكب حافل ، وأضيئت المدينة تكريماً له ، وهتف الشعب له في كل مكان .

لقد وجد فيه الشعب نموذجاً جديداً لرجل السياسة والحكم لا يعتمد على المناورات الحزبية والألاعيب السياسية ، ولكنه يمضى إلى الخدمة العامة مسلحاً بنزاهة شهد بها الأعداء قبل الأصدقاء ، وصراحة لا تعرف الالتواء ، وشجاعة في الحق تترفع عن النفاق والرياء ، فتعلق بهذا الشاب النبيل ومنحه ثقتة وحببه وتأييده .

وكان لهذا التحول في الرأي العام صدى في مجلس العموم ، فتسربت عوامل الضعف إلى صفوف المعارضة ، وانتقل بعض أعضائها إلى مقاعد مؤيدي الحكومة ، وأخذت الأحزاب الأخرى تفاوض في الاشتراك في الوزارة .

ورأى « بت » أن الفرصة قد حانت ليضرب ضربة القاضية ، وليواجه خصومه في معركة فاصلة ، فحل مجلس العموم ، ودعا الشعب إلى انتخابات جديدة ، أسفرت عن هزيمة خصومه ، فقد انتزع منهم مائة وستين مقعداً ، وضمن لنفسه الأغلبية في مجلس العموم .

وهكذا عقد له الشعب لواء النصر ، واستطاع « الولد » الذي ظن خصومه أنهم انتهوا منه ، أن يصبح رئيساً للوزارة نافذ الرأي والحكمة ، مؤيداً من الشعب والملك والبرلمان ، ولما يبلغ الخامسة والعشرين من عمره . وقدر لهذه الوزارة التي حسب خصومها أنها لن تعيش أياماً ، أن تمسك بأعنة الحكم في بريطانيا أكثر من سبعة عشر عاماً حافلة بأشد العواصف الخارجية والداخلية .

* * *

بعد قليل اندلع لهيب الثورة الفرنسية وزجرت عواصفها على الجانب الآخر من القنال الإنجليزي ، وأطاحت برأس ملك ومملكة ، وخيف على

انجلترا من عدوى الجنون الذى يعربد فى باريس . ولكن بت وقف كالجدار الحائل بين بريطانيا والثورة الخيفة الحمراء ، وأعلن عليها الحرب ، وظلت إنجلترا تقاتل ثمانى سنوات دون أن تظفر بنصر .

وتمخضت الثورة الفرنسية عن نابليون بونابرت الذى مضى يدفع جنود الثورة ليجوس بهم خلال أوروبا ينشر التيجان ويدك العروش ويضع الممالك تحت رحمته .

وأدرك « بت » الخطر الجديد فزاده ذلك إيمانًا بضرورة الوقوف فى وجه المد الثورى الذى أخذ يزحف على خريطة أوروبا ، وقدر له أن يقف حياته كلها بعد ذلك على مقاومة هذا الخطر بعزم لا يلين وإيمان لا يتزعزع . كان يريد أن يؤمن الشعب البريطانى معه بفداحة هذا الخطر على مصالحه وعلى وجوده نفسه حتى يصمد فى وجهه ويكافح لتخطيمه .

وكانت عبقرية الخطابية أكبر سلاح له فى هذا المجال .

لقد أفرغت عليه الطبيعة كل مواهب الخطيب . صوت واضح مبين له رنين الفضة ، وقوام رشيق ؛ ووجه نبيل يوحى بالثقة ، وجبهة مرتفعة ، وحركاته كلها توحى بالترفع والاعتزاز بالنفس .

وقد نمت مواهبه بالدراسة والمران والممارسة . هياؤه أبوه منذ صباه للبرلمان ، وشجذه للخطابة سيفًا قاطعًا . فلما أتاحت له الفرصة ظهر وبهر ، وجعل مقدراته الخطابية فى خدمة المنصب الرفيع الذى تولاه فى صدر شبابه .

دخل مجلس العموم فى عصر كان يفخر فيه بخطباء مشهورين من أمثال « فوكس » وشريدان ، وبيرك . وغيرهم ، ولكن الذين سمعهم جميعًا يخطبون أجمعوا على أن بت كان يفوقهم ويتفوق عليهم .

قال عنه فوكس نفسه:

— « كنت وأنا أخطب أبحث عن الكلمة حتى أجدها، أما بت فكان يجد الكلمة المطلوبة دائماً في متناول يده ولسانه » .

شهد له الجميع بأنه كان الخطيب المرتجل الذي يدفع كالسيل في عبارة مرصعة الحواشي من غير استعداد ، لا يتوقف باحثاً عن كلمة أو مفتشاً عن عبارة بل كانت المعاني في خدمته والألفاظ طوع لسانه .

وكان الوزير الوحيد الذي يقدم للبرلمان الميزانية من غير مذكرات مكتوبة ، حتى قال عنه العقاد :

— إنه يستطيع أن يرتجل تلك القطعة السياسية الدقيقة المحرجة المعروفة في النظام البرلماني بخطاب العرش . . . !

وكان إلى جانب قدرته الفائقة على الارتجال ، يعرف كيف يجعل نفسه مبهما غامضاً ، وكيف يكون واضحاً مفهوماً عندما يريد . فعندما كان يريد أن يفهمه الناس كانت أعقد الموضوعات وأدقها وأكثرها غموضاً ، تكتسب من ذهنه الصافي وبيانه الناصع الوضوح والسهولة . أما إذا دعت الظروف إلى تعمد الغموض ، فكان يستطيع أن يخطب ساعات ولا يقول شيئاً ، ثم يغادر المنبر وقد أوهم السامعين أنه قال الكثير . اتهمه خصومه بالكبرياء والغرور ، وقال عنه « لورد روزبري » :

— لقد كان في طبيعته جفاء وبرود وصلابة ، يميل إلى تجنب الناس والاعتماد عنهم . ومن اللحظة الأولى التي وضع فيها قدميه في البرلمان إعتاد أن يصعد المنبر بخطوات واسعة سريعة ثابتة ، ورأس مرتفع ، لا يتلفت يميناً أو يساراً ، ولا يلقي نظرة أو إيماءة إلى أحد من الجالسين على جانبي طريقه ، وفيهم زعماء إنجلترا وأعيانها ! .

ولكن « بت » لم يكن مغروراً ولا متكبراً ، وإنما كان يغلب عليه

الكبرياء والترفع والاعتزاز بنفسه وبقدرته . كان يترفع عن المطامع والأهواء الشخصية في نزاهة نادرة المثال . حتى ألقاب الشرف كان يترفع عنها ، فرفض قبول وسام ربطة الساق الذي كان يتهافت عليه أ كبر العظماء ، وبينما كان ينثر على غيره الأوسمة والألقاب ظل حتى مات يحمل لقب « مستر بت » .

هكذا كان « بت » السياسي والخطيب ، يقود سفينة الحكم في بحر عاصف متلاطم الأمواج . ولقد صادفته المتاعب والهزائم ، ولكنه ما يكاد يستوى على المنبر ويرفع رأسه بكبرياء وعظمة ثم يتدفق بالكلام حتى يتسلط على القلوب ، ويثبت في أنصاره وخصومه روح الأمل والثبات .

وبفضل فصاحة « بت » تضاءلت المعارضة في مجلس العموم حتى أصبحت في عام ١٧٩٩ لا تزيد على خمسة وعشرين من الأعضاء .

* * *

بينما كان « بت » يؤلب دول أوربا على نابليون ، ويسعى إلى عقد التحالفات بينها لمواجهة ، ويمضي في الحصار البحري الذي فرضه على فرنسا ، كان نابليون ينتقل بسرعة من نصر إلى نصر ، وكان نجمه يعلو في سماء فرنسا وأوربا ، فأصبح الفصل الأول بعد « انقلاب برمير » الذي دبره ليكون الحاكم الحقيقي لفرنسا . وكان نابليون يعرض الصلح على انجلترا ، ولكن « بت » كان يعارضه ويصر على محاربته اعتقاداً منه بأن نابليون لن يتوقف حتى يخضع أوربا كلها لسلطانه . وبدأ الخلاف يدب بين « بت » والملك ، وبينه وبين مجلس العموم ، فلما قدم إلى البرلمان في عام ١٨٠١ مشروعاً لحكم إيرلندا لم يظفر بقبول المجلس ، تخلى عن الحكم .

وكانت صحة « بت » قد ساءت ، إذ كان المرض يمد إلى صدره سهامه

القاتلة منذ الصبا ، فاعتزل الحياة العامة ، وانصرف إلى علاج نفسه ، ولم يشهد جلسات المجلس عامي ١٨٠٢ و ١٨٠٣ .

وفي خلال هذه الفترة تحققت ظنون ولیم پت كلها ، فقد بدا واضحاً أن أطماع نابليون لن تقف عند حد ، وأخذت أحلامه تطوف بالجزر البريطانية نفسها ، فأعد العدة لغزوها ، وحشد على الساحل الشمالى لفرنسا ثمانين ألفاً من الجنود ، وأمر بإعداد أسطول هائل من الناقلات للغزو المنتظر .

ورأى الجميع أن « بت » هو وحده القادر على إنقاذ البلاد ، وكان رأى السائد أنه إذا استمرت وزارة « أدنجتون » في الحكم فإن البلاد سوف تتعرض للضياع .

وعرض عليه « أدنجتون » أن يشترك في الوزارة فرفض ، ثم عرض عليه أن يدخل الوزارة على أن يكون رئيساً لها فلم يقبل .

وفي مايو ١٨٠٣ كانت الحرب قد أعلنت رسمياً بين إنجلترا وفرنسا ، فذهب « پت » إلى مجلس العموم بعد غياب طويل ، وخطب خطبة دامت ثلاث ساعات وسط موجة عارمة من الحماس ، ورعد قاصف من الهتاف والتصفيق . وسقطت وزارة « أدنجتون » ليشكل « بت » وزارته الثانية في نفس اليوم الذى أعلن فيه نابليون نفسه امبراطوراً على فرنسا .

وبدأ بين الدولتين صراع هائل لم ينته إلا بعد اثني عشر عاماً في وائرلوا . ولسكن « بت » لم يشهد من هذا الصراع غير ثلاثة أعوام كانت كل ما بقى له من حياته القصيرة . ولقد كانت أعواماً سيئة له ولبلاده ، فقد كان نابليون يحقق خلالها انتصاراته الرائعة المذهلة ، غير أن بت لم يعرف اليأس ولم تنسرب إلى نفسه روح الهزيمة .

ولقد حاول عند تشكيل وزارته الثانية أن يضم إليها كل الرؤوس الكبيرة في إنجلترا، ولكنه لم يوفق، فاكتمت بتشكيل وزارة ضعيفة من أنقاض وزارة « أدنجتون » كان هو كل شيء فيها، حتى قيل إنها مؤلفة من « وليم » و « بت ». وسرعان ما أصيبت هذه الوزارة بضربة في الصميم عندما اتهم « اللورد ملفيل » أقرب الوزراء إلى « بت » بتهمة خطيرة وحوكم أمام مجلس العموم. وانهزت المعارضة الفرصة فحشدت جهودها وأصواتها ضد الوزير حتى انقسمت آراء الأعضاء وتساوت عند الاقتراع. وكان على رئيس المجلس أن يدلي بصوته للترجيح، فأعلن رأيه بالإدانة، وخرج « بت » من المجلس تحوطه شماتة المعارضين

ولكن المخاطر التي كانت تستهدف لها بلاده كانت تشعل في نفسه روح النضال، فسمى حتى عقد التحالف الثالث ضد فرنسا كي يشغل نابليون عن غزو إنجلترا، وجمع في هذا الحلف روسيا والنمسا والسويد. وأسرع نابليون ليضرب الحلف الجديد ضربة قاضية، فقد هاجم النمسا بسرعة مذهلة قبل أن ينجدها حلفاؤها، وحاصر جيشها واضطره إلى التسليم في ساحة « أولم » ثم دخل « فيينا » بينما هرب إمبراطور النمسا محاولاً جمع فلول جيشه والاستعانة بحليفه القيصر روسيا لاسترداد عاصمة بلاده. وبدأت أخبار هذه الهزائم تخط سطور الموت على وجه « بت » الذي أنهكه المرض، وحاول أن يتجدد، ثم أسمفه القدر بنصر رائع أنسى الناس مرارة الهزيمة في « أولم ». ذلك أنه في يوم ٢١ أكتوبر ١٨٠٥ كانت موقعة الطرف الأغر البحرية التي حطم فيها « نلسن » الأسطول الأسباني الذي كان يتجمع لمساعدة نابليون في مشروعه لغزو بريطانيا. وقد قضى هذا النصر البحري الحاسم على أحلام نابليون في الغزو، وأكد سيادة بريطانيا على البحار، وأنتقذها من أعظم الأخطار التي تعرضت لها.

ووقف « بت » في مجلس العموم عند منتصف الليل يتلو بلاغات المعركة البحرية التي حققت فيها بريطانيا أعظم نصر بحري ، وفقدت في نفس الوقت أعظم قائد بحري في تاريخها .

وأقام محافظ لندن مأدبة غداء في اليوم التالي لتكريم « بت » فقابله الشعب بحماس جنوني ، وجر عربته إلى « الجيلا هول » في مظاهرة حافلة وشرب المحافظ نخبه كمنقذ لأوروبا ، فرد عليه « بت » بكلمة موجزة قال فيها :

— أشكركم على ما أسبغتم على من شرف عظيم . إن أوروبا لا ينقذها رجل واحد ، فقد أنقذت إنجلترا نفسها بجهودها ، وسوف تنقذ أوروبا بمثلها .

وكان المرض قد تمكن من جسم « بت » الضعيف ، الذي وهب حياته لبلاده ، فلم يتزوج لكي يكرس كل وقته وجهده للقضية التي وقف عليها حياته ، وصمد في الميدان كالطود الراسخ في وجه العواصف الداخلية التي تثيرها المعارضة والسياسيون المحترفون من خصومه وحاسديه ، وفي وجه التحدي الكبير الذي كان يمثله نابليون ، وبعد شهر واحد من انتصار الطرف الأغبر ، كانت موقعة « أوستراتز » التي انتصر فيها نابليون على الجيشين الروسي والنمساوي ، انتصاراً خالداً جعل قيصر روسيا يتقهقراً ركباً إلى بلاده ، بينما وقع إمبراطور النمسا في الأسر ووقع معاهدة الصالح التي فرضها عليه نابليون . وتلقى « بت » أنباء « أوستراتز » وهو يستجم في قريته ، وكان يتأمل خريطة أوروبا المعلقة في حجراته ، فقال لمن حوله :

— أطووا هذه الخريطة ، فلن يحتاج إليها أحد في هذه السنوات . . . واشتد عليه المرض ، وزاره في القرية « ولسلي » فأدرك أنه يقترب من نهايته ،

(م ٩ — خطباء)

— ١٣٠ —

وأبلغ الأمر إلى زعيم المعارضة ، فأجل مجلس العموم جلساته ، وأوقفت المنازعات الحزبية .

وفي صباح يوم ٢٢ يناير ١٨٠٧ دخل « بت » مرحلة الاحتضار ، ويروى أنه قال وهو يعاني سكرات الموت :

— بلادی . . بلادی . . ما أصعب فراقك ا .

ثم أسلم الروح .

عبد الله نديجي

« رأيت رجلا في ذكاء إياس ، وفصاحة سحبان ، »

« وقبح الجاحظ ، أما شعره فأقل من نثره ، ونثره »

« أقل من لسانه ، ولسانه الغاية القصوى في عصرنا هذا »

أحمد تيمور

عبد الله نديم

من حق عبد الله نديم أن يُعرف له مكانه من تاريخ الخطابة في مصر .
فقد كان فيها رائداً عرف فضلها ، والتفت إلى قيمتها في الحياة العامة ، فدعا
إلى الاهتمام بها ، وكان هو من فرسان حليتها ، بل كان سيد المنابر في عصره .
عرف له رجال الثورة العربية خطرهم فحشروه في زمريهم ، ووجد هو فيها
مجالاً يوافق طبيعة نفسه فأصبح خطيب الثورة ولسانها الناطق ، حتى اقترن
بها اسمه ، واكتوى بنارها ، وقضى حياته مغامراً ، فكانت أيامه سلسلة من
الكفاح الذي لا يعرف الهدوء ، والجهاد الذي لا يعرف الاستسلام ، وكأنما
كانت نفسه ترتاح لمقارعة الخطوب ومصارعة الأحداث .

قال في قصيدة له يتحدث عن نفسه :

إذا ما الدهر صافانا مرضنا فإن عدنا إلى خطب شفيينا
إذا طاش الزمان بنا جلمنا ولكن نهينا ان نهينا
وإنا والورى قيمان لكن إذا ماتوا يذالة حيينا

وهكذا كان عبد الله نديم ، ثورة مضطربة دأمة ، حتى بعد أن
سكن الثوار واستسلموا للأمر الواقع ، رفض أن يستسلم أو يهدأ ، لأن
الثورة كانت طبعاً أصيلاً فيه . ولم يكن عبد الله نديم غنياً ولا كان من بيت
كبير . نزع أيوه من الشرقية إلى الاسكندرية واشتغل فترة من الزمن نجاراً
بدار صناعة السفن ، ثم افتتح مخبزاً صغيراً كفل له الكفاف من العيش .
وفي عام ١٨٤٥ رزق « مصباح إبراهيم الأدرسي » بولده « عبد الله »
فأدخله « مكتب » الحى ، حيث حفظ القرآن الكريم وأتمه وهو في
التاسعة من عمره .

وكانت للصبي ذاكرة عجيبة ، وقدرة نادرة على الحفظ ، فأدخله أبوه معهد « الجامع الأنور » الذى أنشأه الشيخ إبراهيم باشا بالاسكندرية لدراسة علوم الدين واللغة على نمط الدراسة بالأزهر . وظل « عبد الله » بضع سنوات يدرس على بعض أكابر الأتياخ ، ولكن لم يلبث أن ضاق بهذا اللون من الدراسة الجافة ، فهرب منها ، واتجه اتجاهاً يوافق طبيعته ومزاجه ، وأخذ يغشى مجالس الأدباء ، ويستمع إلى ما يروى من الشعر ويلقى من الأزجال والنوادر ، فهامت نفسه بهذا اللون من المعرفة ، وأحس إحساساً عميقاً بأن هذا طريقه .

ولم يكن للأدب فى ذلك الزمان دراسة منظمة ، فأنصرف « عبد الله » من حلقات العلم بالجامع الأنور إلى دكاكين التجار المحبين للأدب ، يتطارح معهم الشعر ، ويستمع إلى شاعر الرابة يروى القصص والأساطير الشعرية ، ويشبع نهمه إلى فنون الأدب وكان بين أساتذته فى الجامع الأنور شيخ يدعى الشيخ محمد العشرى ، وكان يتعشق الأدب ، فاكتشف موهبة تلميذه « عبد الله » وقدرته على النظم ، فأخذ يشجعه ويصحبه إلى ندوات الأدباء ، وبيوت الأثرياء حيث يستمع إلى المباريات الأدبية والشعر وفنون الزجل^(١) .

وتفتحت مواهب الأديب الناشئ عندما وجدت المناخ الملائم ، وعاونته حافظته العجيبة التى اختزنت كثيراً مما سمعت ، وساعده حسه المرهف ، فأخذ يقول الشعر والزجل ويعالج الكتابة ، ويطارح غيره فى المجالس ، حتى ذاع أمره ، وأخذ يدعى ليجالس الخاصة من هواة الأدب ، ويفادم الكبراء ، فينطلق لسانه بالشعر والزجل والنوادر والفكاهات .

وعلم أبوه بأمره ، فخبره بين العودة إلى دروس الجامع والانتظام فى طلب العلم ، أو الذهاب عنه إلى حيث يكسب رزقه بنفسه .

(١) عبدالله النديم للدكتور على الحديدي

واختار « عبد الله » الطريق الثانى ، وخرج من الاسكندرية مطوفاً في البلاد ، وقضى ستة أشهر ينزل ضيفاً على العمدة والأعيان ، يستمتع بكرمهم ، ويمتعهم بأدبه وإنشاده ، ثم عاد إلى الإسكندرية يحمل لقب « النديم » الذى عرف به طول حياته .

وضاق النديم بالاسكندرية وضائق به ، فهاجر إلى القاهرة .

كان ذلك فى عام ١٨٦١ ، وكان فى السابعة عشرة من عمره ، فبحث عن سبيل للكسب ، وإذا به يتجه إتجاهاً غريباً ، إذ تعلم فن الإشارات التلغرافية ثم التحق بمكتب التلغراف بينها ، ثم نقل إلى مكتب تلغراف القصر العالى حيث كانت تقيم والدته الخديوى إسماعيل .

وعندما استقر عبد الله نديم بالقاهرة ، وأطمأن إلى رزقه المكفول بوظيفته فى القصر العالى ، عاوده الحنين إلى الأدب ومجالسه ، فكان يضى أوقات فراغه فى الأزهر لحضور الدروس التى يلقيها بعض كبار العلماء ، ثم اتصل بكثير من الأدباء والشعراء مثل محمود سامى البارودى وعبد الله فسكرى والساعاتى وغيرهم ، فكان يحضر مجالسهم ويرتوى من مناهلهم .

وجاء جمال الدين الأفغانى إلى مصر ، وأخذ ينشر آراءه الثورية ساعياً إلى تنبيه العقول لتتبع ما ترسف فيه البلاد الإسلامية من بؤس العبودية ، داعياً إلى التحرر ومقاومة الاستعمار فى شتى صورته . واتصل به النديم ، فاستهوته آراؤه الجريئة ، وأصبح من تلاميذه المقربين ، يحرص على لقائه وحضور مجالسه وأعجب به الأفغانى فاهتم بتوجيهه وقد توسم فيه الخير ، واكتشف مواهبه الخطابية ، فدعاه إلى تلميذتها ، وأخذ يلقنه الآراء والمبادئ التى يؤمن بها ويدعو إليها .

وكان الاتصال النديم بالأفغانى أكبر الأثر فى حياته بعد ذلك ، فكما وجهه من

قبل أستاذه الشيخ محمد العشري إلى الأدب ، وجهه الأفغانى إلى الثورة وغرس بذرتها في نفسه .

ولسكن حادثاً وقع للنديم أخرجه من وظيفته ، ومن القاهرة كلها .
لقد غضب عليه « خليل أغا » كبير أغوات القصر العالى ، وكان صاحب نفوذ كبير ، فأمر بجلبه بالسياط وطرده من عمله بالقصر .
وترك عبد الله نديم القاهرة كلها ومضى إلى الدقهلية ، وفي المنصورة اتخذ دكاناً لبيع الخردوات جعله ندوة للادباء والشعراء فأنهى أمره إلى الأفلاس .
وأغلق النديم دكانه ومضى يطوف بالبلاد ، ينزل ضيفاً على هواة الأدب من الكبراء والأغنياء حتى سمع بأمره شاهين كنج باشا مفتش الوجه البحرى ، فاستدعاه وأعجب به وأكرمه واتخذ نديماً .

وفي طنطا برزت مواهبه ، ففي مجالس شاهين باشا ظهر تفوقه على من كان يحضرها من الأدباء والشعراء ، فقد رأوا بديهة حاضرة ، وخاطراً يومض في سرعة البرق ، ومقدرة فائقة على إرسال الشعر والزجل ارتجالاً ، فاعترفوا له بالسبق طائعين أو كارهين .

في أحد هذه الاجتماعات لدى شاهين باشا دفعت الغيرة الحاضرين من الشعراء والأدباء فتعاملوا عليه ، وتحداه بعضهم أن يقول شعراً يعارض به دالية المتنبي مطامعها :

أقل فعالى - بله أكثره - مجذ وذا الجذ فيه ، نلت أو لم أنل ، جد
فغضب النديم وأمسك بالقلم وأنشأ قصيدة طويلة يقول في مطالعها .

سيوف الثنا تصدا ومقولى النمد ومن سار فى نصرى تكفله الحمد
ومن عجب الإيام شههم أخوحجا يعارضه غر ويفحمه وغد
ومن غرر الأخلاق أن تهدر الدما لتحفظ أعراض تكفلها المجد

فأنعم الحاسدين وأسكت المعارضين .

وجرت له في طيطا حادثة أخرى أطارت ذكره بين الناس . كان يجلس مع بعض أصحابه في أحد المقاهى أيام المولد الأحمدي ، فأقبل اثنان من « الأدباتية » ومرا على الحاضرين حتى وصلا إلى عبدالله النديم ، فقال أحدهما

إنعم بقرشك يا جندي والا اكسنا أمال يا أفندي
أحسن أنا وحياتك عندي بقي لي شهرين طول جمان
فأجابه النديم على البديهة .

أما الفلوس أنا مديشي وانت تقول لي ما أمشي
يطلع على حشيشي أقوم أملص لك لودان
فرد الأدباتي وأجابه النديم ، وظلا كذلك ساعة حتى سكت الأدباتي واعترف بالهزيمة . ونقلت القصة إلى شاهين باشا فأحضر الأدباتية والزجالين من أقطاب هذا الفن ، وعرض عليهم أن يقيم حفلا عاما يساجلون فيه النديم فإن غلبوا كافأهم ، وإن غلبهم النديم ضرب كلا منهم عشرين كرابجا . . . ! وقبلوا العرض ، وأقام شاهين باشا سرادقا أمام بيته ازدحم بالناس ، واستمرت المساجلة ثلاث ساعات ، يقولون ويرد عليهم النديم حتى غلبهم وأسكتهم .

وتفصيل هذا الحادث أو المهرجان منشور بمجلة « الأستاذ » ، ويقول النديم إن شاهين باشا عدل عن ضربهم ومنحهم خمسة جنيهات .

وفي مجلس شاهين باشا تعرف النديم على تتونجي بك وكان من الحاشية الخديوية ، فأعجب به وعينه وكيلا لدائرته ، فهيأت له هذه الوظيفة التردد على القاهرة وهو آمن من أذى خليل أغا .

وفي القاهرة عاد إلى مجلس أستاذه جمال الدين الأفغانى فوجده أكثر ثورية في أحاديثه . كان يدعو إلى التحرر من الظلم الاجتماعى والاستبداد السياسى والتدخل الأجنبى ، ويرى أن السبيل إلى ذلك لا يكون إلا بتكوين رأى عام مستدير وتنظيم المقاومة الشعبية . ومست كلمات الثائر الكبير شغاف قلبه فلزم مجلسه ، وانضم إلى الحفل الماسونى الذى أنشأه السيد جمال الدين . ووجه الأفغانى إلى الإسكندرية ليكون رسول دعوته بها ، وليساعد في تحرير الصحف التى يصدرها الحفل بالثغر ، فسافر النديم إلى الإسكندرية في أوائل عام ١٨٧٩ ومنذ ذلك التاريخ بدأ الكفاح الحقيقى لعبد الله نديم ، وترك خلف ظهره حياته الماضية التى كان فيها مجرد نديم للكبراء يتمتعهم بأدبه ونوادره وحمل رسالة الدعوة الوطنية ورفع شعلتها عالية فلم تسقط من يده حتى انطفأت جذوة حياته .

واقعد وجد النديم في الإسكندرية شعوراً قومياً في دور التكوين ، ووجد الناس قد أخذوا يعمون بالسياسة ويتجدثون في تصرفات الخديو إسماعيل وتدخل الدول الأجنبية ، فانضم إلى جمعية « مصر الفتاة » السرية ، التى كانت تهدف إلى القضاء على استبداد إسماعيل ، والعمل على خلعه أو قتله ، والمطالبة بحكم الشورى والدعوة إلى الإصلاح العام . واتصل بأديب اسحق محرر جريدة « التجارة » وأخذ ينشر المقالات فيها وفي جريدة « مصر » يعالج فيها الموضوعات التى تشغل الناس .

وأدرك عبد الله نديم أن الكتابة السياسية يناسبها الأسلوب السهل المتدفق ، فحرر كتابته من السجع والحسنات اللفظية التى كانت طابع كتابته قبل ذلك . وأعجب القراء بمقالات النديم ، التى كان يدعو فيها إلى الإصلاح الاجتماعى والسياسى ، وأخذ الكتاب يقلدون أسلوبه المرسل الجديد ، فذاع صيته بين الناس ، وراجت بفضله الجريدتان .

وحاول النديم إقناع أعضاء جمعية « مصر الفتاة » بتحويلها إلى جمعية علمية تعمل للإصلاح في وضع النهار ، وبذلك يكون لها أثر في تنبيه الرأي العام ، فلما فشل في محاولته انفصل عنها ، وكون أول جمعية مصرية في إبريل ١٨٧٩ وهي « الجمعية^(١) الخيرية الإسلامية » التي أنشأت مدرسة للتعليم على غير النمط الذي تسير عليه مدارس الحكومة ، وعين النديم مديراً لها ، فألقى في حفلة الافتتاح خطبة رائعة كان لها دوى كبير في الاسكندرية ، ونشرتها الصحف ، وقالت عن الخطيب إنه « أول خطيب مصري وقف بين الحكام ، وفتح فاه بالكلام في مكان عام ، في وقت بلغ فيه الاستبداد أشده ، وجاوز الظلم حده » .

وفي هذه المدرسة ظهر حب عبد الله نديم للخطابة واهتمامه ، وإيمانه بفائدتها في تثقيف الشعب وإيقاظ الشعور القومي وقيادة الرأي العام . فأخذ يلقي أصول الخطابة للطلاب ، ويدربهم عليها ، ويقوم الحفلات يخطب فيها هو وتلاميذه ولم يكتف بذلك ، بل خرج بالمدرسة إلى الحياة العامة ، فكان من تلاميذها جمعيات للخطابة والآداب والفنون والتمثيل ، وألف بعض الروايات التمثيلية في نقد العيوب الاجتماعية ومثلها مع تلاميذه على المسارح العامة .

وبعد شهرين من إنشاء الجمعية الخيرية الإسلامية ، أجبر الخديو إسماعيل على التنازل لأبنه توفيق ، وظن النديم كما اعتقد الناس أن الخديو توفيق سوف يفي بالوعود التي قطعها للشعب ولحزب الإصلاح ويحاول أن يصح أخطاء إسماعيل ، ولكنه لم يلبث أن تنسكروعوده ، وأمر بنفي جمال الدين الأفغاني رئيس حزب الإصلاح ، وأسلم قياده لقناصل الدول الأجنبية . ولكن ذلك لم يفت في عضد النديم ، بل واصل السير قدماً نحو الأهداف التي أنشأ

(١) وهي غير « الجمعية الخيرية الإسلامية » التي أنشئت بعد ذلك في القاهرة

من أجلها الجمعية ، غير مبال بتحذير الناس له وتخويفهم إياه ، فأعلن عن إقامة حفلة للخطابة في ساحة المدرسة ليلة الجمعة من كل أسبوع .

ويقول الدكتور على الحديدي في كتابه عن « عبدالله النديم » إن ساحة المدرسة كانت تغص بالوافدين عليها ، وكان عددهم يزيد على خمسمائة مستمع كل اجتماع . وأحدثت الحافل هزة فسكرية في الاسكندرية ، إذ هرع إليها الناس يستمعون إليه بما لم يسمعه من خطيب مصرى قبله ، فكان يخطب في موضوعات ظاهرها الإصلاح الاجتماعي والثقافي ولكنها محشوة بما يذمه الألباب إلى ما وصلت إليه البلاد من سوء الحال .

وأخذت الصحف تنشر خطب النديم كاملة في صفحاتها الأولى ، وخلعت عليه كثيراً من الألقاب ، فسمته « خطيب الشرق » وأطلقت على محفله « سوق عكاظ » وتصف حفلاته وإقبال الجمهور عليها ، وكيف يسحر النديم مستمعيه ويأخذ بقلوبهم ويمتلك عواطفهم « ويثبت في الأفئدة الضعيفة أنوار الحمية الوطنية ويضرم في النفوس الهامدة نيران الغيرة والحرية » . .

وأصبحت الاسكندرية ولا حديث لها إلا خطب النديم ، واجتذب محفله الخطابي كبار القوم وسراة الاسكندرية ، وانضم إلى الجمعية كثيرون من أصحاب النفوس المشتعلة بالوطنية^(١) . .

ويقول الدكتور الحديدي في كتابه إنه حين وقع النزاع بين الخديو توفيق ورئيس وزرائه رياض باشا على السلطة ، وتسابقا في التقرب إلى السلطة الأجنبية ، لم يجد الخديو لديها النصير ، فعاد يتقرب إلى الشعب مرة أخرى لعله

(١) عبدالله النديم بقلم الدكتور على الحديدي

يستعيد ثقته فينصره على رياض باشا . واستغل النديم الفرصة ليحتفى بالخديو من بطش رياض ، فدعا لزيارة مدرسة الجمعية وجعلها تحت رعاية ولى العهد ليضمن بقاءها وانطلق النديم يدعو إلى إنشاء الجمعيات ، واتجه بدعوته إلى المدن والقرى يطوف بها ويخطب الناس فى المساجد والجمعيات ، فتألفت على يديه جمعيات بدمنه وروميت غمر والمنصورة ودمياط وغيرها ، وكما يقول النديم « وقويت هذه العصاة ، وتعددت محافل الخطابة ، وانتشرت الدعوة فى البقاع ، حتى ملأت القلوب والاسماع ، وانفتح باب الجمعيات ، ودخلها الناس أفواجا وزرافات » .. وصارت جمعيات النديم مجالا للصراع بين الخديو ورياض باشا ، يحاول كل منهما أن يتخذها وسيلة من وسائل الدعاية له ، والنديم من جانبه يتخذ من تأييدها وسيلة لنشر دعوته ، فقد أصبحت المعانى السياسية التى تدل عليها خطب النديم غير خافية ، إذ فهمتها النفوس ، وأصبحت حديث الناس^(٢) .

وقام النديم مع فريق التمثيل بالمدرسة بتمثيل روايته « الوطن وطالع التوفيق » على مسرح « زيزينيا » بحضور الخديو والوزراء ، وكانت الرواية حافلة بالأهداف السياسية . وشعر رياض باشا بخطر النديم عليه وعلى حكمه ، فتآمر مع المحافظ الذى كان رئيسا للجمعية على إخراج النديم منها وتلوث سمعته بنسبة أمور إليه تسمح بفصله ، ولكن النديم علم بالمؤامرة فأرسل إلى مجلس الإدارة استقالته من إدارة المدرسة ومن عضوية الجمعية .

واتجه النديم إلى الصحافة ، فأصدر صحيفة سماها « التفكيك والتبكيك » كانت لونا جديدا من الصحافة لم يسبق إليه . وقد قال فى افتتاحية العدد الأول الذى صدر فى ٦ يونيه ١٨٨١ « إنه لا يريد منها أن تكون منمقة بمجازات واستعارات ، ولا مزخرفة بتورية واستخدام ، ولا مفتخرة بفخامة لفظ وبلاغة

(١) المصدر السابق

عبارة ، ولا معربة عن غزارة علم وتوقد ذكاء ، وليسكن أحاديث تعودناها ،
ولغة ألفنا المسامرة بها . . » وفي هذه الصحيفة الرائدة عاد عبد الله نديم يدعو
إلى الاهتمام بالخطابة ، ويقول إن من أسباب غفلة الشرق ضعف الخطابة فيه
وأنحصرها في خطب المساجد التي لا تمس الحياة الواقعة .

وكتب مقالا قويا بعنوان « ألسن الخطباء تحيي وتميت » طلب فيه أن
تكتب خطب المساجد بشكل جديد بحيث تعالج شؤون الحياة ، وتشرح
الموقف الحاضر ، وتبين الأخطار المحيطة بالأمة ، وقال في نهاية المقال :

« أود وجود نفر من أعيان بلادنا يتبرعون بمبلغ لنشر خطب أدبية
وسياسية . وأنا أتبرع بإنشاء خطبة في كل أسبوع تناسب أحوال الزمان ، ثم
تطبع هذه الخطبة وتنتشر في سائر أنحاء القطر لتنبه الأفكار وتعرف الأمة قدرها
بين الأمم . . » .

ثم أردف المقال بخطبة نموذجية توضح غرضه ، وصاغها صياغة دينية تناسب
صلاة الجمعة . . ومما قاله فيها :

« إن لكل أمة كلمة تجمعها ، وسيرة تسميها ، وكلمتنا الوحيدة حسن
الاعتقاد ، وسيرتنا حفظ الملة والبلاد . . وقد تأسست كلمتنا بالاتحاد واللين ،
والقيام بما جاء به هذا الدين ، من ترك العقوق ، وحفظ الحقوق ، والبعد عن
الظلم والبغى ، والتطهر من الرجس والغنى ، والحث على الائتلاف ، والتحذير
من الاختلاف . وقد دخل معنا من أهل الذمة من تعلمون ، وصاروا أخواننا
في الوطنية ، وأنتم تعلمون ما نزل به الوحي من السماء ، وما أهريق في نشره
من الدماء ، حتى بلغنا السعود ، وصيرنا أمة عظيمة في الوجود . ولولا تفرق
الكلمة ما انحل عقد اجتماعنا ، ولا خرج علينا أحد من أتباعنا ، ولا ضعفت
منا المهمم حتى تلاعبت بنا الأمم . . » .

ثم قال :

« أترون الدول ترحمكم إذا ملكتكم ، أو تبكي عليكم إذا أهلكتكم ، أو تعاملتكم بالرفق واللين ؟ كلا والله . . ما هي إلا أسود إن دُهمت احترست وإن تمسكنت افترست ، وإن ملكت أساءت السيرة ، وإن جاورت لم تحفظ الجيرة ، وإن تداخلت احتالت ، وإن رأت غرة اغتالت . . الخ » .

* * *

نُجحت مجلة « التنكيت والتبكيت » فكانت أعدادها تنفذ بمجرد صدورها ، ويتخطفها رجل الشارع الذي وجد لأول مرة جريدة تهتم به وبمشاكله ، وتعالجها في أسلوب سهل يجمع بين القصة والنكتة ، ويحدث العامة بلغتهم تارة وبألزجل الرشيق تارة أخرى . ثم أخذ النديم يتطرق في مقالاته إلى السياسة فيهاجم الظلم والاستبداد . ولم يكتف بالكتابة في مجلته ، بل أخذ يتنقل في البلاد ويخطب في المساجد ، ويخاطب الفلاحين محاولاً أن يبذر في نفوسهم بذور الثورة على الحكم الظالم وعلى الاقطاع والاستغلال .

وفي خلال ذلك كان « أحمد عرابي » يمهّد مع زملائه للثورة على الأوضاع القائمة وقد وجد العرابيون في عبد الله نديم خير داعية يستطيع أن ينشر دعوتهم بين صفوف الشعب ، فاتصلوا به ، وأطلعوه على خططهم ، وضموه سرّاً إليهم وكان النديم مهياً لهذا الدور الخطير .

كان قد بلغ الأربعين من عمره ، ولكن هذه الأعوام كانت قد حفت بالتجارب ، ففضجت رجولته كما نضج فنه ، حدث عن نفسه فقال :

« أخذت عن العلماء ، وجالست الأدباء ، وخالطت الأمراء ، وداخلت الحكام ، وعاشرت أعيان البلاد ، وامتزجت برجال الصناعة والفلاحة والمهن الصغيرة ، وأدركت ما هم فيه من جهالة ، ومميتة ألون ، وماذا يرجون . وخالطت

كثيراً من متفريجة الشرقيين ، وألمت بما انطبع في صدورهم من أشعة الغربيين وصاحبت جما من أفاضل الشرقيين المتعلمين في الغرب ، وعرفت كثيراً من الغربيين ، ورأيت أفكارهم عالية أوسافلة فيما يختص بالشرقيين والغاية المقصودة لهم . واختلطت بأكابر التجار ، وسبرت ما هم عليه من السير في المعاملة أو السياسة وامتزجت بلفيف من الأجناس المتباينة جنساً ووطناً وديناً . واشتغلت بقراءة كتب الأديان على اختلافها ، والحكمة والتاريخ والأدب ، وتعلقت بمطالعة الجرائد مدة ، واستخدمت في الحكومة المصرية زمناً ، واتجرت برهة ، وفلحت حينها وخدمت الأفكار بالتدريس وقتاً ، وبالخطابة والجرائد آونة ، واتخذت هذه المتاعب وسائل لهذا المقصد الذي وصلت إليه بعناء كسائي نحول الشيمخوخة في زمن بضاضة الصبا ، وتوجني بتاج الهرم الأبيض بدل صبغة الشباب السوداء فصورتي تريك هيئة أبناء السبعين ، وحققتي لم تشهد من الأعوام إلا تسعة وثلاثين هكذا كان عبد الله نديم في مطلع الثورة العربية .

كان كاتباً يدعو في مجلته إلى الإصلاح بأسلوب مبتكر ، وكان خطيباً وهدية الله قدرة عجيبة على الارتجال ، لا يكاد يفتح فيه للقول حتى تنثال عليه وتنهل الألفاظ ، فيتدفق بالكلام البليغ تدفق السيل .

ونستطيع أن نتصور مقدرته كخطيب إذا ذكرنا كيف كان يرتجل الشعر والزجل بداهة ، وكيف كان يؤلف الروايات التمثيلية ثم يعتلى المسرح فيمثلها مع تلاميذه أمام الخديو ، وكيف التفت إلى أهمية الخطابة كأداة للإصلاح وتنبيه الشعور القومي ، فدرب عليها تلاميذه ، وعلم كثيراً من الشبان كيف يخطبون في المحافل .

والواقع أن المقدرة الخطابية كانت أبرز نواحيه وأظهر مافيه .

كتب صديقه « أحمد سمير » يقول عنه في ترجمة حياته :

« كان يخطب في كل ناد ومحتفل بصوت جهورى ، ولسان أمضى من الحسام ، وقلب أجراً من الأسد . ويعلم الله أنى ما رأيت عمرى أخطب منه على كثرة من سمعت في الشرق والغرب من كبار الخطباء الذين تضرب بملاغتهم وقوة براهينهم الأمثال » ثم قال أيضاً :

« وأما خطبه وتأثيرها السريع في الأذهان فيكفينى مؤونة الكلام الطويل فيه إجماع كتاب الجرائد العربية والأجنبية على تلقيبه بخطيب الشرق ، فهو أول شرقى وقف المواقف الهائلة وخصوصاً قبل الثورة العراقية ، إذ كان يستدعى بالتلفراف إلى الاسكندرية وسواها فيرتجل من حر القول البليغ القوى «لقويم الحجة ما يترك الألباب سكارى من غير مدام . . »

قدر رجال الثورة العربية للنديم هذه المواهب فضموه إليهم ، ليصبح أول عضو مدنى ينضم إلى منظمة الجيش ، وليصبح بعد ذلك خطيبها الرسمى والمتحدث بلسانها . وانطلق عبد الله نديم ينقذ فى صراحة وجراءة تصرفات حكومة رياض ، وتصرفات الخديو ، وأخذ يطوف فى كل حفل ومجتمع يلتقى الخطب الرنانة يدوى صداها فى البلاد . كان يخطب فى كل مكان ، فى الأزهر وطلبته ، والجيش وجنوده ، وفى حفلات الزفاف والأفراح ، فما يكون مجتمع لغرض من الأغراض إلا ويطلع عاينهم عبد الله نديم وجماعة من تلاميذه المدربين يمتلئون المكان العالى ، ويخطبون فى موضوعات الساعة . وكان يتنقل فى الأقاليم والبلاد يخطب ويخطب ، لا يكل ولا يمل ، فساعد على تكوين رأى عام يؤمن بالحكم النيابى ويتطلع إلى الإصلاح .

وبتوجيه من عبد الله نديم كتب عرابى منشوراً يعلن فيه أن رجال الجيش يطالبون بإسقاط وزارة رياض وتشكيل مجلس نواب ، ويطلب إلى (١٠م - خطباء)

الأهالى أن يوكؤوه ليسكون نائبا عنهم فى المطالبة بذلك وتحقيق ما فيه
مصلحة البلاد .

وقد جاء فى كتاب « السكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث » أن
عبد الله نديم « أخذ يجوب الأقاليم ويدعو الناس إلى نصره زعماء العصاةة .
وكان عبد الله هذا قوى الحججة ، فصيح اللسان قوالا ، سهل العبارات ، عذب
المنطق ، مقلقا مهيجا بذلاقة لسانه وقوة حجته وبيانه . وقد عرف عادات
البلاد وميول أهلها ، فطفق يجوب المدن والقرى يخطب فى الناس ويقص
عليهم حديث أجدادهم وأخبارهم ، ويصعد على منابر الجوامع ويخطب جهارا
وعينه تذر فان الدمع ، فافتتن الناس ، ومال إليه خلق كثير من الأعيان
والوجهاء من كل صوب وحذب . وعاد إلى القاهرة وهو يحمل فى حقيبته
عرائض موقعا عليها من الأعيان والأهالى يؤيدون فيها عرابى ومطالبه ،
فأخذها عرابى دليلا على إنابة الأمة له . »

وجاءت إلى القاهرة فى إثر النديم وفود الأعيان والفلاحين لمبايعة عرابى ،
فكان يستقبلهم فى منزله ، ويقف النديم فيلقى الخطب والقصائد الحماسية .

ولا نستطيع مع الأسف أن نرجع إلى خطب النديم لنحكم على قيمتها الفنية
لأنها لم تكن تدون ، وإنما كان يلقيها ارتجالا فتفعل فعلها ولا يعنى أحد
بتدوينها ولم ينشر منها إلا الشيء القليل فى المجلة التى كان يصدرها .

ثم كانت مظاهرة عرابى العسكرية فى ميدان عابدين ، وكان عبد الله نديم
هو المدنى الوحيد الذى اشترك فى الزحف مع الجيش إلى قصر عابدين لتقديم
مطالب البلاد إلى الخديو باسم الشعب .

وأذعن الخديو ، وقبل فى النهاية مطالب عرابى ، وسقطت وزارة رياض
وأعلن عن قيام الحياة الدستورية وتهيأت البلاد لانتخاب مجلس النواب .

وبعد أن هدأت الخواطر واطمأن الناس وصدر المرسوم بإجراء الانتخابات عاد رجال الجيش الناثرون إلى معسكراتهم ، واستجاب زعمائهم للأوامر التي صدرت إليهم بالابتعاد عن القاهرة حتى لا يظن أنهم يتدخلون في السياسة فسافر « عبد العال حلمي » على رأس الآلاى السودانى ليعسكر فى دمياط ، وتبعه « أحمد عرابى » على رأس فرقة ليعسكر فى رأس الوادى . واحتشدت الجماهير الغفيرة فى المحطة لتودع الناثرين ، ووقف خطيب الثورة عبد الله نديم يخطب مرتجلا موجه خطابه إلى الضباط والجنود يوم سفر عبد العال حلمي فيقول .

— حماة البلاد وفرسانها —

إن من قرأ التاريخ وعلم ما توالى على مصر من الحوادث والكوارث أدرك مقدار ما وصلتكم إليه من الشرف ، وما كتب لكم فى صفحات التاريخ من حسنات ، فقد ارتقيتم ذروة لم يسبقكم إليها سابق ، وإن يالحق بكم فى إدراكها لاحق ، ألا وهى حماة البلاد ، وحفظ العباد والضرب على يد الاستبداد ، فلكم الذكر الجميل ، والمجد الخالد ، يباهى بكم الحاضرون من من أهلنا ، ويفاخر بأعمالكم الجيل الآتى من أبنائنا ، فقد أعدتم الروح إلى الوطن بعد أن بلغت الروح التراقى .

وفى يوم سفر « عرابى » طلبت الجماهير المحتشدة فى ميدان المحطة أن تسمع كلمة من « خطيب الثورة » فوقف النديم على مرتفع وقال :

— سادتى وإخوانى :

أرونى أمة بلغت مناهى بغير العلم أو حد اليمانى
قضت علينا الشقوة بأن نعيش فى زمن الخسف ، وعهد الاستعباد ،
فرأينا المشنوق من أهلنا ، وشاهدنا المذبوح والمحروق ، والموضوع على الخازوق

والمسجون والمنفى والمنهوب ، والمشرّد والمغلوب والمسلوب ، ولا ذنب لنا في هذا كله إلا أننا لم نحسن المحافظة على البلاد .

ثم رأينا تسليم أمور بلادنا إلى الأجنبي وإذلال الوطني وضياع حقه وتركه في زوايا الإهمال ، فسمعنا إلى تحقيق الاتحاد وجمع القلوب ، حتى نهض الجيش فأعرب عما في ضمائرنا ، ونادى جهاراً بحقوق الأمة ، فنحن الآن ننادى بصوت يسمعه القاصي والداني : يموت الاستبداد وتعيش الحرية ، ويعدم المستبد ويبقى جيش الحماية . . . » .

ثم مضى يحثهم على الاتحاد والتمسك بالنظام والحكمة ، ويقول عن سفر « عرابي » .

— هذا أخوكم الجليل ، السيف المجرد لحماية بلاده ، يودعكم ويسافر إلى رأس الوادي ، لا يكره ولا إرغام ، ولكنه يسافر ليقطع السن الأعداء ، ويقضي على الأراجيف ، ويعلم الصديق والمدون أن الوطن في هدوء عظيم ، وأن أهله في طاعة لا يشوبها عصيان فاسألوا الله له ولإخوانه السلامة ، وكونوا مثلهم في الاتحاد والوطنية ، فكلكم وطني وإن اختلفت المقاصد وتباينت السبيل . . . » .

ورافق النديم عرابي في سفره ، وكان يخطب الجماهير التي تجمعت في كل محطة على طول الطريق لاستقبال بطل الثورة .

وعندما أخذت البلاد تستعد للانتخابات ، قام النديم بنشر التوعية بين الشعب ، ويحذر الناس من سوء الاختيار ، ويدعو إلى حكم الشعب بواسطة ممثليه الذين يحسون بآلامه ، ويدشرون بالديمقراطية الحقيقية .

وأصبح معروفاً أن عبد الله النديم هو المتحدث بلسان الثورة ، واتفق

معه عرابي على أن تصبح جريدته هي اللسان الرسمي للحركة الثورية الجديدة وهكذا تغير اسم « القنكيت والتبكيت » ليصبح « الطائف » ، التي صدر عددها الأول في ٢٠ نوفمبر سنة ١٨٨١ .

* * *

لا يتسع هذا المجال لتفصيل أسباب فشل الثورة العرابية ، وحسبنا أن نذكر أن الثورة قد فشلت وانتهت بالهزيمة والاحتلال البريطاني في عام ١٨٨٢ .

وكان عبد الله النديم إلى جوار عرابي خلال الحرب التي خاضها في مواجهة القوات البريطانية الغازية ، ينظم الدعاية ، ويستنهض الهمم ، ويرسل الخطباء والعلماء إلى البلاد يحرضون الأهالي على الحرب وإمداد الجيش بالجنود والمؤن .

كان النديم خلال تلك الحرب حركة لا تهدأ ، وشعلة لا تخبأ ، يحوب البلاد فيذكي الحماسة في قلوب الشعب ، ويخطب في المساجد والطرقات ، وفي الحقول والمجتمعات ، محرضاً على القتال دفاعاً عن الأرض والشرف والكرامة والدين . ولستمع إليه يقول في إحدى خطبه التي نشرها بعد ذلك في جريدة الطائف فهي نموذج لمئات الخطب التي كان يرتجلها في تلك الأيام :

— يا بني مصر

هذه أيام النزال . هذه أيام النضال . هذه أيام الذود عن الحياض ، والدفاع عن الأعراض . هذه أيام يمتطى فيها بنو مصر صهوات الحماسة وغوارب الشجاعة لمحاربة عدو مصر ، بل عدو العرب ، لابل عدو الاسلام ، الدولة الإنجليزية خذلها الله ورد كيدها في نحورها .

يا أهل مصر . إنما آجال الناس محدودة ، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ، فأخرجوا للحرب عدوكم ولا تخشوا الموت ، فلا كل أجل كتاب .

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره . تعددت الأسباب والموت واحد .
يا أهل مصر . . إن الإنجليز يقولون إن مصر هي حصن البلاد العربية ، من فتحها فقد أخذ بلاد المسلمين ، فهبوا للدفاع عن وطنكم ، الذي هو حصن البلاد الإسلامية كلها ، وجاهدوا في الله حق جهاده ، لتحتفظوا هذا الدين العظيم ، وتدفعوا عدوكم يريد أن يدخل بخيله ورجله في بلاد الله ، يريد أن يدخل الكعبة المشرفة عن طريق بلادكم ، وقد استعان على أغراضه بالحديد الذي باع الأمة إرضاء للإنجليز . .

بهذا الأسلوب كان عبد الله نديم يستثير الأهالي ويستنفذهم للحرب المقدسة ، مستغلا الشعور الديني . ويقول الدكتور على الحديدي في كتابه إن النديم لم يدرس فن الإعلام أو الدعاية ولكنه كان موهوباً في هذا الاتجاه ، خبيراً بالشعور المصري وحساسيته للكرامة والشرف والعرض والدين ، وبأن هذه هي مفاتيح الثورة عنده وأوتار إثارة الحقد والكراهية فضرب عليها وغنى بها .

رهزمت جيوش « عرابي » في التل الكبير بتأثير الخيانة ، واستسلم قائد الثورة ورفاقه ، وطغت على البلاد موجة من الانحلال الخلقي ، فحاول كثيرون من زعماء الحركة التنصل من تبعاتها ؛ وتحول كثيرون من دعاةها ، ولكن عبد الله نديم لم يستسلم ولم يتحول ، وآثر الاختفاء هرباً من المحاكمة والعقاب .

وطال اختفاؤه عشر سنوات ، أتعب فيها نفسه وأتعب السلطات التي أخفت جهودها في البحث عنه ، فوضعت مكافأة مالية كبيرة لمن يرشد عنه ،

وأصدرت عليه حكماً غيائياً بالنفى المؤبد من البلاد .

وتنقل النديم بين البلاد متفكراً في كل زى ؛ مصطنعاً كل لهجة : منتحلاً مختلف الشخصيات . وكانت له في هذا الاختفاء حوادث عجيبة ؛ ونوادر غريبة ، تدل على براعته ولباقتة وذكائه ، وتجعل حياته في هذه الفترة أشبه بالقصص البوليسية المثيرة .

قال عن نفسه يصف هذه الفترة من حياته :

« خرجت من مصر مخفياً فدرت في البلاد متفكراً ، أدخل كل بلد بلباس مخصوص ، واتكلم في كل قرية بلسان يوافق دعواى التى أديها ، من قولى إني مغربى أو يمنى أو مدنى أو فيومى أو شرقاوى أو نجدى وأصلح لحيثى إصلاحاً يوافق هذه الدعوى فأطيلها في مكان عند دعوى المشيخة ، وأقصرها في آخر عند دعوى السياحة ، وأبيضها في بلد ، وأحمرها في قرية وأسودها في في عزبة . . الخ » .

ولكن هذا الاختفاء كان نعمة عليه من ناحية أخرى ، فقد أتيح له فراغ كبير فشغل نفسه بالكتابة والتأليف . ولندع له الحديث عن نفسه . فقد كتب لأحد أصدقائه أثناء اختفائه يصف حاله في كتاب طويل مسجوع جاء فيه :

« إن سألت عني فأنا بخير وعافية ، وحالة رائقة صافية ؛ لا أشغل فيكرى بما يأتى به الليل إذا كنت بالنهار ، ولا أتعب ذهني بتوالي الخطوب والأكدار ولا أتألم من طول المدة ، ووقع الشدة ، لإعتقادي أن لكل شدة مدة ، متى انتهت جفت الأوحال ، وحسنت الحال ، فتراني فيكرى كليمي ، وقلبي نديمي تارة أشغل بكتابة فصول ، في علم الأصول ، وحيناً أشغل بنظم فرائد في صورة قصائد ، ووقتاً أكتب رسائل مؤلفة ، في فنون مختلفة ، وآونة أكتب في التصرف والسلوك وسير الأخبار والملوك ، وزمناً أكتب في العادات والأخلاق

وجغرافية الآفاق ، ومرة أطوف الأكوان ، على سفينة تاريخ الزمان . وقد تم
لى الآن عشرون مؤلفاً بين صغير وكبير . . . »

وظل هذا الخطيب النائر على إيمانه الوثيق بقضية بلاده ، وبالرسالة الثورية
التي نذر لها نفسه ، ووقف عليها جهوده وحياته . ورغم ما كان يقاسيه من
متاعب وعذاب في وحدته وإخفافه الذي طال ، فقد ظل فؤاده يهفو نحو
« سيلان » الجزيرة النائية التي نفى إليها « عرابي » وزملاؤه ، وأستمر يمارس
مهمته كداعية لعرابي ومستشار له يكتب إليه الرسائل بإمضاء مستعار يحاول
بها رفع روحه المعنوى ، ناقلاً إليه الأمل في أن تثور الأمة على الإحتلال
وتدعوه لقيادتها من جديد .

قال له النديم في رسالة طويلة يلتمس له العذر في الهزيمة :

« قد تكون الهزيمة لتقوية العزيمة ، وزيادة الإستبصار في الأحزاب
والأنصار ، وما علينا في هزيمتنا بفعل الخائنين عار » .

ويقول له :

« لقد بعث نفسك لله ، لا المظهر والجاه ، وقام معك الأمراء والقادة ،
والعلماء والسادة ، وقام أخوك النديم ينادى بلسانك ، ويترجم عن جنانك
فسرى صوتنا في البلاد ، وتنبه الناس من الرقاد ، وتبعنا من الوطن أمشاج ،
وتواردت علينا زمر وأفواج ، فكان لفيقنا العجيب ، على هذا الترتيب :

مخلص أدرك ما قصدنا ، فقام يرصد ما رصدنا .

ومتردد حائر ، مع النوازل دائر .

ومذبذب إن عظمت اللاؤاء ، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء .

ومناقى ينقل عنا وإلينا ، ويحمل معنا وعالينا ، وعدو ينسب إلينا البدعة
وينصب لنا شرك الخدعة .. إلخ »

ويشرح له فى رسالة أخرى حب الشعب له فىقول :

« وقد زاد محبوبك ، بمن كانوا أبغضوك عندما رأوا فساد أحوالهم ، وانعكاس
آمالهم ، فهم أشد شوقاً إليك بمن كانوا يجتمعون إليك . وإذا أتى منك كتاب
إلى بعض الأحباب ، دار به على الإخوان ، وهو فرحان ، فأنت فى مصر وإن
كان جسمك فى سيلان ، فذكرك فى الألسن ورسمك فى الأعيان .. »

وعندما دب الخلاف بين زعماء الثورة فى المنفى ، واستفحل هذا الخلاف
حتى قاطع بعضهم بعضاً وتراشقوا بالتهم ، وعلمت بأمره صحف الإستعمار
فأخذت تهاجمهم وتتهمهم بأنهم لم يستهدفوا بثورتهم مصلحة الوطن وإنما
أرادوا تحقيق أطماعهم الشخصية ، أنزعج النديم وأستولى عليه الحزن ، وكتب
إليهم من مخبئه رسالة شهيرة جاء فيها :

« إذا لم تكن عهودكم وثيقة ، ورابطة جمعكم أنيقة ، وعدتم إلى الديار ،
على القواعد والنفاق ، ساءت بكم الظنون ، ومالت عنكم القلوب والعيون ،
وصرتم عرضة للدسائس ، ومرجعاً لأهل الخسائس ، وذكركم المؤرخون بالنقائص
وجردوكم من الفضل والخصائص ، وأنكرت أوربا دعوتكم الوطنية ، وربما كم
عدوكم متبجحاً بتهمة الهمجية . فأرجعوا إلى الأخاء والحق ، وألتزموا فى المودة
والصدق ، ولا تسودوا وجوهنا بين أهل مصر ، ولا تخرجلونا أمام نبيهاء العصر .
إلخ » .

وبينما كان عبد الله نديم فى قرية « الجميزة » مركز السنطة ، تعرف عليه
شرطى سابق فوشى به طمعاً فى المكافأة ، فقبض على النديم فى ٢ أكتوبر

١٨٩١ ونقل إلى السنطة ومنها إلى طنطا حيث حقق معه رئيس نيابتها « قاسم أمين » الذي أحسن معاملته وعرف له قدره .

وكان للقبض على النديم دوى أعاد إلى الأذهان ذكرى الثورة وأحداثها وأثار الجدل في الصحف ودوائر الحكومة ، وأنتهى الأمر بالعمو عنه مع نفيه من مصر إلى الجهة التي يريد ، فأختار « يافا » لأقامته .

* * *

ولم يطل بقاء النديم بالمنفى ، فقد توفى الخديو توفيق ليخلفه أبوه « عباس » ، فعفا عنه وسمح له بالعودة إلى مصر عام ١٨٩٢ .

وعاد النديم ليرى كل شيء في وطنه وقد تغير بفعل الاحتلال الذي كان قد مضى عليه عشر سنوات . لقد استسلم الجميع ، وران اليأس على القلوب ، ولكن الثائر العظيم لم يستسلم ولم ييأس . وكانت عودته بمشروطة بعدم اشتغاله بالسياسة ، فأنجبه إلى الشباب من الجيل الجديد ، يمث فيهم دعوته كلما لقيهم ، ويزودهم بنصائح . وفي منزل لطيف سليم باشا قابل « مصطفى كامل » الطالب الشاب المتحمس ، فتوسم فيه الخير ، وخصه بالعناية والتوجيه .

ثم أصدر النديم مجلة « الأستاذ » وحصل على الترخيص باسم أخيه عبدالفتاح وأعلن أنها جريدة علمية فكاهية تهذيبية لا تتعرض للسياسة .

وبدأ النديم ينقد العيوب الاجتماعية في مجلته الجديدة ، ثم تدرج فاتهم الأوربيين بتشجيع هذه العيوب حتى تنحل أخلاق الشرق . وانتشرت « الأستاذ » حتى أصبحت منافساً خطراً لجريدة « المقطم » التي كانت تحظى برعاية السلطات الإنجليزية والمصرية ، فأخذت « المقطم » تهاجم النديم وتتهمه بأنه يهدف بمقالاته الاجتماعية إلى غرض سياسي .

وبدأ صوت النديم يعلو شيئاً فشيئاً ، ويخوض في أحاديث السياسة صراحة
مناصرراً للخديو عباس ، مناهضاً للاحتلال . ثم أخذ ينقد السياسة البريطانية في مصر
والهند بصراحة وجراءة ، فطلب اللورد « كرومر » نفيه من البلاد ، فأجيب
إلى طلبه .

وودع عبد الله نديم قراءه في آخر عدد من « الأستاذ » دون أن يذكر
السبب الحقيقي ، وختم وداعه قائلا :

أودعكم والله يعلم أنني % أحب لفاكم والخلود إليكم
وما عن قلى كان الرحيل وإنما % دواع تعدت فالسلام عليكم
وخرج النديم إلى « يافا » في منتصف يونية ١٨٩٣ ، ثم أنهى به الأمر إلى
الأستانة حيث أمر السلطان عبد الحميد بتعيينه مفتشاً للمطبوعات بالباب العالي جريا
على سياسته في إرضاء أمثال جمال الدين الأفغانى والنديم من الناقمين الأحرار .
ودخل التأثير العظيم القفص الذهبي مع أستاذه القديم ، ليكون تحت أعين
جواسيس السلطان ، وليعيش حياة هادئة ، لا عزاء له فيها إلا صحبته الدائمة
للأفغانى .

ولكن هذه الحياة لم تطل ، فقد أصيب بالسل ، ومات في العاشر من
أكتوبر ١٨٩٦ وكان قد بلغ الرابعة والخمسين من عمره .

* * *

كان عبد الله نديم كاتباً اتجه إلى بساطة الأسلوب وسهولة التعبير في مقالاته
السياسية والاجتماعية ، وكانت له مؤلفات كثيرة ، فقد ذكر « أحمد سمير »
في ترجمته أن له من المؤلفات ما بعد بالمئات ، ولكن معظمها ضاع أثناء إختفائه
أو حجز بالأستانة . وكان شاعراً له ديوانا شعر يشتملان على أكثر من سبعة
آلاف بيت . وكانت له آراء قيمة في السياسة والاجتماع . وكانت له كلمات

يرسلها فتجرى أمثالا . ومن كلماته قوله :
« دولة بلا قانون فوضى وإن كثر الرعاة » .

وقوله :

« مملكة يسوسها غارق وفي الشهوات مقبرة تزار ولا تسكن » .

وقوله :

« إذا ساعدت الأجنبي على أخذ بلادك فلا تفضب إذا نام في فراشك . »

وقوله :

« إذا اختلفت الأحزاب فكن مع أحفظها لوطنك » .

ولكن عبد الله نديم كان قبل كل شيء ، وبعد كل شيء ، خطيباً عظيماً .

قال عنه أحمد تيمور باشا :

« كان شهى الحديث ، حلو الفكاهة ، إذا أوجز ود المحدث أنه لم يوجز

لقيته مرة في آخر إقاماته بمصر ، فرأيت رجلاً في ذكاء وإياس ، وفصاحة سحبان

وقبح الجاحظ ، أما شعره فأقل من نثره ، ونثره أقل من لسانه ، ولسانه الغاية

القصوى في عصرنا هذا .

مصطفى كامل

« أريد أن أوقف في مصر الهرمة مصر الفتاة »

مصطفى كامل

مصطفى كامل

شاب نحيل الجسم ، مشبوب العاطفة ، مضطرب الخيال ، يحلم بتحرير بلاده من الاحتلال الأجنبي ، فيهب وحده بغير حزب يؤيده ، أو جاه يسنده ، أو مال يعتمد عليه ، يصرخ في وجه أعظم امبراطورية لاتغيب الشمس عن أملاكها مطالباً بحقوق بلاده ، فيفوق مواطنوه في دهشة على هذا الصوت الذي ارتفع بينهم وكأنما هو صوت المؤذن يسرى في هدأة الفجر يوقظ النيام ، ويبعث في النفوس الأمل ، فتشتعل من جديد جذوة الوطنية في القلوب الهامدة ، ثم يقضى في عمر الزهور وقد بعث في قومه نهضة جديدة ، وترك وراءه حزبا فتيا يحمل رسالته ، وشعباً قوياً يطالب بحقه في الحرية والاستقلال .

ذلك هو الزعيم الشاب مصطفى كامل الذي ظهر في فترة مظلمة من أتعس فترات التاريخ المصري الحديث ، بعد فشل الثورة العربية واحتلال بريطانيا لمصر ، فكانت حياته القصيرة إرهاباً بهذا البعث الجديد لشعب كاد يدركه اليأس . وعندما مات مصطفى كامل في الرابعة والثلاثين من عمره ، كانت تربة مصر تحتضن البذور التي ألقاها وتعهدها بكفاحه الرائع ، لتنمو بعد ذلك وتتمخض عن ثورة الشعب الكبرى بعد أحد عشر عاماً من وفاته .

وإذا كنا نتحدث هنا عند مصطفى كامل الخطيب ، فذلك لأن الخطابة كانت وسيلة الكبرى لتحقيق رسالته الوطنية ، فقضى حياته يكتب ويخطب في مصر وأوروبا ، فهو بحق خطيب البعث الوطني الجديد الذي صنع الفجر الأول لتاريخ حركتنا الوطنية الحديثة .

ولد مصطفى كامل عام ١٨٧٤ ، وكان أبوه « على أفندي محمد » مهندساً

حربياً أحيل إلى المعاش ومصطفى في الثالثة من عمره . ويروى « على فهمى كامل » شقيق مصطفى كامل أن أباه كان يجمعهم مساء كل يوم ليسمر معهم فيروى لهم قصص التاريخ وسير الأبطال الفاتحين ، وكان أخوه الطفل « مصطفى » أكثرهم شغفا بسماع هذه السير .

وعندما بلغ « مصطفى » الثانية عشرة من عمره توفي أبوه ، فكفله أخوه الأكبر « حسين واصف » الذى أصبح بعد ذلك وزيراً للأشغال ، وأقام « مصطفى » في منزل جده لأمه ، وأكمل دراسته الابتدائية في مدرسة القرية ، ثم التحق بمدرسة « الخديوية » ليتلقى دراسته الثانوية .

وفي خلال دراسته الثانوية بدأت تظهر مواهبه الخطابية وميوله الوطنية ، فأنشأ « جمعية الصليبية الأدبية » نسبة إلى الحى الذى يسكنه ، وكانت تعقد اجتماعات أسبوعية يخطب فيها مصطفى كامل . ويقول على فهمى كامل : « كان يقف خطيباً في الجمعية في مساء كل جمعة مرتجلاً ما تملأ عليه البديهة الحاضرة فيملك الأسماع والقلوب . . »

وذهب على مبارك باشا ناظر المعارف لزيارة المدرسة الخديوية ، وسمع مصطفى كامل يتحدث ويخطب فأعجب به وقال له « إنك أمرؤ القيس »

وكان « مصطفى » شجاعاً شديد الاعتزاز بكرامته ، يتصرف في هذه السن المبكرة كرجل ناضج ، ويبتعد عن العبث المألوف ممن كان في مثل سنه ، ويشغل نفسه بالمسائل العامة ، ويتعمق دراسة تاريخ بلاده .

وعندما أتم « مصطفى » دراسته الثانوية وحصل على شهادة « البكالوريا » ، كتب إلى أخيه على فهمى الذى كان ضابطاً بالسودان يقول انه قرر أن

يدخل مدرسة الحقوق « لأنها مدرسة الكتابة والخطابة ومعرفة حقوق الأفراد والأمم ، وأنت تعلم أنني أميل إليها كثيرا ، وعزمت كذلك على تأسيس جمعية أسميها « جمعية إحياء الوطن » . . .

وفي أكتوبر عام ١٨٩١ دخل مصطفى كامل مدرسة الحقوق وهو في السابعة عشرة من عمره ، وهناك التقى بزميله فؤاد سليم وأصبحا صديقين . وصحبه فؤاد إلى منزل أبيه لطيف سليم باشا بسوق السلاح حيث كان يجتمع طائفة من أهل الرأي والفكر والأدب ، فكان يستمع إليهم « مصطفى » وهم يتدارسون أحوال البلاد ، ويفكر فيما يسمع ، ويشارك في الحديث .

وفي العام الثاني من دراسته بالحقوق ، التحق بالدراسة المسائية في مدرسة الحقوق الفرنسية ، فكان يجمع بين الدراستين ، وأصدر مجلة سماها « المدرسة » جعل شعارها عبارة « حبك مدرستك . . حبك أهلك ووطنك » ومضى ينشر في جريدتي الأهرام والمؤيد مقالات وطنية ، ويحضر الاجتماعات في ندوة لطيف باشا سليم . وفي خلال ذلك عاد عبد الله نديم خطيب الثورة العربية من منفاه عام ١٨٩٢ فانصل به مصطفى كامل ، وسمع منه أسرار الثورة العربية وأسباب فشلها ، وكان لهذه الأحاديث والتوجيهات أثرها في أسلوب كفاح مصطفى كامل بعد ذلك .

وإن الإنسان ليعجب وهو يطالع ما كتب عن سيرة مصطفى كامل وأحواله خلال سنوات الدراسة . ذلك أنه يلح كيف كان هذا الطالب يعد نفسه لدوره المقبل ، ويتهيأ لحمل رسالته الوطنية ، وكأنما يحركه وحى خفي يناديه ويهتف به أن قم . . فأبك أنت الزعيم المنتظر . . !

وعندما أفاق « مصطفى » في امتحان النقل إلى السنة الثالثة ، سافر إلى باريس ليكمل هناك دراسة الحقوق ، ثم سافر إلى تولوز لكي يؤدي الامتحان (م ١١ - خطباء)

النهائى مختصراً بذلك سنة أخرى من دراسته ، فحصل من جامعتها على أجازة الحقوق فى عام ١٨٩٤ .

وكتب على الفور إلى أخيه على فهمى يقول :

عولت بمشيئة الله على الانتظام فى سلك رجال المحاماة ، لأدافع عن حقوق الأفراد ، ولو أتيحت لى الخير ، وبلغت ما أتمنى ، لكنت المدافع عن حقوق الأمة بأسرها أمام العالم أجمع ، لأن مصر وهى جنة الدنيا ، لا تستحق أن يداس شرفها بالأقدام ، ونصبح فيها نحن أبناءها الأعرزاء ، ممقوتين غرباء . . . » .

ولكن مصطفى كامل لم يحترف المحاماة ، ولم يترافع فى قضية فرد أبداً ، وقرر منذ اللحظة الأولى أن يقف حياته كلها على الرافعة فى قضية واحدة ، هى قضية مصر .

ويروى أخوه على فهمى أنه عندما عاد إلى مصر أحضر معه صندوقين كبيرين مملوءين بالكتب والوثائق المتعلقة بالمسألة المصرية ، وأنه عكف على دراستها وتلخيصها وكأنه يستعد للرافعة فى قضية كبرى .

عندما نهض مصطفى كامل بزمالاته ، كان الاحتلال البريطانى قد مضى عليه أكثر من عشر سنوات ، وكان اليأس قد ران على النفوس بعد فشل الثورة العربية واستسلام زعمائها ، وانصرف الناس إلى رعاية مصالحهم الخاصة ، والتمس الكثيرون رضا المحتل ليضمنوا المنصب والجاه .

وكانت هناك مع ذلك قلة من أهل رأى تفكر فى الحالة التى وصات إليها البلاد ، ويجتمع بعضهم للتشاور وتبادل رأى . كان لطيف باشا سليم مثلاً

يرى كما يقول على فهمى كامل « إنه لا بد من تكوين حزب منظم يعمل لصالح البلاد ويدافع عن حقها وكرامتها . . . » .

ولكن هذا الحزب ظل فكرة تراود لطيف سليم وأصحابه ، واقتصرت جهودهم على الاجتماعات والندوات يعقدونها فى الغرف المقفلة ، وهى الندوات التى كان يحضرها مصطفى كامل منذ كان يدرس الحقوق ، ولا شك أن ماسمعه فيها كان له أثره فى تحديد اتجاهه وأسلوب كفاحه .

ويقول الأستاذ فتحى رضوان فى رسالته عن مصطفى كامل أنه يمكن تقسيم المصريين بعد محنة الاحتلال إلى ثلاث طوائف . طائفة كانت ترى المقاومة والنضال ولكنها كانت تتساءل كيف نقاوم ، وبماذا نقاوم . وطائفة ثانية اختارت الاستسلام وقبول الأمر الواقع والتعاون مع المحتل ، ويمثلها مصطفى فهمى ومحمد رياض . أما الطائفة الثالثة ، طائفة المعتدلين ، فكانت ترى من الخير أن نتوسط « فنصادق الأقوياء ونعلم منهم ونحاكيهم ثم ننافسهم عسانا نستعيد ما فقدنا . . . » . وكان الشيخ محمد عبده رمز هذه الطائفة . أما الطائفة الأولى ، طائفة المقاومة والنضال ، طائفة الفطرة السليمة ، والغريزة التى لم يفسدها اليأس فقد وجدت لسانها وقلبها فى مصطفى كامل . . . » .

والواقع أن مصطفى كامل لم يتردد فى اختيار طريقه ، فقرر أن يجهر بحق بلاده فى الحرية والاستقلال ، وأن يحول الأصوات الهامسة إلى زئير فى وجه الاحتلال وأن يطالب بريطانيا علناً وبأعلى صوت بالجلاء عن مصر ، وأن يقف حياته وجهوده كلها على تحقيق هذا الهدف العظيم .

ورأى أن السبيل إلى تحقيق ذلك تبدأ بمحاربة اليأس ، واستنهاض الهمم ونشر الدعوة الوطنية بين المصريين ؛ وتحريك أشواقهم إلى الحرية ، وإثارة

كبرياؤهم الوطنى ، وبت الإيمان فى نفوسهم بقدرتهم على نيل حقوقهم واستعادة أمجادهم . وبذلك يخلق رأيا وطنيا عاما يلتف حول مبادئه وينادى بها ويجاهد لتحقيقها

وكان يرى فى نفس الوقت أن ينشر الدعوة لقضية مصر فى الخارج ، وبذلك يشرح المسألة المصرية للرأى العام الأوروبى ، ويحمل الدول الأوربية على الاهتمام بها ومساعدة مصر على تحقيق أمانها المشروعة . وهكذا حدد مصطفى كامل طريقه وعرف دوره .

إنه دور الداعية للحركة الوطنية فى داخل بلاده وخارجها .

أما فى الداخل فقد كان عليه كما يقول الأستاذ فتحى رضوان أن يثير الروح الوطنى القائم ، وذلك بتثبيت العقيدة ، وتحريك الإيمان ، وبعث الثقة بالنفس وإيقاظ الأمل ، ثم مخاصمة العدو ، ومنازلته وعدم مسالمة أو مهادنته .

وأما فى الخارج فكان يهدف إلى بيان عدم شرعية الاحتلال ويريد أن يفضح كذب بريطانيا فى وعودها المتكررة بالجلاء ، ويثبت أحقية المصريين فى الحرية وجدارتهم بحكم أنفسهم ، ويوضح أن مصالح الدول المختلفة فى مصر تقضى عليها بمساعدة المصريين للتخلص من الاستعمار البريطانى .

وكانت الخطابة والكتابة وسيلته وعدته الكبرى فى الجهاد الشاق الذى وهب له حياته .

كان مصطفى كامل خطيبا موهوبا منذ صباه .

والخطابة موهبة طبيعية ، واستعداد فطرى ينمو ويصقل بالتجربة والممارسة والمران .

وقد روى أخوه على فهمى كامل فى كتابه أن نظارة المعارف أقامت حفلاً لتوزيع الجوائز على الطلبة المتقدمين عندما كان « مصطفى » تلميذاً فى مدرسة القرية الابتدائية ، وكان مصطفى هو الفائز بالجائزة من تلاميذ تلك المدرسة وحضر الخديو توفيق حفل توزيع الجوائز فلما جاء دور مصطفى لتسلم جائزته ، ألقى خطبة أثارت تصفيق الحاضرين وإعجاب الخديو الذى سأله عن اسمه فأجابته :

اسمى مصطفى كامل .

فهمس فى أذنه ضابط المدرسة :

— قل عبد سموكم مصطفى كامل .

ولكن مصطفى أعرض عنه ، وسأله الخديو عن عمره ، ثم عن اسم أبيه فقال :

— المرحوم على أفندى محمد المهندس .

فعاد الضابط المذعور يهمس فى أذنه :

— قل عبد سموكم . . .

ولكن الصبي لم يفعل ، وقال له الخديو :

— ففتح الله عليك .

— شكراً للأمير المعظم .

وبعد انتهاء الحفل قال مصطفى للضابط :

— ما كنت عبداً وما كان أبى عبداً لأحد ، ولو أجبت بغير الواقع

لكنت كاذباً . .

وهذه القصة تبين أن مصطفى لم يكن منذ ضباه الباكر يهاب مواجهة الجموع والتحدث إليها ، فما بالك بمواجهة أمير البلاد في حفل عام ، والتحدث إليه بشجاعة تأبى النفاق وتتم عن اعتزاز بالنفس وتمسك بالكبرياء .

وفي المدرسة الثانوية أنشأ مصطفى كامل « جمعية الصليبية الأدبية » وكان يخطب في اجتماعاتها الأسبوعية وفي غيرها من الجمعيات . ولا شك أن نشاطه الخطابي في هذه الجمعيات قد أفاده ، وهياً له الممارسة العملية لمواهبه ، وأكده ثقته في نفسه كخطيب .

ومما يروى أن على مبارك باشا ناظر المعارف زار المدرسه الخديوية ودخل فصل مصطفى ، وطلب من المدرس أن يدلّه على أقدر التلاميذ في كتابة الإنشاء فأشار إلى مصطفى كامل ، فطلب منه الوزير أن يرتجل خطبة فيما يريد أن يصنع بعد نيله شهادة الدراسة الثانوية ، فوقف مصطفى وارْتجل كلمة ، كان مما قاله فيها :

— ولقد علمت من أحاديث المرحوم أبي ، ودروس أستاذنا الفاضل معلم التاريخ ، أن أعظم الرجال شأنًا من يحرر بلاده وينقذ أمته من ربقة الذل والاستعباد ، وسوف أحاول أن أكون ذلك الحرر الذي يخطب ويكتب ويضرب الأمثال ، مبشراً بما في الحرية من العزة والحياة ، ومنذراً بما في الذل من الموت والصغار ، وأرجو الله تعالت حكمته ، وجلت قدرته ، أن يوفقني إلى ذلك . . .

هذه هي إرهاصات الزعامة وبشائر الخطيب الكبير .

تلميذ في المدرسة الثانوية يسأله الوزير عن المهنة التي يريد اختيارها بعد انتهاء دراسته ، فلا يفكر في اختيار مهنة الطب أو الهندسة أو المحاماة ،

ولكنه يقول بداهة إنه يريد أن يكون المحرر لبلاده من الاستبعاد .. اويقول
الأستاذ عبد الرحمن الراجحي :

— يجدر بنا أن نتساءل من أين جاءت مصطفى كامل هذه الروح الوطنية في
عصر اكتنفته عوامل اليأس والتقنوط ، وكيف نهض وحده وهو في هذه
السن المبكرة ؟ لا تعليل لهذه النشأة إلا أنها قبس من نور العبقريّة ، وقد أجهت
هذه العبقريّة إلى إحياء الوطن ، وبعث الحركة القومية من مرقدّها ، ومن
مداد هذه العبقريّة خط التاريخ دورا عظيما من أدوارها ، وكان مصطفى منشئ
هذا الدور ، إذ نفخ في الأمة من روحه ... الخ

وفي مدرسة الحقوق انفسح أمامه مجال الكتابة والخطابة ، فكان ينشر
المقالات في جريدتي الأهرام والمؤيد ، وأنشأ مجلة « المدرسة » ، ومارس نشاطه
الخطابي في الجمعيات التي كان على صلة بها ، وفي مدرسة الحقوق التي كان من
زعمائها . ولما زار الخديو عباس الثاني المدرسة خطب أمامه وألقى قصيدة من
نظمه . وقد رأينا كيف سلبح نفسه بعد عودته من فرنسا بدراسة الكتب
والوثائق التي تتعلق بالقضية التي وهب حياته للدفاع عنها ، واستكمل بذلك
عدته كخطيب . فأى نوع من الخطباء كان مصطفى كامل ؟

إن الذين كتبوا عنه من مؤرخيه أو معاصريه الذين سمعوه على المنبر لم
يهتموا كثيراً بتحديد شخصيته وملاحمة الخطابية ، ولم يصفوه إلا بعبارات عامة
مبهمة تدل على إعجابهم ولكنها لا تكفي لأعطاء صورة حية لمصطفى كامل على
المنبر . قال الأستاذ عبد الرحمن الراجحي في كتابه :

— هو أعظم خطيب أنجبته مصر الحديثة ، وأول خطيب سياسي جهر
بالاستقلال في عهد الاحتلال ، وأول زعيم اتخذ الخطابة وسيلة لبعث الحركة

الوطنية، ولا شك أن الحركة الوطنية مدينة لخطبه الجلييلة الرائعة بتطورها واتساع مداها، وكانت هذه الخطب من الحوادث الهامة في تاريخ الحركة القومية . كان خطيباً مفوهاً يجيد الخطابة باللغتين العربية والفرنسية . والخطابة بعد الوطنية، كانت أبرز الجوانب في شخصيته . كان إذا جلس في محفل وتكلم مع الحاضرين يدوى صوته كأنه يلقي على السامعين خطبة من خطبه الرنانة ، وكان جهورى الصوت يتكلم من أعماق قلبه المملوء يقيناً وإيماناً ، وكان له سلطان روحى على من حوله من السامعين . «

ويقول الأستاذ فتحى رضوان :

— لقد أتاح الله لمصطفى كامل خيالا ولسانا وقلماً وهمة جعلته الداعية القوى للوطنية المصرية في أوائل القرن العشرين .

وكتب الأستاذ محمد مسعود فى الكلمة التى قدم بها كتاب «مصر والاحتلال الإنجليزى» الذى نشر فى عام ١٨٩٦ وكان يضم أعمال مصطفى كامل وخطبه ومقالاته وأحاديثه فى العام الأول من جهاده :

— إذا ارتقى المنبر ذلل له القول ، وسخر له الخطاب ، وتابعه الكلام متفق القرائن ، مطرد السياق ، حتى يستميل إليه القلوب النافرة ، ويرد الأهواء الشاردة .

والواقع أن مصطفى كامل كان يملك كل ما يحتاج إليه الخطيب العظيم .

شاب متوسط القامة ، رشيق القوام ، بهى الطلعة ، له وجه نبيل يوحى بالثقة ، وعيضان جميلتان تفيضان بالحياة ، ينبعث منهما بريق هادىء يجذبك إليه ، وشارب طويل رقيق مفتول الطرفين كأنه علامة مميزة تشير إلى أن لصاحبه من الرجولة والنضج ما يعلو سنه . لا تكاد تجلس إليه حتى تشعر أنك

أمام شخص صريح مستقيم الخلق ، واثق بنفسه في غير غرور ، يتقد ذكاء وكبرياء .

وصوت قوى له جرس ورنين ، واضح الذبرات ، فيه عذوبة ورقة ، يعرف كيف يلونه عند الخطابة . كان يبدأ كلامه بصوت هادئ فيستريح الانتباه وتعلق الأسماع بشفتيه ، ثم يرتفع شيئاً فشيئاً حتى تغمر نبراته الحلوة الرنانة أرجاء المكان .

وصفته إحدى الصحف الأجنبية التي كانت تصدر بالإسكندرية وهي تعلق على خطاب ألقاه عام ١٨٩٧ بمسرح زينينيا فقالت :

— أما صوته فحسن جهوري ، ذورنة قوية ، ولذلك كان يسمع من كل أرجاء المسرح ، حتى استطاع كل من كان حاضراً ضمن هذا الجمع الحاشد أن يستوعب كل أقوال الخطيب ، التي كان يلقاها بعبارات فصيحة خالية من شوائب التعقيد . »

وكان مصطفى كامل أنيق الملبس ، حسن الهندام ، وكان من عادته إذا ذهب للخطابة في اجتماع كبير من الاجتماعات التي كان يدعو إليها في المسارح وغيرها ، أن يرتدي « الردنجوت » فكانت أناقته تؤكد مظهره الوسيم النبيل .

ولقد قيل إن مصطفى كامل لم يكن يرتجل خطبه ، والواقع أنه كان خطيباً مطبوعاً قديراً على الارتجال ، وله خطب مرتجلة في مناسبات كثيرة ، ارتجلها بالعربية والفرنسية تؤكد أصالته الخطابية .

ولكنه في المناسبات الكبرى ، عندما كان يدعو لعقد اجتماع لسماع إحدى خطبه ، كان يكتب خطبته كاملة ، ثم يستوعبها في ذاكرته القوية ، حتى إذا وقف على المنبر كان مالمالكاً لعناصر الموضوع ، مطمئناً إلى المرجع أمامه ، ثم ينطلق في خطبته لا يكاد يعود إلى الورق الذي أعده ، تسعفه

ذاكرته المدهشة ، وطبعه الفياض ، ووضوح الفكرة في نفسه ، وقدرته الفائقة على التعبير .

وكان يخطب بأعصاب هادئة ، ويؤكد كلامه أحيانا بالأشارة الرشيقة ، ولم يكن مع ذلك كثير الحركة على المنبر ، وإنما هي يده يرفعها أو ينزل بها مشيراً بسبابته في موضع التوكيد .

أما أسلوبه الخطابي فكان أسلوباً قوياً متدفقا خاليا من زخارف الصنعة اللفظية . فأنت تقرأ خطب مصطفى كامل فلا تجد فيها سجعة مفقعة أو عبارة طنانة مبتذلة ، وهي مع ذلك نموذج رائع لما يمكن أن يقوله الخطيب في مثل ظروفه . كان يحاول بعث الروح الوطنى ، وتعميق الشعور بحب مصر ، وتجميع الجهود لنوع من الثورة السلمية تطالب بالجلاء وتسمى لتحقيقه بالطرق المشروعة . كان يحاول ذلك في مواجهة قوى عاتية تتربض به ، وتحاول النيل منه وتشويه حركته وإتهامه بالتعصب الدينى والتحريض على كراهية الأجانب وإثارة الفتنة والسعى لتكرار مأساة الثورة العرابية .

ولهذا كان عليه أن يتكلم في خطبه بحماسة الزعيم وكياسة السياسى الحذر، فلا يطلق العنان للعبارات الحماسية الجامحة ، بل يحكم لسانه بعقله الذكى ووعيه المسئول .

وليس معنى هذا أنه كان يخشى مواجهة الاحتلال بصراحة ، فقد كان يفعل ذلك بشجاعة لا تهاب شيئا ، ولكنه كان يتحرز أن يتمسك عليه أعداؤه بشيء سيئون به إلى الحركة الوطنية التى يتزعمها .

وكانت خطبه سهلة خالية من التعقيد لأنها صادرة من قلب يؤمن بما يقول فتجد طريقها مباشرة إلى قلوب سامعيه ، حاملة الحجة الدامغة ، والمنطق السليم ، والشعور الصادق .

وبنفس هذا الأسلوب البليغ كان يخطب بالفرنسية التي أتقنها فينتزع إعجاب من يسمعه من الأجانب في مصر وأوربا .

* * *

ومهما حاولنا أن ننقل شيئاً من مواقف مصطفى كامل الخطابية ، فلن نستطيع أن ننقل للقارئ تلك الحياة الزاخرة التي كانت تنبعث منها وهو يلقها أمام جمهوره ، ولسوف تظل مجرد كلمات جامدة على الورق بعد أن فقدت تلك الذبذبات الرنانة التي كانت تبهر ، والنعيمات الحلوة التي كانت تسحر ، والنظرات التي كانت تشع نارا ونورا ، وبعد أن سقط حجاب الزمن بيننا وبين الخطيب ومنصته ، والزعيم وحماسته ، ولم يبق لنا إلا النصوص تتراءى من خلال سطورها أطيا ف شاحبة لمظاهر عظمة الخطيب .

لم يكد مصطفى كامل ينتهى من دراسته بفرنسا حتى تفرغ على الفور لرسالته الوطنية الكبرى ، فعاد إلى فرنسا في العام التالى ليدعو لقضية بلاده في الخارج ، وقدم عريضته المصورة الشهيرة إلى مجلس النواب الفرنسى ، وأدلى بحديث سياسى إلى جريدة « الجورنال » ، ثم عقد اجتماعاً في جامعة تولوز وألقى خطبة بالفرنسية شرح فيها قضية مصر وإعتداء بريطانيا عليها وعودها المتكررة بالجللاء ، وطالب فرنسا ودول أوربا بمساعدة بلاده لاسترداد استقلالها ، ثم نشر رسالة ضافية عن « أخطار الاحتلال البريطانى » .

وسمى مصطفى كامل إلى التعرف بمدام جوليت آدم ، فكتب لها رسالة جاء فيها :

— إننى لا أزال صغيراً ، ولكن لى آمالاً كباراً ، فأنى أريد أن أوقظ فى مصر الهرمة مصر الفتاة . هم يقولون إن وطنى لا وجود له ، وأنا أقول

ياسيدتى إنه موجود ، وأشعر بوجوده بما آنس له فى نفسى من الحب الشديد
الذى سوف يتغلب على كل حب سواه ، وسأجود فى سبيله بجميع قواى ،
وأفديه بشبابى ، وأجعل حياتى وفقاً عليه »

يا لها من رسالة تلخص برنامج مصطفى كامل وحياته كلها . . .

إنه يريد أن يوقظ فى مصر الهرمة مصر الفتاة .

وسوف يجود بقواه كلها فى سبيل وطنه ويفديه بشبابه ، هذا الوطن
الذى يحبه حباً شديداً سوف يتغلب على كل حب سواه .

وقد بر مصطفى بوعدده ، ووفى بعهده ، فوقف حياته كلها على الجهاد
لبعث وطنه ، وطوى قلبه على حب مصر وحدها ، وعاش بغير زوجة تخفف
عنه متاعب الكفاح ، ثم سقط كما يسقط الجندى فى الميدان فذهب شهيداً فى
عمر الزهور .

كانت خطبه التى يلقيها فى مصر تهدف إلى تحقيق أغراض كثيرة . كان
يريد أن يوقظ فى قلوب مواطنيه حب بلادهم حتى يتعلقوا بها ويجاهدوا
لتخليصها من ذل الاحتلال . فهو يقول فى أول خطبة سياسية له بمصر ،
ألقاها فى ٣ مارس ١٨٩٦ بالمرح العباسى بالأسكندرية :

— ألا تحبون مصر التى خيم عليها الشقاء ، وحل بها البلاء ، تناديكم وأنتم
حولها « ألا فانصرونى يا أعز البنين ، ألا فارفعوا شأنى بين الأمم ، واجعلوا
لى مكاناً فسيحاً بين الشعوب الحية » . أجل .. إنكم تحبونها ، ويجب أن تحبوها
وتحنوا عندها كما يحنو المرء على أمه إذا أعتلت ، ويسعى فى خدمتها ويبعث
عن دوائها .

ولا يكن حبكم وقفاً عند الحب ، بل لتتجاوزوا ذلك إلى العمل لخيرها
واعلاء شأنها .

وإن يوماً تجتمع فيه قلوبنا على محبة بلادنا وخدمتها ، لهو يوم تحقيق الأمل ،
وعندئذ يحق لنا أن نقف أمام الأمم كافة وننادى بأعلى صوتنا وبكل فخر :
نحن بنو مصر الأحرار .

وفي خطبة أخرى له يتحدث عن مصر حديث العاشق الولهان فيقول :

— يقول الجهلاء إني متهور في حبها ، وهل يستطيع مصرى أن يتهور
في حب مصر ؟ إنه مهما أحبها فلن يبلغ الدرجة التي يدعو إليها جمالها وجلالها
وتاريخها والعظمة اللائقة بها .

ألا أيها اللأمون أنظروها وتأملوها وطوفوا بها ، واقرأوا صحف ماضيها
وأسألوا الزائرين لها من أطراف الأرض ، — هل خلق الله وطناً أعلى مقاماً ،
وأسمى شأنًا ، وأجمل طبيعة ، وأجل آثاراً ، وأغنى تربة ، وأصفى سماء ، وأعذب
ماء ، وأدعى للحب والشغف من هذا الوطن العزيز ؟ أسألوا العالم كله يجبكم
بصوت واحد إن مصر جنة الدنيا ، وإن شعباً يسكنها ويتوارثها لأكرم
الشعوب إذا أعزها ، وأكبرها جناية عليها وعلى نفسه إذا تسامح في حقها .

إني لو لم أولد مصرياً لوددت أن أكون مصرياً .

قد يرى السفهاء أن الانتساب لشعب مستعبد كالشعب المصرى مما
لا يليق بإنسان ! ولكن أى شرف يطمع الحر فيه أكبر من العمل لأحياء
الأمة التي سبقت الأمم كافة في العلم والمدنية والأدب ؟ أى رفعة يسعى الشريف
إليها أسمى من إنهاض شعب كان أستاذاً لشعوب البشرية ؟ أى سؤدد « ترمى
النفوس إليه أعلى من إخراج وطننا المصرى من الظلمات إلى النور وإحلاله
الحل الأول بين الأوطان الأخرى التي كانت في الدجّة الحالكه يوم كانت

بلادنا مشرقا للعرفان ؟ .

وفي الاحتفال بمرور مائة عام على ولاية « محمد علي » يقول من
خطبة طويلة :

— صبراً أيها الوطن المحبوب على بلواك ! فما ازدحم بفوك اليوم إلا
لينشدوا أكبر العصور وأعظم الأيام، ويجمعوا أمرهم بينهم على إحيائها بالجد
والعمل والوفاء والوثام . صبراً أيها الوطن العزيز صبراً ، فقد ناجت الضمائر
الضائرة وتفاهمت النفوس والخواطر ، وشعر كل مصري بأنه الوارث لأفضل
الأوطان وأعز البلدان .

ثم يقول مذكراً مواطنيه بالأعجاد الحربية التي حققها أجدادهم بقيادة
إبراهيم باشا :

— ما هذا المجد الفخيم الذي يمد لنا عنه التاريخ ؟ أين ذلك المصري الذي
كان إذا جاب المدائن والممالك تحولت عن غيره الأنظار والتفتت إليه الشعوب
بعميoun الأعجاب والاعتبار ؟

أين ذلك الذي إذا فاخر القوم ببلادهم أعطى المقام الأول ونال الشرف
الأعلى وعد وطنه في مقدمة الأوطان ، ومصره في الصف الأول من مصاف
الأمصار والبلدان .

أين عصر نقل عنه النافلون أن الدول غدرت بمصر وأحرقت أسطولها في
« نافرين » وأغرقت من بحارتها البواسل ستة آلاف ، وتقدم ضابط فرنسي
بالخبر إلى إبراهيم باشا ، فمز رأسه ساخراً وقال « ما أنشئت السفن والبواخر
إلا لتكون فريسة النار أو البحار ، فلست بأسف عليها ، وإن والدي لقادر على
على أن يحدد مثلها في عام أو بعض عام »

أين ذلك العهد البعيد ليتعزى به المصري الحزين الأسيف ؟

أين هو ليبعث في القلوب الميته شيئاً من الحياة والقوة ، ويدل المصري على حقيقة موقفه وقيمه ومكانته .

أين هو ليخطب فيكم بلسان الحال ، فيبلغ من نفوسكم مالا يبلغه لسان المقال .

ثم مضى مصطفى كامل يحارب اليأس في خطبه ، ويعمل على أن تثق الأمة بنفسها وبقدرتها على تحقيق آمالها في الحرية والاستقلال . وكان يقول :

— إن ثقة الأمة بنفسها هي الأساس الذي يبنى عليه مجدها ويشاد عزها وسؤدها . ترى الأمة إذا اعتقدت الخير والقدرة في مجموعها وأفرادها تغلبت على الحوادث والأيام ، وقهرت الأعداء ، وأجتازت المصاعب غير هيابة ولا وجلّة .

وكان شعاره الذي أطلقه في هذا الشأن :

— لا حياة مع اليأس ولا يأس مع الحياة .

ويقول في إحدى خطبه :

— عجباً وألف مرة عجباً ! كيف تسمى الظن بنفسها أمة تغلبت على الأيام والحوادث ، وقانلت الليالي وما ولدت ، وقاومت تيارات الزمان أجيالاً طوالاً ، وأوقفتها وهي في منتهى قوتها . كيف يقول بعض أبناء هذه الأمة عنها إنها ماتت وزالت أثارها وأصبحت نسياً منسياً وهي التي اهتز لمجدها الشرق والغرب ، وسارت الركبان بأحاديث مفاخرها . كيف يقضى اليائسون عليها وقد كانت قبل عهد محمد على أكثر أدواء وأقل أملاً في الشفاء من الآن ثم عادت لها الحياة والقوة والجاه والعز ورفعة الشأن .

وفي أول خطبة له بالأسكندرية قال :

— إن في مصر فئة من الناس نسيت أن الأمل داعي الأمل ، فلبست

ثياب اليأس ، وقضت بظنونها على مستقبل الوطن العزيز ، وجعلت مهمتها في الأمة تشبيط المهمل وإقعاد العزائم ، فلا تنادى في المحافل والأندية إلا بأنه ليس لمصر حظ في المستقبل من الحرية والسعادة الاجتماعية ، وأن شعبها قد مات من زمن طويل .

وعندى أن الرجال اليائسين وإن كانوا أقل من القليل يضرون بلادهم أعظم الضرر ، إذ أن قتل المواطنين الشريفة ، وإخماد نار الغيرة الوطنية هما أكبر جنابة على الوطن وأهله . فلنترك هؤلاء اليائسين في سفن يأسهم تصعدهم أمواج الأفكار وتهبط بهم حتى يصل بهم إلى شاطئ الخير والرفاهية فنذكرهم عندئذ بفساد مزاعمهم وخطأ آرائهم .

ويقول في إحدى خطبه الأخيرة :

— إن العامل الواثق من النجاح يرى النجاح أمامه كأنه أمر واقع ، ونحن نرى من الآن هذا الاستقلال المصري ونبتهج به وندعو له كأنه حقيقة ثابتة ، وسيكون كذلك لا محالة . فلهما تعددت الآمال وتعاقبت الأيام ، وأتى بعد الشروق شروق ، وأعقب الغروب غروب ، فأنا لا نمل ولا نقف في الطريق ولا نقول أبداً : لقد طال الانتظار .

إننا وجهنا قلوبنا ونفوسنا وقوانا وأعمارنا إلى أشرف غاية اتجهت إليها الأمم في ماضى الأيام وحاضرها ، فلا الدسائس تخيفنا ولا التهديدات تقفنا في طريقنا ، ولا الشتائم تؤثر فينا ، ولا الخيانات تزعجنا ، ولا الموت نفسه يحول بيننا وبين هذه الغاية التي تصغر بجانبها كل غاية .

نعم . . . إننا لو تخطفنا الموت من هذه الديار واحداً بعد واحد ، لكانت آخر كلماتنا لمن بعدنا « كونوا أسعد حظاً منا ، وليبارك الله فيكم ويجعل الفوز على أيديكم ، ويخرج من الجماهير المئات والألوف بدل الأحاد للمطالبة بالحقوق

الوطني والحرية الأهلية والاستقلال المقدس .

بلادى . . بلادى . . لك حبي وفؤادى ، لك حياتى ووجودى ، لك
روحى ونفسى ، لك عقلى ولسانى ، لك لبي وجنانى ، فأنت أنت الحياة
ولا حياة إلا بك يا مصر .

* * *

وكان على مصطفى كامل أن يوجه الشعور الوطني الذى أخذ يتنبه وينمو
إلى مخاصمة الاحتلال ومقاومته ، فأخذ يهاجمه فى خطبه ويدلل على عدم
مشروعيته ويعدد مساوئه ، ويفقد المزاعم القائلة بأنه أفاد البلاد وأنقذها من
الفوضى والفساد . ولم يكن هذا بالأمر الهين فى تلك الظروف التى كانت
الجنود البريطانية فيها تحتل البلاد ، واللورد كرومر هو الحاكم الفعلى ، والموظفون
الإنجليز يسيطرون على المرافق والوظائف الكبرى ، والوزارة المصرية تنفذ
أوامرهم فى استسلام كامل ، والانتهازيون يتملقون المحتل ليظفروا منه بالجاء
والمنصب . فكان على مصطفى كامل أن يستل الخوف من القلوب ويثبت فيها
الشجاعة حتى تنبض بروح المقاومة ، وذلك بغير أن يدفع بها إلى عنف لم
تهيأ لها وسائله . ولهذا كانت خطب مصطفى كامل فى هذا الشأن « مزيجا
عجيبا جداً من الحماسة والاعتدال ، كما أنها جمعت بحذق ومهارة بين مخاصمة
الإنجليز وتأليب المصريين على احتلالهم وبين البعد عن الألفاظ الحماسية الرخيصة
الجوفاء » كما يقول الاستاذ فتحى رضوان فى كتابه الصغير القيم عن مصطفى كامل

وقد بدأ مصطفى كامل كفاحه الرائع ضد الاحتلال بحركة سياسية بارعة
فكتب رسالة إلى « جلادستون » زعيم الأحرار الذى كان رئيساً للوزارة
البريطانية عند وقوع الاحتلال والذى ألقى تصريحات سابقة أمام مجلس العموم
أعلن فيها أن الاحتلال إجراء مؤقت وأن بريطانيا تبحث عن وسيلة للخروج
من مصر بشرف . وجاءه رد « جلادستون » فى يناير ١٨٩٦ متضمنا قول
(م ١٢ — خطباء)

الزعيم البريطاني الذي كان قد تخلى عن الحكم « إن زمن الجلاء على ما أعلم قد وافى منذ سنين . »

ونشر مصطفى كامل الرسالتين في مصر وأوربا فكان لهما صدى عميق في الدوائر السياسية والوطنية .

وفي خطبته السياسية الأولى بالاسكندرية دعا المواطنين إلى نبذ العنف والتمسك بالحكمة والاعتدال، وأطلق شعاره المعروف « أحرار في بلادنا كرماء لضيوفنا . . » وقال إنه ليس من غرضه أن ينفذ بالأمة الإنجليزية « لأنى أترفع عن أن أدافع عن بلادى بالطعن والسباب ، فضلا عما أحس به دائما من وجوب احترام الشعب الانجليزى » وقال :

— إن الخلاف بيننا وبين الانجليز هو : هل زمن الجلاء عن مصر قد حان أو لم يحن ، فدول أوربا ذوات المصالح في مصر تقول معنا إن زمن الجلاء قد حان منذ أعوام ، والمستر جلادستون زعيم الأحرار وأكبر سياسى إنجليزى يقول ذلك أيضا . . .

ومضى يقول

— وإلا فهل يرضى أبناء إنجلترا أن يستعمل شرفهم آلة دنيئة لامتلاك بلاد حرة واستعباد أمة حرة ؟ وهل ترضى الأمة البريطانية الغيورة على مقامها واحترامها أن يقال عنها إنها لا شرف لها ولا احترام لكلماتها العلنية وعهودها الصريحة ؟

وفي نهاية الخطبة طلب مصطفى كامل من الحاضرين أن يرفعوا أيديهم إذا كانوا يوافقونه على مطالبة بريطانيا بالجلاء ، فرفع الجميع أيديهم فى حماسة بالغة وكتبت جريدة « المؤيد » تقول :

— إنها الخطبة الأولى التى أقدم على إلقائها شاب مصرى غيور ، عرف

واجب الوطن وضرورة التفانى في حبه المقدس بعد أن مر على الاحتلال الأجنبي أربعة عشر عاماً . ولقد استهوى الخطيب المسامع بحسن إلقائه وبلاغته منطقه وغزارة مادته ولطيف اعتداله .

وكان لهذه الخطبة دوى عظيم في الاسكندرية ، تردد صدها في أرجاء مصر وظهر تأثيرها في نفوس المواطنين يوم عودته من الاسكندرية إلى القاهرة ، فكان توديعه بالحطة مظاهرة وطنية اشترك فيها جمع حاشد من الناس يتقدمهم أعيان الثغر ، وقدموا لمصطفى كامل وساما من الفضة ، وأمطروه بالأزهار ، وهتفوا له عندما تحرك به القطار .

وأدركت سلطات الاحتلال خطر مصطفى كامل ودعوته إذا انتشرت ، وأرادت إرهابه والانتقام منه ، فدبرت محاكمة عسكرية لأخيه على فهمي كامل الضابط بالجيش عن تهمة وهمية ، وحكم بانزله إلى رتبة نفر . ثم دبروا مؤامرة أخرى لتجنيد مصطفى كامل حتى تسكت صوته ، ولكنه أحبط المؤامرة ، كما استطاع أن يحصل من الخديو على أمر بالعفو عن أخيه .

وخطب مصطفى في مسرح زيزنيا بالاسكندرية في اجتماع ضم أعضاء الجاليات الأوربية ، خطبة بالفرنسية ، كان مما قاله فيها :

— إذا كانوا يحسبون أنهم أوقفوني إلى الأبد ، إذ يظنون بسداجة لامثيل لها أن الظلم الذي أوقعوه أخيراً بأحد أخوتي يضعف قواي أو يوهن عزيمتي أو يقلل من جهادي في سبيل سعادة بلادي ، فقد أخطأ ظنهم وخاب سعيهم ، لأن الضعف لن يعرف طريقه إلى نفسي ، وسوف استمر في الدفاع عن وطني العزيز بكل مالى من قوة ، وسوف أمضى في شرح قضية مصر ووصف آلامها والمناداة في كل مكان بحقوقها المقدسة ، والمطالبة بحريتها واستقلالها ، ولن يوقفني عن ذلك إلا الموت .

ثم شرح في خطبته قضية الجلاء والسودان ، وكيف أن ما يطالب به لا يتعارض مع مصالح الأجانب بل يعزز هذه المصالح وقال :

— إننى أعلم جيداً أيها السادة أنكم تؤيدون الجلاء ، لأن ذلك يتفق مع مبادئ العدالة والشرف الدولى من جهة ، ولأن مصالحكم تقضى به من ناحية أخرى . أجل . . إن من مصالح الأوربيين النازلين فى مصر أن يتحقق الجلاء ، لأنه إذا صارت إنجلترا مالكة لمصر فإن حياة الأوربيين على ضفاف النيل تصبح مستحيلة ، ذلك أن إنجلترا سوف تضع يدها على كل شىء ، ولا تترك لغيرها شيئاً ، وتدعى عندئذ أنها الوكيله الوحيدة للمدنية فى وادى النيل متجاهلة مصالحكم أنتم وكلاء المدنية الأوربية فى العلوم والفنون ، كما أنكم وكلاؤها فى التجارة والصناعة .

ومضى مصطفى كامل يشدد حملته على الاحتلال ، وأخذ يحجوب البلاد شرقاً وغرباً ، متنقلاً بين عواصم أوروبا ، يكتب ويخطب ، ويعقد المؤتمرات ، ويدلى بالأحاديث ، ولا يترك فرصة إلا انتهزها رافعاً صوته بدعوته .

وكم أرهاق جسمه الفتحيل بالعمل المتواصل ، ولم تكن المصاعب والعقبات تثنيه عن طريقه أو تضعف من عزيمته ، بل كانت تزيد إيمانه وإصراره .

فى عام ١٨٩٨ وقعت حادثة « فاشودة » عندما تقدم الكابتن الفرنسى « مارشان » على رأس حملة صغيرة واحتل هذا الموقع الفرنسى الهام فى السودان ورفع عليه العلم الفرنسى . وفهم المصريون أن فرنسا تهدف بذلك الى صد التيار الانجليزى فى قلب أفريقيا وفتح باب المسألة المصرية حتى تضطر إنجلترا

لتنفيذ وعودها بالجلاء . ولكن أممهم خاب عندما أسرع
« ككتشنر » واضطر « مارشان » الى اخلاء الموقع فانسحب ونفضت فرنسا
يديها من الأمر كله .

كان هذا الحادث صدمة للحركة الوطنية ، وكتبت مدام جوليت آدم
تقول عنها .

— « فاشودة . . . إنها الضربة القاضية ! إن غير واحد من سياسة
فرنسا قد أفهم الخديو والوطنيين المصريين أن فرنسا ستدخل لصالح مصر
سريعاً وبصفة حاسمة ، وقالوا لهم إن بعثة « مارشان » هي الحاملة
لراية استقلال مصر ، فصاروا جميعاً يعتقدون أن تحرير وطنهم سيأتى
من السودان ، ولكن حادثة فاشوده قضت على آمال الوطنيين المصريين . .

وهب مصطفى كامل يحارب موجة اليأس الجديدة ويقول :

— اننا لم نياس ولن نياس أبداً من مستقبل الوطن العزيز . فإننا
نعلم علم اليقين أن مصر مقبرة للامم الطاغية ، ونعرف أن حظ انجلترا
فيها سيكون كحظ الدول التي سبقتها . ولكننا اذا كنا غير يائسين
من مستقبل بلادنا ، فإننا يائسون من أى تعصيد يأتينا من أوروبا ،
وأصبحنا نوجه هممتنا ونشاطنا لتعليم الأمة وتربيتها بإنشاء المدارس حيث ينشأ
الشباب على أشرف مبادئ الوطنية . . »

وهكذا أدرك الزعيم الشاب أن مصر يجب أن تعتمد على جهود أبنائها
وجهدهم اذا أرادت أن تظفر بالاستقلال ، وأن الكفاح لتحقيق هذه الغاية
سوف يطول ، فاندفع بكل قواه يمد الحركة الوطنية بمزيد من الجهد والعمل
ويطارد شبح اليأس ، ويرسم طريق العمل البناء فى احدى خطابه :

— ما هذا السم القاتل الذى تناولته الأمة عن طيب خاطر ؟ ما هذا البلاء المدمر الذى حل بالبلاد وتساقط على رؤوس أهلها وهم إليه ناظرون ؟ كيف تنسى هذه الأمة العزيزة أنها هى التى فتحت وقهرت وضربت وانتصرت وبهرت العالمين بقدرتها وشدة بأسها ؟ ! لا ريب أن أصل هذا البلاء وجرثومة ذلك الداء إهمال أمر التربية الوطنية ...

ودعا مصطفى كامل إلى إنشاء المدارس الحرة التى تنشر التعليم القومى ، فأنشئت أول مدرسة تحمل اسمه فى عام ١٨٩٩ .

ثم رأى أن تكون له صحيفة يومية وطنية يتصل عن طريقها بالرأى العام ، فتكون له بمثابة منبر دائم يلقي منه آياته الوطنية ، وهكذا صدر العدد الأول من جريدة « اللواء » فى ٢ يناير ١٩٠٠ .

وعندما أبرمت إنجلترا وفرنسا « الاتفاق الودى » فى عام ١٩٠٤ وقد جاء فيه أن إنجلترا « ليس فى نيتها تغيير الحالة السياسية فى مصر » ، وتعهدت الحكومة الفرنسية من جانبها « ألا تعرقل عمل إنجلترا فى هذه البلاد لا بطلب تحديد أجل للاحتلال البريطانى ولا بأى صورة أخرى » ، وكان هذا الالتزام من جانب فرنسا يقابله التزام من بريطانيا ألا تعرقل عمل فرنسا فى مراكش ، أدرك الجميع أن فرنسا قد تخلت نهائيا عن مساندة الحركة الوطنية ، وأنها تأمرت مع بريطانيا على تقسيم مناطق النفوذ بينهما فى الشرق .

وعاد مصطفى كامل مرة أخرى يطارد اليأس ويبحث الثقة فى النفوس ، وألقى خطبة فى مسرح زيرينيا بالإسكندرية فى ٧ يوفية ١٩٠٤ تحدث فيها عن الاتفاق الودى ، ومؤامرة بريطانيا وفرنسا على مراكش . وحمل على السياسة الإستعمارية الإنجليزية والفرنسية ، وهاجم سياسة الإستسلام التى يسلكها وزراء مصر ، ودعا إلى الثبات والكفاح وقال :

— إن الوطنية شعور ينمو في النفس ويزداد لهيبه في القلب ، ويرسخ في الفؤاد ، كلما كبرت هموم الوطن وعظمت مصائبه واشتدت كربيته .

فإذا كنا قد افتخرنا بهذا الشعور الوطني ورمينا كل من تجاهله بالخيانة أيام كنا نؤمل الخلاص القريب والجلاء العاجل ، فخليق بنا أن نتعلق به اليوم أضعاف تعلقنا به بالأمس ، وأن نقول لهذا الوطن العزيز الأسيف : كلما تمكن العدو منك ، تمكن حبك من القلوب ، وتعددت واجباتنا نحوك ، واشتد تمسكنا بحقوقك .

إن الذي يسمع صوت ضميره منادياً في كل لحظة بوجوب خدمة الوطن وإعلاء شأنه يشعر بأن دم آبائه الذي يجري في عروقه يطالبه بتضحية النفس لتلك الأرض الطاهرة التي لا شرف له إلا بها ، ولا حياة بغيرها ، ولا رفعة بدون رفعتها ، ولا مجد إذا زال مجدها . إن الذي يسمع ذلك الصوت ، ويشعر بهذا الشعور لا يخاف العقبات والموانع ، ولا يخشى السباب والمطاعن ، بل يمضي في طريقه ناظراً إلى الغاية التي طلبها ، والبغية التي تعلق بها ، واجداً من سهام الأعداء ما يجده الجندى في جراح الحرب من شرف وفخار ..»

ثم كانت حادثة دنشواي .

ويقول الأستاذ فتحي رضوان إن الداعية كقائد الجيش يبقى متربصاً ببعده الدوائر حتى إذا آنس في صفوفه ثغرة يستطيع أن ينفذ منها انطلق إليها بقوته جميعاً أو بأكثرها ليضمن تشييت شمل خصمه والقضاء عليه . وكان مصطفى كامل كهذا القائد لا يزال يدور حول قلعة الإنجليز في مصر وقلعة حكمهم ، حتى كانت حادثة دنشواي فوقعوا في خطأ صارخ يختلف عن أخطائهم التي يرتكبونها كل يوم ، فشحن مصطفى كامل قلمه وأطلق لسانه ، وجعل يصور المأساة في ألوانها

القائمة . وأحست بريطانيا أنها العاصفة فأحنت رأسها كعادتها ، وسحبت اللورد كرومر طاغية قصر الدوبارة ، وعميدهم العتيد الذى يفاخرون إلى اليوم بعبقريته وطول باعه وشدة مراسه .

ذهب خمسة من الضباط الإنجليز لصيد الحمام فى قرية «دنشواى» . فأصابته طلقة طائشة فلاحه كانت فى جرنها وأشعلت النار فى الجرن ، فاستغاث شقيق زوجها وهجم على الضابط يحاول انتزاع بندقيته ، وتكاثر الأهالى ، وجاء زملاء الضابط لنجدته ، وجاء فى نفس الوقت شيخ الخفراء مع زملائه لتفريق الناس ، فتوهم الضباط الإنجليز أنهم يريدون بهم شراً ، فأطلقوا النار عليهم فأصابوا شيخ الخفراء وزميله وآخر من الأهالى ، الذين ثارت ثائرتهم وهاجموا الإنجليز بالطوب والعصى فجرحوا بعضهم ، وأحاط بهم الخفراء وتحفظوا على بنادقهم وتمكنوا من حمايتهم من غضب الأهالى حتى جاء ضابط الشرطة . وفى خلال ذلك كان أحد الضباط وهو الكابتن بول قد هرب من القرية وظل يعدو حتى سقط مغشياً عليه ، وثبت من تقرير الطبيب الشرعى البريطانى أنه مات من ضربة الشمس .

هذا هو حادث دنشواى بإيجاز ، وقد هاجت له سلطات الاحتلال ، وأراد « كرومر » أن يتخذ ذريعة ليضرب ضربة ترهب المصريين ، وتعيد هيبة الإنجليز التى زعزعتها الحركة الوطنية التى أشعلها مصطفى كامل .

وفى أيام قليلة انعقدت المحكمة المخصوصة ، وصدر الحكم بإعدام أربعة من الأهالى وبالأشغال الشاقة والسجن والجلد على سبعة عشر شخصاً آخرين ونفذ الحكم علناً فى قرية دنشواى .

وكان مصطفى كامل مريضاً فى باريس عندما علم بما حدث ، فثارت نفسه

وكتب مقالا بعنوان « إلى الأمة الإنجليزية والعالم المتعدين » نشرته جريدة « الفيجارو » الفرنسية الشهيرة . وكان هذا المقال أروع ما كتب مصطفى كامل في حياته السياسية . ورغم مرضه ونصائح الأطباء قرر أن يهاجم الاحتلال في عقر داره . تقول مدام جوليت آدم في كتابها « انجلترا في مصر » :

— لقد طلب مني طبيبه أن أستخدم نفوذى لجملة على السفر إلى « فيشى » للراحة والإستشفاء ، ولكنى لم أستطع منعه من السفر إلى لندن عقب حادثة دنشواى ، لأن إخلاصه لبلاده ، ذلك الإخلاص المتناهى ، كان عنده فوق جميع الإعتبارات الشخصية ، وفوق الحياة نفسها .

وسافر مصطفى كامل إلى لندن في ١٥ يولييه من عام ١٩٠٦ ، واتصل برجال الصحافة والسياسة وأعضاء البرلمان ، وأدلى بالأحاديث في الصحف ، وترجم مقاله عن حادث دنشواى ووزعه على الوزراء وأعضاء البرلمان والصحف ، ونجح في إثارة الرأى العام البريطانى حتى انبرى بعض النواب الأحرار يستنكرون تصرف اللورد كرومر ، وكتب بعض الصحف والمجلات الانجليزية تذكر حكومتها بعودها لمصر منذ بدء الاحتلال ، وتطالب بمنح مصر حكومة مستقلة .

وأقام مصطفى كامل وليمة كبرى بفندق كارلتون دعا إليها عددا كبيرا من رجال الصحافة والسياسة وأعضاء البرلمان ، وألقى فيها خطبة بالفرنسية كان مما قاله فيها : —

إن الحركة الموجودة في مصر هي حركة وطنية أصيلة لاشك فيها ، فإن الشعب المصرى متمسك باستقلال بلاده أشد التمسك . وإذا كان بعض الساسة الانجليز يتظاهرون الآن بنسيان الوعود والعهود التى قطعها رجالكم المسئولون علنا فإننا لم ننسها نحن أبدا ، بل لا يزال كل مصرى يكررها وسوف يكررها على الدوام ، علما بأن العهود وكلمة الشرف لا تسقط بمضى المدة .. !

ومع ذلك فإذا فرصنا أن هذه الوعود والعهود لم تقدم فعلا من رجال سياستكم ، فإن من حق المصريين أن يطالبوا باستقلال بلادهم . إن إنجلترا لم تفتح مصر ولم تغزها ، بل دخلتها كدولة صديقة تريد توطيد عرش الخديو ومساعدة الشعب المصرى على أن يعيش عيشة الأمم المتعدينه . فمصر لا تسأل إحسانا عندما تطالب بحريتها ، بل تطالب حقاً شرعياً لانزاع فيه ، تطالب حقها فى الحياة والوجود . وإننى على يقين أنكم لو كنتم محلنا لشعرتكم بنفس شعورنا ، وسلكتكم مسلكنا ، لأنه لا يوجد إلا مطلب واحد خليق بأن يشغل حياة الإنسان ، ألا وهو استقلال وطنه وعظمته .

وتروى مدام جوليت آدم فى كتابها أن السير « كامبل بانرمان » رئيس الوزراء طلب مقابلة مصطفى كامل بعد هذه الخطبة ، وتمت المقابلة فى « داو ننج ستريت » ودار بينهما حديث عن الحالة فى مصر ، وأن مصطفى كامل قال له :
— أرجو أن تكون قد لمست الآن كيف نال عمالك بمصر من شرف إنجلترا بتلويتهم للعدالة .

وقد اعترف له رئيس الوزراء البريطانى بأن دنشواى « حادثة مؤسفة » ، ثم قال إنه لا يظن أن فى مصر رجالا أكفاء يستطيعون حكم البلاد إذ تركتها بريطانيا ، ولكن مصطفى كامل فند هذا القول ، فعرض عليه السير كامبل بانرمان أن يشكل الوزارة المصرية برئاسة ، فرد عليه الزعيم الشاب :
— أن وطنيتى تفرض على أن أرفض كل منصب حكومى مادام الاحتلال فى بلادى .

وأدرك رئيس وزارة بريطانيا أنه أمام زعيم وطنى حقيقى لا يسعى لمنصب أو جاه ولا يستهدف مصلحة شخصية .

وكان من نتيجة كفاح مصطفى كامل بعد مأساة دنشواى أن سحبت

بريطانيا عميدها كرومر من مصر ، وتم العفو عن المحكوم عليهم بالسجن ،
واتجهت السياسة البريطانية إلى ملاينة المصريين .

* * *

عاد مصطفى كامل إلى مصر ليضعف جهاده في سبيل قضية بلاده ، بينما
كانت صحته تسوء وتنهار تحت وطأة الجهود الشاق الذي يبذله ليل نهار .
فأصدر جريدة اللواء باللغتين الانجليزية والفرنسية ، فأصبحت له ثلاث جرائد
يومية تنشر دعوته الوطنية بثلاث لغات .

ورأى أن دعوته قد فشلت بين المصريين ، وكان يشعر بأن صحته تتدهور
يوما بعد يوم ، فأراد أن يطمئن إلى قيام حزب منظم يحمل اللواء من بعده
إذا سقط في الميدان . وهكذا قرر أن يدعو إلى إنشاء « الحزب الوطنى »
بعد أن رأى ثمار دعوته وقد نضجت في قلوب مواطنيه .

وفي الإسكندرية حيث كان يحب إلقاء خطبه الكبرى ، ألقى خطابا
ضافيا في مسرح زيزينيا في ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧ ، وقد سمي هذا الخطاب
« خطبة الوداع » . وقد بلغ عدد الذين ذهبوا لسماعه سبعة آلاف احتشد بهم
المسرح وحديقته والشوارع المحيطة به .

وكأنما كان الزعيم الشاب يحس أنها خطبته الأخيرة ، وأنه يلقي إلى
أنصاره بوصاياهم ، فلم يترك جانبا من جوانب القضية الوطنية إلا شرحه وجلاه ،
ورد على كل تهمة وسؤال ، وحدد طريق العمل وأسلوب الفضال ، كل ذلك
في أسلوب متدفق وإلقاء ساحر . على أن أسلوب الخطيب وفصاحته وسحره
وفتنة إلقاءه لم يكن شيئا مذكورا بجانب الشجاعة وإنكار الذات وروح
التضحية والاستهانة بالخطر والمرض والموت ، وهى العناصر التى منها نسج
خطابه وخاط أثوابه .

تحدث عن الاتفاق الودى فكان مما قاله :

— ظن الساسة الانجليز أنهم إذا اتفقوا مع فرنسا على المسألة المصرية طويت أوراق هذه القضية الخطيرة ، وخفت كل صوت ، ومات كل أمل ، وحل اليأس محل الرجاء ، وصار الشعب المصرى أثرا كتلك الآثار القديمة التى يأتى السائحون لرؤيتها فى كل عام . ولكنهم أخطأوا خطأ كبيرا ، لأن العزلة التى صرنا إليها بعثت فينا روحا جديدا أرشدنا إلى الحقيقة التى لا قوام لشعب بدونها ، ولا حياة لأمة بغيرها وهى أن الأمم لا تنهض إلا بنفسها ولا تسترد استقلالها إلا بجهودها .

وتكلم عن تهمة التطرف التى يرميه بها أعداء الحركة الوطنية فقال .

— نلقب بالمتطرفين ! ولماذا ؟ لأننا نطالب بحقوق مصر واستقلالها الأنفا نذكر انجلترا بشرفها ووعودها وعودها لأننا نقول لها بصوت الحق والإيمان القوى، إن المستقبل يكفل لمصر هذا الاستقلال ، وأنه خير لها ألا تقاوم سير الحوادث ؛ والا تحاول إعدام أمة خلقها الله للحياة والعمل . متطرفون .. لأننا نعلن ثقتنا الكاملة بمستقبل بلادنا ، ونقول لهذه الأمة فى الصباح والمساء : اليوم عسر، وغدا يسر، اليوم أسر وغدا نحر، اليوم احتلال وغدا استقلال، اليوم عناء وشقاء ، وغدا رخاء وهناء . متطرفون .. لأننا نقول للأمة اعملى وحافظى على السكينة . إياك والقلق ! فهى تخدم العدو وتضر بالوطن ، إياك والانقسامات فأنها منشأ الخراب والدمار ، إياك وهوس العداوات الدينية فأنها آفة الآفات وجالبة الحن .

متطرفون . . . لأننا نقول للأمة خذى من العلم أوفر قسط وتساحى بأسلحته ، واملاى وادى الغيل من نوره ، وردى إلى الفقير حقه ونصيبه من هذا المنهل العذب .

متطرفون . . لأننا نردتهم العدو ، وثبتت للعالم كله أننا شعب متمدين ،
وأنه ليس للتعصب بيننا وجود ، وأن الاسلام عامل قوى لترقية الأمة ونشر
أنوار المدنية فيها .

متطرفون . ، لأننا رفعنا أصواتنا محتجين على فظيعة الفظائع في دنشواى ،
وعارضنا السياسة الانجليزية في دعاواها ، ووقفنا في وجه أعدائنا والحق
سلاحنا ، والصراحة عدتنا ، والإقدام مطيئنا .

متطرفون . . لأننا نمثل مصر للأمم تتدفق حياة ، ونشخصها قوية
ناهضة شريفة المقاصد ، أبية لاترضى الذل ، ولا تعرف الكذب والخداع .

متطرفون . . لأننا لا نطلب استعمار بلاد الغير ، ولا استعباد شعب من
شعوب الأرض ، بل نقنع بطلب الاستقلال لوطننا .

فإن كنا نعتبر متطرفين لأننا نعان ذلك كله ، فأكرم بالتطرف ، وباله
من نخر أن نلقب بالمتطرفين !

من منكم لا يفخر بأنه متطرف ؟ وأيكم لا يريد أن يكون سائر
المصريين متطرفين ؟ وهل يكون الاعتدال في هذه الحالة شيئاً آخر سوى
الخوف والجبن والرياء ، واتباع سياستين ، ومخاطبة الناس باسانين ؟

عجبا . . عجبا ! ! أنلقب نحن بالمتطرفين لأننا نطلب استقلال وطننا من
أشرف السبل ، وبأقوم الوسائل ، ولا نريد أن نتعداه بالإعتداء على أحد ، في
حين أن الانجليز لم يكتفوا باستقلال وطنهم بل استعبدوا الأمم وتوسعوا
في الاستعمار وملكوا البحار ، ولا يرال أكثرهم يقول : هل من مزيد ؟

هل يلقبون هم بالعقلاء لأنهم انجليز ، ونلقب نحن بالمتطرفين لأننا
مصريون ؟ ! هل الوطنية التي تروق وتعجب هناك ، تؤذى وتؤلم هنا ؟ !

إن من يظن أن الانجليز يحبون الخونة يخطئ خطأ كبيرا . نعم إنهم يستخدمونهم لأغراضهم ولكنهم يحتقرونهم أشد الاحتقار .

ولقد سمعت من يقول إننى شديد فى تقرير من خالفوا الواجب الوطنى ومالوا عن مصلحة البلاد ، فأجيبهم اليوم بأنه إذا صح التسامح فى بعض الأمور فى ظروف معينة ، فإن التسامح فى الوطنية إعدام لها وقضاء عليها ، وأن من يتسامح فى حقوق بلاده ولو مرة واحدة يبقى أبدا الدهر مزعزع العقيدة سقيم الوجدان .

وتكلم مصطفى كامل عن حب مصر وجمادتها بهذا الحب الكبير ، ثم تكلم عن أعداء الحركة الوطنية ، وفند مغالطاتهم وحذر منها ، وتحدث عن سيئات الاحتلال ورد على الزعم القائل بأنه أصلح أحوال البلاد وأغناها وملائها عدلا ، واستشهد بما حدث فى دنشواى على بطلان دعوى العدل البريطانى ، وهاجم اللورد كرومر الذى توقع على المصريين فى الخطبة التى ألقاها عندما غادر البلاد .

ثم أشار مصطفى كامل إلى التهمة التى كان يحلو لأعدائه أن يرموه بها لى يوهموا البسطاء بأنه صنيعة تركيا فقال فى صراحة قاطعة :

— رمانا الطاعنون أيضا باننا نريد أن نخرج الانجليز من مصر لنعطىها لتركيا كولاية عادية ، أى أننا نريد تغيير الحاكمين لاطلب الاستقلال . فليعلم أعداء مصر أننا نطلب لها الاستقلال ونطلب لها ذلك الأستقلال بأعلى أصواتنا ، وعلى مسمع من أمم الأرض كلها ، وأننا إذا أخلصنا الود لأمة أو لدولة فإنما نعمل كغيرنا ، ونتبع ناموس الطبيعة القاضى بأن من اتفقت مصالحهم يجتمعون ويتناصرون .

ولا نستطيع أن نلخص ما قاله مصطفى كامل فى هذه الخطبة الجامعة

الرائعة ، وقد ختمها بدعوة الحاضرين والمواطنين للدخول في الحزب الوطني الذي كان يتأهب لإعلان تشكيله رسميا .

وقد عقدت الجمعية العمومية الأولى للحزب الوطني في ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٠٧ وحضر الاجتماع أكثر من ألف من المؤسسين واعتذر أكثر من ثمانمائة مع تأييدهم لما يصدر من قرارات .

وافتح مصطفى كامل الاجتماع بكلمة حدد فيها أهداف الحزب وسياسته وقال :

— إننا إذا دعونا الناس للدخول في هذا الحزب ، لاندعوهم باسم سلطة عالية أو حاكم نافذ الكلمة ، بل ندعوهم باسم وطنيتهم ، باسم شرفهم باسم حقوق وطنهم باسم كرامة الانسان ، باسم ذكريات آبائهم وأجدادهم ، باسم مصالح أبنائهم وأحفادهم .

ووافقت الجمعية العمومية بالإجماع على انتخاب مصطفى كامل رئيسا للحزب مدى الحياة ، فوقف مصطفى كامل وارْتَجَلَ الكلمات التالية :

— إنكم حملتموني طول حياتي حملا ثقيلا على كاهلي ، وإني لأشكر لكم ثقكم بي ، هذه الثقة التي كانت عوناً لي في كل أعمالي ، وأقول لكم إنكم أنتم قوتي وساعدي يا أبناء خير أمة أوقفت على خدمتها حياتي وقواي وعقلي وقلبي وقلمي ولساني وصحتي . وكم من صديق قال لي أشفق على صحتك ، ولكن الواجب لبلادي ووطني ينسيني هذه النصائح الثمينة . فإنا الآن إذا قبلت اختياركم لي رئيساً فإنما لنقتي بان كل واحد منكم أصبح حياتي وشعوري واعتمادي ، بل صار كل منكم في الشعور الوطني أكبر من مصطفى كامل .

وكان هذا آخر اجتماع عام شهده الزعيم الشاب .

وكانت هذه الكلمات آخر كلام له على المنبر .

كان المرض قد حطم كيانه الرقيق ، ولكنه تحامل على نفسه ليشهد
اجتماع تأسيس الحزب ويخطب فيه ، ثم عاد إلى فراش المرض حيث فاضت
روحه الطاهرة يوم ١٠ فبراير سنة ١٩٠٨

وسكت إلى الأبد صوت الخطيب الذي احترق ليضيء لأمته طريق
الحرية والاستقلال .

سعد بن مخلوق

أرغن هام به وجدانها وأذانٌ عشقته أذناها
كل يوم خطبة روحية كالزامير وأنقام لغاها
دلمت مصرا ولو أن بها فلوات دلمت وحش فلاها
أحمد شوقي

سعد زغلول

* * *

إذا كان بعض الناس قد اختلفوا في أمر سعد زغلول ، وعارضه بعضهم في حياته ، فإن أحداً لم يختلف في منزلته كخطيب ساحر ، قادر على الإقناع والتأثير . تلك ناحية يتفق فيها الخصم والنصير ، والمؤرخ والصديق .

كتب أحد الأدباء من خصوم « سعد » يقول :

« إن كاتب هذه السطور كان من أولئك الذين يعارضون سعدا أوفر معارضة ، ويتميزون من سياسته في إحدى مراحلها غيظا ، حتى أتيح لي أن أذهب إليه كارها في ليلة كان يخطب فيها الجماهير تمجيذاً لعيد الجهاد الوطني عام ١٩٢٣ ، فلما أن بدأ يخطب ، دلفت عواطفى المتأججة خصومة إلى الفرار ، ولما أن اكتمل سحره في القول والتوجيه ، رأيت معارضتي له تنال من نفسى مكانا غير محمود ، وعندما تركت الحفل وددت لو أن الأثير لا يعيد إلى أذنى تلك الكلمات التى فاض بها لسان سعد ، ذلك اللسان الذى لم تبخل المقادير عليه بما فى طوق اللغة أن تؤديه من التأثير . ووددت لو ظل « سعد » طيلة الدهر صامتا لا يقول ، ساكتا لا ينطق لسانه ، لأن الغيظ قد أوحى إلى نفسى أن نفوذ سعد قد هيا له هذا السحر يزجيه من فيه ، فإذا هو لا يزيد فى خصومه وإنما يدفع اليه فى كل خطبة أنصارا أوفياء . . . »

هذه شهادة خصم لسعد ، وإذا كان الغرض الأول من الخطابة هو الإقناع والتأثير ، وكان نجاح الخطيب يقاس بمقدار ما يحقق من هذا الغرض ، فقد كان « سعد » على هذا القياس يبلغ بخطبه من ذرى النجاح ما تنقطع دونه

أنفاس كل خطيب . فقد كان يرسل فى نفوس سامعيه تيارا من الجاذبية
والسحر ، يهيم على الحاضرين ، فإذا أسمعهم وعيونهم وقلوبهم معلقة بشفتيه
وكأنما يمسك بيده مطرقة سحرية يضرب بها أوتار قلوبهم فيخرج النغمة التي
يريدها .

كتبت الأدبية النابغة « حى زيادة » مرة تقول :

« سمعت سعدا متكئا على المنبر ، فأدركت ثمة كيف الوجه العادى يصبح
أجمل من الجمال وأوفر إغراء ، وكيف تهزأ حيوية الشيوخ بحيوية الشبان
فتجرفها جرف العاصفة لأوراق الخريف ، وكيف ينفتح الجفن الكثيف
المتهدل عن بؤبؤ العين فينبجلى البصر حساما استل من غمده ، وتشيع النظرات
أنصلا تشق الصدور ، وكيف يشد خطيب أحيانا عن أصول الخطابة وهو مع
ذلك ينتزع قلبك من بين جنبيك ويمضى يتقاذفه ويلهو به وأنت من نشوتك
لا تفريق ، وكيف يرتفع الصوت الخافت ويتعالى ويسود حيث تعصف فيه
الأنواء وتزجر خلاله العواصف ، لتتجلى فيه إرادة شعب يقول : أنا . . .
إلى موجود » .

* * *

كيف تهيأت لسعد زغلول هذه المقدرة الخطابية التي كانت آيته الكبرى
وعدته فى زعامة هذه الأمة ؟

دخل سعد مكتب القرية ، حيث حفظ القرآن ، ثم تردد على دسوق حيث
درس النحو والفقه ، ثم رحل إلى القاهرة حيث دخل الجامع الأزهر ، وثابر
على حضور الدروس بين يدي الشيوخ النافعين من أنصار الإصلاح . وتعلم

سعد على الإمام الشيخ محمد عبده ، واتصل بمجال الدين الأفغانى واختلف إلى مجالسه .

وعندما عهدت الحكومة إلى الشيخ محمد عبده بتحرير « الوقائع المصرية » وهى الجريدة الرسمية ، اختار « سعد زغلول » ليكون مساعدا له ، وسعى حتى عينه لتحرير القسم الأدبى بها ، فأصبحت هذه الصحيفة الرسمية ، صحيفة الثورة الفكرية فى ذلك الحين .

وفى تلك الفترة حفر القدر الخطوط الأولى للملامح سعد الخطيب ، إذ أتاحت له الفرصة ليتعرف مآكاته العقلية والبيانية ، ويتجه بها الوجهة التى تلائم مواهبه بالتعبير عنها فى صور الخطابة والبيان . كان يكتب فى صحيفة للجمهور ، ينادى بالاصلاح ، ويدعو للحرية والشورى ، فتعود مخاطبة الجماهير فى مقالات هى فى الواقع خطب مكتوبة ، وشحن بذلك مواهبه التى كانت كامنة فيه . ونقلته هذه الوظيفة من الأزهر إلى الحكومة ، ومن العمامة إلى الطربوش ومن دراسة العلوم الدينية إلى دراسة العلوم القانونية .

ثم كانت الثورة العراقية ، فألقى سعد بنفسه فى غمارها ، فسكوته بنارها ، ولما انقشع غبارها كان قد خسر وظيفته فأقدم على احترام المحامة .

وكانما كان القدر يوجه خطوات « سعد » ليهيئه لدوره العظيم . فقد كانت المحامة أوفق ميدان لشحن مواهبه ، وتمرينه على الجدل الخطابى ، فلم يلبث أن ظهر وبهر ، فاختروه قاضيا فمستشارا فوزيرا .

وفى خلال هذه الفترة الطويلة من حياته فى القضاء والوزارة كملت تجاربه ، ونضجت مواهبه ، حتى إذا افتتحت الجمعية التشريعية التى انتخب عضوا فيها

ثم أصبح وكيلا منتخبا لها ، عاد « سعد » الخطيب إلى الظهور ، فإذا هو قوة أزعجت الحكومة . ثم عصفت الحرب العالمية الأولى بالجمعية التشريعية ، وهذا الخطيب العظيم ، حتى إذا وضعت الحرب أوزارها ، نهضت مصر تطالب بحقوقها ، وكان « سعد » الرجل الذي ادخرته الأقدار لتلك الساعة الحاسمة ، فبرزت مواهبه الخطابية المكنونة ، ورأى الناس هذا الشيخ المهيب الذي نيف على الستين ، يتقدم الصفوف ، ويخطب المصريين فيعبر عن آمالهم بفصاحته النارية ، فألقوا إليه قيادهم ، وقد أدركوا أنه الزعيم المنتظر .

وهكذا وصل الخطيب إلى طوره الأخير ، وامتزجت شخصية الخطيب بشخصية الزعيم .

* * *

كانت الطبيعة سخية على سعد ، فحبته كل ما يتمناه الخطيب ليكون بالغ التأثير في سامعيه .

وصفه عباس العقاد في كتابه عنه فقال :

— تراه فترى من النظرة الأولى أنك على مقربة من رجل ممتاز في الصورة كما تميزه في الطبيعة . وطلعته تذرك على الفور طلعة الأسد في بأسه ونبله وجلالة محياه . وليس بين الوجوه الأدمية ما هو أشبه بالأسد في قسامته ومهابته من وجه سعد زغلول . له قامة مديدة ، ووجه أقرب إلى البياض ، ورأس مستطيل في غير ضخامة ، وجبين يميل إلى السعة وينحدر قليلا إلى أعلى ، وعينان ثاقبتان فيهما انحراف قليل نحو اللحاظ ، يطبقهما أحيانا عند الحماسة والغضب فلا تنفتحان إلا بمقدار ما ينطلق منهما الشعاع كأنه سهم نافذ أو إبحاء منوم جبار . وله صدغان ناتئان ، وأذنان بسطاوان ، وأنف منفرج واسع المنخرين ، وفم أهرت الشدقين كما يصف العرب أفواه الخطباء المطبوعين ،

وذاقته من تحت ذلك بارزة في غير حدة ولا استعراض كثير ، تتم ملامح البروز في ذلك الوجه فيلوح للوهلة الأولى كأنه مفصل من زوايا حديد لا من اللحم والعظام . يحمل ذلك الوجه عنق راسخ على منكبين عريضين ، وصدر فسيح أقعس واسع التجويف . أول ما تطالعك من رؤية « سعد » مهابة بالغة تملأ ما حوله من فضاء . ويكون في المجلس من يكون فيه من كبار أو صغار ، ومن أقوياء أو ضعفاء ، ومن كثرة أو قلة ، فلا يخطر لك وأنت تغشاه أن في المجلس أحدا غير سعد زغلول . . . »

أما صوته فقد قال عنه كاتب من خصومه :

— « كان صوته قوى الدبرات ، فيه سحر وفيه أسر ، وفيه سلاسة وفيه انسجام ، وفيه جاذبية . وكان إلى ذلك صوتا طيعا لا ينساق عن عى ، ولا يمتضى عن تلكؤ ، وإنما كان الزوبعة حين يهدد ، والعاصفة حين يتطلق ، والموج حين يدوى ، والنفمة الساحرة حين يستقر . . . »

وقال عنه الأستاذ عباس العقاد :

— « صوت رقيق ، لين الوقع على الأسماع ، يخفى فيه الجهد ، ويظهر الارتفاع الذى يعم أجزاء المكان ولو كان من أرحب ميادين الخطابة . فهو صوت مرتفع لا شك في ارتفاعه ، إلا أنك إذا نظرت إلى صاحبه وهو يهدر بالقول لم تر أوداجا تنتفخ ، ولا ملامح تلتوى وتتقبض ، وأحسست بسهولة القول وسهولة الصوت ، فأحسست بالقدرة التى تلازم السهولة وبالسيطرة التى تملك الأسماع ، وليس بعد السيطرة على السامعين من مطمع لخطيب . . . »

ووصفه الأستاذ فكري أبازة فقال :

— كان خريج الصحن الازهرى أبلغ المرتجلين ، حباه الله حنجرة لو وجهها

للطرب لسان أبرع المطربين . فيها النغم الطروب والنغم الحزين ، والجرس الأجلجش وذو الحنين ، وذو اللين ، وفيها الرعد وفيها الأنين . . تلك كانت منحة السماء ، وكانت سلاحه في السلم وفي الهيحاء . . »

ووصفه « مكرم عبيد » في خطبة له فقال :

— « من منا لم تلهبه تلك الفصاحة النارية ، ولم يخرق قلبه ذلك الصوت المتهدج . صوت ذهبي حار ، ذو رنين ورجفة ، رجفة الحماسة الفقية لا الشيخوخة الواهنة . صوت يشترك كل أعضاء الجسم في إخراجه من مكمنه ، فتكاد تسمع فيه أزيز نفسه ، وخفقان قلبه ، وغليان دمه ، وتساقط دموعه . تتفجر من فيه الالفاظ جارية قوية واضحة صريحة قاطعة ، رنين التنوين فيها كرنين القضاء المحتوم ولهجة لهجة القائد الذي تعود أن ينتصر ولا بد أن ينتصر ، وخطابه فصل الخطاب . »

وكان سعد خطيبا هادىء الحركة ، يستوى على منصة الخطابة بقامته المديدة المعتدلة ، تحيط به مهابة تملأ ما حوله من فضاء ، فإذا تكلم أحسست أن ستين عاما من تجارب الزمان تخاطبك على لسان هذا الشيخ المهيب ، وهو ثابت في مكانه من المنصة كالطود الراسخ ، لا يكاد ينقل قدما ، ولا يسرف في حركة أو إشارة ، وإنما هو ذراعه يرفعه أو يمدده في الحين بعد الحين ليستعين به على توضيح غرضه . وقد ييسط يده في مواطن التوكيد وينزل بها كأنما هي سيف يشق القضاء ، فيقع توكيده من نفس السامع موقع القضاء المبرم . ومع ذلك فإنك تقنع من سعد بهذا السكون فيزيذك روعة وتبجيلا ، ويفغنيك بالطلعة المهيبة والنظرة الماضية عن الإفراط في حركات الخطباء الشبان .

هذه صفات « سعد » الخطيب ، فما هي خصائص هذا الخطيب العظيم ؟

* * *

كان « سعد » خطيبا بطبعه وتكوين فكره وملسكاته ، فهو إذا لم يخطب

تحدث كأنه يخطب ، وكان يفضل الأملاء على الكتابة ، لأن الأملاء ضرب من الخطابة . وفي ذلك يقول « سعد » في حديث له مع عباس العقاد :

— إن الكتابة أصبحت تتعبني أكثر من الكلام . أما بياناتي فأنتي إذا أملتيتها كانت كالخطب ، وإذا كتبتها بنفسى استحضرت موقف الخطابة . وهذا هو شأن الخطيب المطبوع الذى تمتزج الخطابة بدمه . وآية ذلك أن سعدا كان يغذى نفسه بالخطابة ، فكان يقف أحيانا فى مستهل حديثه إلى الجماهير متعباً متثاقلاً ، يستأذنهم فى ألا تزيد خطبته على دقائق ، فإذا انطلق وامتزجت بنفسه حماسة الجمهور ، استطالت هذه الدقائق إلى ساعات .

عاد سعد من رحلة الصعيد فى نوفمبر سنة ١٩٢١ متعباً ، وأشار عليه الأطباء بالتزام الدور العلوى من بيت الأمة وعدم استقبال أحد ، فلما حل موعد الاحتفال بذكرى عيد الجهاد فى ١٣ نوفمبر ، ألح فى أن يحضر الاحتفال فسمح له الأطباء على شرط ألا يخطب فيه ، فقبل ذلك . وذهب سعد إلى الحفل بآدى الضعف ، وجلس يستمع إلى الخطباء من إخوانه وهتاف الجماهير يدوى فى أذنيه ويتردد صدها فى قلبه فيحرك فيه الشوق إلى الكلام ، وإذا به يدفع إلى المنبر ، ويخلع عنه معطفه ، ويلقى كوفيته ، ويرتجل خطبته التاريخية التى دامت أكثر من ثلاث ساعات ، وقد نسى تعبته ومرضه ، وعاد أتم ما يكون صحة وعافية .

وفى يوم المؤتمر الوطنى الذى تم فيه إئتلاف الأحزاب سنة ١٩٢٦ كان سعد مريضاً ، فلما حان موعد المؤتمر قام من فراشه وذهب إلى الاجتماع يتحامل على نفسه — ولكنه حين أخذ يلقي على المؤتمرين خطبة الافتتاح ، عادت إليه القوة ، حتى تهامس أولئك الذين كانوا من ساعة واحدة يغالبون دموعهم من الجزع حول فراشه . كانت هذه ظاهرة ملموسة فى سعد ، ولقد روى لى الأستاذ عباس العقاد أن أنصاره المقربين كانوا يعلمون ذلك عنه ، فكانوا إذا وجدوه

ضعيفاً أو متعباً ، حاولوا أن يستثيروه ليتحدث أو يخطب كي تعود اليه قواه...!
وروى لى الأستاذ المهندس عبد المجيد بدر أنه ذهب لزيارة سعد فى بيت
الأمة مع زميلين من أعضاء اللجنة التنفيذية العليا للطلبة ، وذلك بعد فوز سعد
الساحق فى الانتخابات البرلمانية الأولى عام ١٩٢٣ وقبوله تشكيل الوزارة .
وكان «سعد» مريضاً معتكفاً فى الدور العلوى ، فلما علم بوجودهم ، دعاهم لمقابلته
بـحجرة نومه . ووجدوه فى فراشه لا يكاد يقوى على الحركة ، ووصيفته الألمانية
« فريدا » ترجهـوه أن يتناول الدواء ، وهو يصرفها ويأبى أن يتناول شيئاً .
وسألهم فى صوت خافت :

— ماذا يقول الناس ؟

وأجاب عبد المجيد بدر بأن الناس يقولون أن سعداً بدأ يوزع الغنائم على
أنصاره ، وأن التعيينات فى الوظائف تقوم على المحسوبية . وبدأ « سعد »
يتكلم مدافعاً عن تعيين بعض أنصاره فى وظائف البرلمان والحكومة ، ولم
يلبث أن جلس فى فراشه ، وأخذ صوته يتعالى وكأنه يخطب ، وعادت إليه
الحيوية ومظاهر العافية .

وهكذا كانت نفسه تجيش بالخطابة ، فيتحرك لسانه بالكلام وكأن قوة
لا يستطيع مقاومتها تدفعه إلى الكلام دفعاً .

ذلك هو وحى الجمهور يسرى فى الخطيب المطبوع ، وهو ما أشار إليه
« سعد » فى إحدى خطبه فقال :

— « ما حيرت الشعر ولكن الشعر حيرنى ! هذا الجمع الكبير ،
وهذا المتاف والتهليل ، كل هذا حيرنى فلا أملك من العبارات ما أستطيع
به أن أصف ما يخالج قلبى من عواطف الشكر التى أريد أن أقدمها لكم .
إننى ما وجدت لهذا الجمع عبارة ألقىها ، ولكن هذا الجمع يقذف فى قلبى ،
ويلقى على لسانى تلك العبارات التى يجرى بها فى . . » .

وهكذا كان سعد يأخذ من جمهوره ويعطيه ، يؤثر فيه ويتأثر به ، وكانت حماسة الجمهور تسرى إلى نفسه فيندفق بالقول ، فيذكي هذه الحماسة وكأنه يلقي على نارها وقوداً جديداً يزيد اشتعالها ويؤجج لهبها .

وفي هذا المعنى قال « مكرم عبيد » في إحدى خطبه :

« إن خطب سعد مظهر من مظاهر عظمته ، فلا تتجلى فيها روحه فقط ، بل روح الجمهور الذي يسمعه . وإن أخطب الخطباء من خطبت الجماهير فيه قبل أن يخطب فيهم . ولم أر في حياتي أقدر من سعد زغلول على التشرب بروح الجمهور واستكشاف شعور سامعيه بقوة غريزية . . . ولذلك نرى أن أكثر خطبه العظيمة قد خطبها على البديهة . وقد قال لي الرئيس مصداقاً لهذا إن أجمل عباراته جاءت به بدهة في أثناء الخطابة . . » .

ويقول « العقاد » في كتابه عن سعد :

— وكان أكثر ما يتدفق في خطبه عندما يتعدى التبادل بينه وبين سامعيه حد الشعور إلى المجاذبة بالكلام . . فإذا سئل ونوقش قليلاً تفتح في القول ، وأخذ من طوابع الملتفتين به ما يوحى إليه فنون المقال المناسب لذلك المقام . وكان أسرع ما يكون إلى الإفاضة إذا تكلم أمامه المتكلمون وأحسنوا التفسير والإلقاء ، فإذا أجابهم بعد ذلك جمع أغراضهم كلها وتأهب للكلام ، كما يتأهب الفرس الكريم للايفاض في مجال السباق .

ولذلك كان سعد زغلول يرتجل خطبه ، ولم يكن يعد منها إلا الخطب الرسمية أو التي تضطره ظروف خاصة لإعدادها . ومع ذلك فقد كان في بعض هذه الأحوال يغلب عليه الارتجال فينحى الورق جانباً ويندفع كالسيل جارفاً أمامه السدود والقيود .

يقول الأستاذ محمد إبراهيم الجزيري سكرتيه الخاص « كان تعبيره في

الارتجال أقوى من تعبيره في الرواية . وقد لاحظت ذلك كثيراً وصرحت له
به مرة فأجابني :

— صحيح . . . أنا أجد ذلك في نفسي .

والواقع أن سعداً كان أبلغ المرتجلين ، تسعفه بديهية حاضرة ، وخاطر سريع
القلبية ، هما عدة الخطيب المرتجل في مواطن الحرج .
وما أكثر ما يمكن أن يروى عن بديهية سعد .

حدث أن أقام له الأطباء الذين عاجلوه حفلة قبل مغادرته المستشفى ،
ابتهاجاً بشفائه من الاعتداء الأثيم الذي وقع عليه . وخطب سعد فشكرهم
بأسمائهم ، ثم التفت إلى أحدهم ولم يكن يعرف اسمه فسأله عنه ، ثم قال :
« إني وإن كنت لم أذكر أسماءكم فإن صوركم منقوشة على صفحات
قلبي ، وهي تحوط الرصاصة التي في صدري ، وتحفظني منها . . » .

وحدثني المهندس عبد الحميد بدر عن بديهية « سعد » وحسن تخلصه ، فقال
إنه ذهب يزور سعداً في بيت الأمة بعد أن تخرج من « مدرسة المهندسخانة »
وعين مهندساً صغيراً في أحد مرافق القاهرة ، وكان سعد رئيساً لمجلس النواب ،
وفي مكتب « سعد » ببيت الأمة وجد عنده المهندس عثمان محرم وزير
الأشغال ، والأستاذ أحمد لطفي السيد ، فلما انصرف عثمان محرم أخذ « سعد »
يثنى على كفاءته كمهندس رى ، ويقول إنه يعرف كل ترعة ومسقى وقنطرة
في البلاد كلها . وكان « سعد » يتجه بحديثه إلى عبد الحميد بدر ، فقال له
لطفي السيد معاتباً ومداعباً :

— ما هذا يا باشا . . ؟ أنا أفهم أن تزكى المهندس الصغير لدى الوزير ،
لا أن تزكى الوزير لدى المهندس الصغير .

ولم يظهر الحرج على « سعد » لهذه « القفشة » التي تبدو في محلها، ولكنهم
ابتسم وقال على الفور مخاطباً لطفى السيد:
— علمت شيئاً وغابت عنك أشياء .

وسأل لطفى السيد :
— وماذا غاب عني ؟

وقال سعد :
— غاب عنك أن عثمان محرم نائب عن دائرة دسوق ، وأن عبد المجيد بدر
ناخب في نفس الدائرة ، فأنا أذكرى النائب لدى الناخب ، ولا أذكرى الناخب
لدى النائب .. !

كان سعد زغلول يتدفق بالكلام المرتجل فيلمب الحماسة ويخلب الألباب،
فإذا قرأت كلامه بعد ذلك أدهشك أنك لا تقع فيه على عبارة جامحة أو كلمة
نايبة أو منطق سقيم . وإنما هو الكلام للوزون والأحكام المسببة كأنما هو
سلسلة من القضايا المنطقية يخاطب بها العقل قبل أن يثير الشعور .

استمع إليه يخطب في وفد مدينة طنطا الذي سعى إلى بيت الأمة يهنئته
بالعيد في ٨ يولية سنة ١٩٢١ ، فيقول في ختام كلامه رداً على اتهامات
حصومه :

— يقولون إن لنا أغراضاً شخصية . ولكن ماهي هذه الأغراض؟ أنطلب
مالاً وعندنا منه والحمد لله الكفاية؟ أم نطلب مناصب وقد عرضت علينا الوزارة
فرفضناها؟ أم نطلب جاهاً وقد أنزلت الأمة الضعيف المائل أمامكم منزلة لم يحلم
بها حالم؟ ليس لنا غرض إلا المصلحة العامة ، وهي فوق كل شيء ، وليس لنا
إلا عامل واحد هو الإخلاص للوطن . . . »

واستمع إليه يقول في خطبة مرتجلة وهو رئيس للوزارة :

« إن حرية كل واحد منكم محدودة بحرية غيره ، فكل فرد حر في أن يفكر ويتكلم ويكتب ، بشرط ألا يسب ولا يشتم . وقد نص الدستور على ذلك بقوله إن الحرية مكفولة في حدود القانون . أنا لست رئيس حزب ، ولكني وكيل أمة ، قلت ذلك مراراً ، وكررتة تكررأ . قلت عقيب خروجي من منفأى ، وقلت بعد عودتي منه ، وسأقوله دائماً وأعمل به ، فلا أحابي شخصاً لمبدئه السياسى ، ولا أتعرض لآخر لآرائه السياسية . ولكني أحسن لمن يعمل لمصلحة الوطن وأنكل بمن يسىء إليه ، فمن عمل صالحاً فلنفسه وللأمة ، ومن أساء فعليه إثم ما فعل . ولو أكرم ابن سعد لحقت عليه كلمة العقاب .. »

وفي هذين المثالين نسمع سعداً يرتجل كلامه وكأنه يلقي طائفة من القضايا المنطقية ، وهو مع ذلك يلهب به الشعور ويشعل حماسة الجمهور . ويقول الأستاذ العقاد في ذلك :

« قد لا تمجيبك من كل قائل تلك الكلمات الموزونة ، والأحكام المسببة والقضايا المقيسة ، ولكنك إذا وقع من نفسك توكيده موقع القضاء المبرم ، واشتعلت في نفسك شدته كما يشتعل الحريق المضرم ، واطمأنت بك عظمتة اطمئنان الطود الأعظم ، فهناك ليست الكلمات الموزونة كلمات موزونة ، وليست الأحكام المسببة أحكاماً مسببة ، وليست القضايا المقيسة قضايا مقيسة ، بل هي عاصفة جارفة ، كأقوى ما تكون المبالغة في اجتراف السامع ، وكأقصى ما تكون العرصات الجامحات في خروجها على المنطق والتحليل والتعليل ، لأنها قطعة من نفس قوية انتقلت إليك ، فنقلت معها القوة كما هي في جوارح صاحبها ، فلا حاجة بها إلى مبالغة المبالغين ولا جموح الجامحين .. »

والواقع أن سعدا كان يجمع بين خصلتين قلما تجتمعان للخطيب . كان يجمع بين القدرة على الاقناع ، والقدرة على إثارة الحماسة والشعور ، فهو في خطبه وكلامه يخاطب العقل والشعور جميعاً . لهذا كان « سعد » خطيباً شعبياً ، كما كان خطيباً برلمانياً . كان بشخصيته الساحرة وروحه القوى المشتعل ، وبلاغته المتدفقة خطيباً شعبياً يعرف كيف يلهب شعور الجماهير . وكان بقوة عارضته وبراعة تدليله وروعة منطقته خطيباً برلمانياً ممتازاً ، يعرف كيف يهجم ويدفع ، ويجادل ويقنع . ولا يتسع المجال لدراسة مفصلة نستعرض فيها مواقف « سعد » الخطابية في الجمعية التشريعية عندما كان عضواً فيها ووكيلاً منتخباً لها ، أو في البرلمان الحديث بعد إعلان دستور سنة ١٩٢٣ ، فهذا حديث يطول ، وتضييق عنه هذه الصفحات . وما أذكر أكثر المواقف الرائعة الجديرة بالتسجيل في حياة سعد البرلمانية . وحسبنا أن نذكر هنا بعض المواقف التي تتمثل فيها خصائص « سعد » الخطابية التي أشرنا إليها .

دخل « سعد » البرلمان الأول في سنة ١٩٢٤ رئيساً للوزارة الدستورية الأولى ، وتقدم إلى البرلمان بخطبة العرش شارحاً برنامج وزارته . وقد جاء في هذه الخطبة إن الحكومة مستعدة للدخول مع الحكومة البريطانية في مفاوضات حرة من كل قيد لتحقيق الآمال القومية بالنسبة لمصر والسودان . ولم تلبث الأندية الخاصة والعامة أن امتلأت بالمناقشات في خطبة العرش ، وأخذ بعض الناس يشككون في معانيها ، وقال خصوم « سعد » إنه قد فترت حماسته بعد أن تولى الحكم ، فلم يعد يذكر الاستقلال التام لمصر والسودان بصراحته المعهودة . ووجدت هذه الأحاديث صدى لها بين الشيوخ ، فإذا بلجنة الرد على خطاب العرش توضع مشروعاً للرد يتضمن تفسيراً لعبارتين في الخطاب . وكان سعد قد أعلن في أحاديثه وخطبه قبل ذلك عندما شاعت تلك الأقاويل أنه

إذا قرر النواب تعديلاً في خطبة العرش ، فإنه يعتبر ذلك طبقاً للعرف الدستوري عدم ثقة بالوزارة يفرض عليه ترك الحكم . وجاء « سعد » إلى مجلس الشيوخ في جلسة ٢٤ مارس ١٩٢٤ لمناقشة مشروع الرد على خطاب العرش ، وتلى مشروع اللجنة الذي يتضمن تفسيراً للعبارة التي ذكرناها . وتكلم بعض الأعضاء في الموضوع ، ثم وقف « سعد » ليدافع عن خطاب العرش ، فألقى خطبة تتمثل فيها تلك الخصائص التي ذكرناها .

بدأ كلامه يخاطب عقول الأعضاء ، فشرح لهم وجهة نظره بأسلوب منطقي ، حتى إذا اطمأن إلى أنه وصل من إقناعهم إلى ما يريد ، ألقى إليهم ببعض الجمل المشتعلة ليثير شعورهم بمد أن أقنع عقولهم ، فإذا به يلهب جو المجلس ، وإذا الأيدي تتحرك بالتصفيق ، وإذا الحناجر تنطلق بالهتاف معلنة انتصاره في معركة الأولى للمجلس .

قال سعد في خطبته :

— « أيها السادة . . . إني لا أريد في هذا الموقف أن ألقى خطاباً سياسياً ، ولا أريد أن أبين غامضاً في خطبة العرش ، فإن خطبة العرش قد تليت عليكم يوم افتتاح المجلس ، فصفتكم لها تصفيقاً حاداً في أكثر من موضع ، وكانت أول جملة صفتكم وهتفتكم لها هي الجملة التي يُدعى بأنها مبهمه ، وهي الدخول في مفاوضات حرة من كل قيد ، بقصد تحقيق الأمان القومي بالنسبة لمصر والسودان ، وأن المعنى الذي فهمتموه في ذلك الوقت ، والذي استفزكم للتصفيق والهتاف ، هو المعنى الذي قصدته الوزارة من تلك الجملة .

أريد أن أقول إننا نحن الوزراء لسنا أجنب عنكم . نحن قسم من البرلمان تخصص لتنفيذ أفكاره وآرائه والتعبير عنها . فالوزارة في خطبة العرش تعبر

عن أفكار البرلمان وآرائه ، فإن كانت أحسنت التعبير عنها فيها ونعمت ، وإن لم تكن قد أحسنت التعبير ، فالبرلمان يرد بما يدل على أنها لم تحسنه . . . وهذا الرد قد يكون تعديلاً ، وقد يكون تفسيراً ، وقد يكون تأويلاً ، وكل هذه عبارات معناها أن الوزارة التي تولت وضع هذا الخطاب وتولت التعبير عن أفكار البرلمان ، قد أساءت التعبير عنه ، فإذا كان الأمر كذلك ، فالوزارة التي تخصصت للتعبير عن أفكار البرلمان وتنفيد آرائه لا يمكنها أن تبقى بعد هذا في مراكرها .

ثم يمضى « سعد رغول » متابعاً هذه السلسلة من القضايا المنطقية فيقول :

«التفسير المراد إدخاله إما أن يكون مفهوماً من الخطبة أو لا يكون مفهوماً منها . فإن كان مفهوماً منها فهو عبث محض . لأنه إذا كان كل قارئ للخطبة يفهم منها ما يفهمه من التفسير ، فإذن لا حاجة للتفسير ، وأما إذا كان لا يفهم منها المعنى الذى يراد تفسيره ، ويراد أن يلقي فى ذهن السامع أو القارئ شيء جديد ، فهذا مالا تقبل معه الوزارة البقاء ، لأنه سيكون بمثابة لطمة لا تتحملها وزارة أجهدت نفسها فى وضع المبادئ وتحرير المعانى لخطبة العرش .

نبشونى يا حضرات الأعضاء . . . أخبرونى . . . ما الذى يراد بالأمانى القومية ؟ .

هل فهمتم من الأمانى القومية معنى آخر غير الاستقلال التام ؟

الأمانى لغة جمع أمنية ، والأمنية هى ما يتمناه الإنسان ، والقومية نسبة للقوم ، والقوم هم المصريون ، والمصريون ما الذى يتمنونه ؟ يتمنون الاستقلال (م ١٤ — خطباء)

التام . وإذن فالأمانى القومية هى عبارة عن الاستقلال التام لمصر
والسودان . .

إن كان للأمانى القومية معنيان ، معنى هو الاستقلال التام ، ومعنى
آخر أقل من هذا الاستقلال ، كنت أفهم لهذا التفسير معنى . . ولكن إذا
لم يكن هناك تعدد فى المعنى ، وكانت العبارة لا تدل إلا على معنى واحد هو
الاستقلال التام ، فأنا لا أفهم معنى لتفسير هذه العبارة إلا الرغبة فى إرضاء
الخصوم ، فهل ترضون بذلك ؟ إننى لا أقبل على شرفى وشرفكم أن نتطوح
إلى هذا الحد ، فتجرح كرامتى إذا كنت أقبل تفسيراً لكلمة واضحة ،
خصوصاً على يد مجلس اعتمد على ثقته فى إدارة شئون البلاد . كيف أقبل أن
أشترك فى عمل مع مجلس يضمن على بلفظة ، ويقول إنى رغباً عنك ، وإرضاء
للخصوم ، أفسر كلامك مع كونه واضحاً ؟ أنا لا أقبل ذلك مطلقاً ، فالواقف
بين أيديكم هو الذى يصيح ، صباح مساء ، مطالباً بالاستقلال التام لمصر
والسودان . . .»

ثم مضى الخطيب العظيم يمزج المنطق بالحجاسة بعد أن ملك زمام الموقف ،
ويقول :

« ما هى خطبة العرش ؟ إنها الخطة السياسية التى تجرى الوزارة عليها .
هذه الخطة السياسية معروفة أيها السادة ، فقد كتبت بدماء الشهداء ، ونقشت
على قلب كل مصرى ، وهى السعى للحصول على الاستقلال التام لمصر
والسودان . هذه هى الخطة التى جرت الوزارة عليها قبل أن تتولى الحكم ،
وبعد أن تولته . إنها خلاصة للخطب التى سمعتموها ، والمقالات التى قرأتموها
والبيانات التى شرت عليكم . فهل يخطر فى بال أحد أن الوزارة تريد أن
تتلاعب بالأفهام ، وأن تغمص وتبهم لكى ترضى قوماً على حساب مصالح

الوطن ؟ كلا وألف مرة كلا ! إني أشكر اللجنة على أنها قالت إنها واثقة كل الثقة بالوزارة ، أشكر اللجنة وحضرة المقرر ، ولكنني أرجو وحضرات إخوانه أن يلتفتوا إلى أن هناك فوزاً أجدر منه وأليق ، وهو التصديق على خطبة العرش دون تفسير .

ثم التفت إلى مقرر اللجنة وهو يختم كلمته قائلاً :

« تقول إنك واثق بي ولكن تأتيني بما يرضي خصومي ، وتقول كما يقول الخصوم ؟ تقول إني واثق بالوزارة ولكنني أطلب التعديل ؟ الوزارة لا تحتل هذا ولا يمكنني باعتباري وطنياً ، ورئيساً للحكومة ، ومعتقاً للمبادئ الدستورية ، أن ألتزم ولو من بعيد أن هناك عدم ثقة مهما غطيت ، ومهما لفت ، ومهما سترت . لا يمكنني بعد هذا أن أبقى دقيقة واحدة في منصة الحكم . . . » .

بهذا الأسلوب المنطقي كان « سعد » يرتجل خطبه في البرلمان ، بل كان هذا طابعه حتى في أشد خطبه إثارة للحماسة . ولقد أدلى في عام ١٩٢٤ بحديث إلى مراسل إحدى الصحف البريطانية ، قال فيه للمراسل :

« اقرأ جميع خطبي تجد أنني لم ألق كلاماً على عواهنه ، بل جعلت لكل كلمة مستنداً ، فقررت وقائع وقدمت أدلة » .

وهذا هو رأي سعد في خطبه ، لا يلتقي الكلام على عواهنه ، بل إن أشد خطبه اشتعالاً وأعظمها توهجاً وإثارة للحماسة ، تثبت بعد ذلك للتحليل المنطقي والقراءة الهادئة .

حدث في أثناء نظر الميزانية أن تكلم أحد المعارضين محتج على عدم تقديم ميزانية مفصلة المبلغ الذي تدفعه الحكومة للسودان . وقامت بينه وبين

سعد زغلول رئيس الوزراء مناقشة قرر فيها سعد أنه يوافق العضو المعارض على اعتراضه ولكنه لا يملك إجابته لأن ميزانية السودان تضعها حكومة السودان التي لم تقدم ماطلته الحكومة المصرية من بيانات في هذا الصدد ، وقرر أنه يأمل أن تحل هذه المسألة بالمفاوضة مع الحكومة البريطانية ولكن النائب المعارض أخذ يطعن في مبدأ المفاوضة ، ويطلب من الحكومة أن تجد طريقة أخرى . وطالت المناقشة بينه وبين سعد على غير طائل ، فقام « سعد » وارتجل خطبة قال فيها :

— يراد منا أن نقدم ميزانية السودان ، ونحن لم نضع له الميزانية ، بل السودان هو الذى يضع ميزانيته ، فنحن لا نستطيع أن نقدمها لأنها ليست تحت يدنا ولم نضعها . وأنا أقول بأنه كان يجب أن تكون ميزانية السودان معتنا ، وأن نكون نحن واضعيها ، ويجب أن نسعى لذلك ؛ وأنا ساع له ، ومعتمد على قوة الأمة وعلى حقها في هذا ، ولدى الأدلة القاطعة والحجج القوية . ولكن لمن أقدمها ؟ الحضرتك . . . ؟ ! نحن نريد حقوقنا ، وأمامى طريق مفتوح أريد سلوكه لأصل إلى غايى ، ولكنك لا تريد ذلك .

فماذا أصنع إذا كنت تطلب ميزانية السودان ، وتمنعنى في الوقت نفسه من مخاطبة واضعى اليد عليه . . . ؟ ! إما أن تتبع طريقي وإلا فدنى على خير منها . أما أن تطلب منى أن أفعل شيئاً ولا تدعنى حراً فى أن أسلك الطريق الذى أراه موصلًا لما تريد ، فذلك فوق مقدورى . وإن أردت أن تطاع ، فمر بما استطاع . . . »

وبعد أن أفاض « سعد » فى هذا المعنى بهذا الأسلوب المنطقي ، الذى خاطب به عقول الأعضاء ، عاد يخاطب عواطفهم ، ويستثير شعورهم ، ويقول :

« المسألة جد لا هزل ، وعمل لا كلام . نحن هنا نتحمل مسؤولية كل أمر نقرره ، فيجب علينا قبل أن نصدر قراراً في هذه المسائل الهامة أن ندرمها وألا نطيع الهوى ، بل نستشير العقل والحكمة . فكر في ذلك جيداً ولا تسع لإحراجي ، لأننى لا أريد إلا ما تريده الأمة ، فإذا أخرجت زغولاً فقد أخرجت الأمة . أجل . . . إننى لا أسعى فى سياسة غير سياسة الأمة ، والذي يرشدنى ويدفعنى إلى ذلك صوت فى ضميرى صرخ قبل أن يصرخ فى قلب أى إنسان ، وهذا الصوت ينادينى دائماً للقيام بالواجب . اختر لك أحد أمرين إما أن تأمرنى بالمفاوضة أو لا تأمرنى . وفى الحالة الأخيرة يجب عليك أن تترك السودان وتكتفى بأن نتكلم معاً . . . ! إننى أيضاً أعرف الخطيئة والألفاظ المذمومة ، كـتقوية إيمان الأمة ، وعدم توجيه مجهوداتها للخيال ، أستطيع أن أقول كل ذلك وزيادة ، وأنا أخطب منك . . . » .

ثم ختم خطبته بهذه العبارة المشتعلة التى أثار بها عاصفة من التصفيق والهتاف :

نحن فى سرا كزنا لا ندين بها إلا للأمة ، ولا نخشى إلا صوتها ، فإن رأيتم فىنا إغوجاجاً فقوموه — لا بالسنتسكم — بل بسيوفكم . » .

* * *

كانت فى سـعد فكاهة حاضرة على البديهة ، يستعين بها أحياناً فى خطبه ، فتكون كما يقول « العقاد » نوعاً من المنطق المختصر ، لا فرق فيه بين النكتة اللاذعة والحجة الصادقة .

كان يحطّب فى نادى « سيروس » ، وتحدث عن نصريح ٢٨ فبراير الذى اعترف فيه الانجليز باستقلال مصر مع تحفظات أربعة تهدر هذا الاستقلال ،

فشبهه التصريح والتحفظات بالماقة التي وضع صاحبها في رقبتها حذاء ثم مضى بها إلى السوق . وكانت الماقة جميلة قوية ، فأراد أعرابي أن يشتريها ، فقال له صاحبها إنها بغير الحذاء المعلق في رقبتها تساوى ديناراً واحداً ، ولكنها مع الحذاء تباع بألف دينار . ولما كان الأعرابي إنما يريد الماقة دون الحذاء فقد عرض ذلك على صاحبها الذي قال له إنه لا يبيع الماقة بغير الحذاء ، فقال الأعرابي متحسراً :

— والله إنها للمليحة . . لولا الملعونة في رقبتها . . !

قال « سعد » ذلك ثم ضحك ، فدوى المكان بتصفيق السامعين وضحكهم . ولقد يذكر الذين حضروا هذا الحفل أنه عندما هدأت عاصفة الضحك والتصفيق ، وسكت الناس ، كان أحد المستمعين ما يزال مسحوراً بضحكة سعد ، فما كاد « سعد » يعود إلى الكلام حتى وقف يصيح في عصبية حادة :

— الله ياباشا . . دا أنت ضحكك حلوة . . حلوة قوى !

وهذا هو أثر « سعد » في سامعيه . هذا الأثر الذي جعل فلاحاً من قنا يبكي وهو يسمعه يخطب في الاحتفال بعيد النيروز ، ثم أفاق لنفسه وهو شيخ لم يتهود البسكاء ، فطفق يعجب لنفسه ويسأل من حوله .

— لماذا أبكى ؟ أمات أبى ؟ أمات أمى ؟ أغرقت مرا كبرى ؟ أأجذب زرعى ؟ وما هذا الرجل يسكنى ؟ أساحر هو ؟ أفاتن هو ؟ والله لا أدري . وكانت اسعد قدرة كبيرة على إرسال جملة واحدة تحمل من المعاني ما تحمله الخطبة الكاملة .

كان يرتجل هذه الجمل الحاسمة ، الزاخرة بالإقناع والتأثير ، فلا تلبث أن تصبح من الجمل الماثورة في أفواه الناس .

وقف بخطب في ٢٥ أبريل ١٩٢١ ، وكان الخلاف قد وقع بينه وبين حكومة عدلى يكن بشأن رئاسة وفد المفاوضات مع الانجليز . وكان « سعد » يرى أن تكون له رئاسة الوفد ، باعتباره الوكيل عن الأمة التي اختارته للتحدث باسمها والمطالبة بحقوقها . أما الحكومة القائمة في ظل الحماية البريطانية والتي لا تستطيع الاستمرار في الحكم إلا برضاء الحكومة البريطانية وموافقتها، فانها لا يمكن أن تمثل الشعب المصرى في مثل هذه المفاوضات .

أراد « سعد » أن يصور هذه المعانى كلها ، فلخص حججه في جملة واحدة عندما قال « جورج الخامس يفوض جورج الخامس . . »

ووقف يخطب في الحفلة التي أقيمت لتكريم « صادق حنين » عندما فصلته وزارة « عدلى يكن » في تلك الأيام بسبب تأييده لسعد ، فاستهل كلامه قائلاً :
— لا أقول اصادق حنين إلا كلمة واحدة : كفاك شرفاً أن فصلتك الوزارة العدلية . . !

وقال في إحدى خطبه مشيراً إلى وزراء ذلك العهد :
— « لنترك هؤلاء المفكر المساكين المسجونين في سجون وظائفهم ، فأنهم ليسوا أهلاً لخصومتنا . »

وكان في مكتبه يوماً بيت الأمة وعلم ان رجال الشرطه يضربون الوفود الهاتفة ، فخرج إلى الشرفة مغضباً كالايث انتهك عرينه ، فرأى بعض الضباط المصريين يحملون المعصى ويطاردون الناس في فناء البيت ، فصاح فيهم قائلاً :

— « أقسم بالوطن وعزته لو تركتم وشانكم لكنتم لنا لاعيننا »

فتراخت أيديهم وألقوا عصيهم وانسحبوا من الدار .

هذا هو سعد الخطيب . وصفه الكاتب الأديب أحمد حسن الزيات فقال

— لم ير التاريخ المصرى بل الشرقى قبل سعد خطيباً بليلى اللسان ، ندى
البصوت طلق البديهة ، دامغ الحجة ، حافل الخاطر ، رائع البيان ، أنيق اللهجة
حسن السمات ، يزواج بين المنطق والشعر ، ويعاقب بين الأقداع والأمتاع ،
ويراوح بين الجد والمزل ، ويتصرف فى فنون القول تصرف الشاعر برقة
الأسلوب ، والفيلسوف بدقة الفكر ، والموسيقى بجمال الأيقاع ، وكل ذلك فى
هالة من الشخصية المهيمنة الجذابة تساعد بلاغة اللسان والعين واليد بشعاع إلهى
باهر ، ينفذ إلى النفوس المتكبرة فتتضع ، وإلى الأذهان المسكبرة فتتسع ،
وإلى القلوب اللينة فتتباع .

خطباء الحروب

« إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين . . »
قرآن کریم

خطباء الحروب

قد يبدو للنظرة العابرة أن الخطابة ليس لها موضع في الحروب ، حيث الكلمة الأخيرة للقوة ، وحيث لا تسمع إلا أصوات القذائف تحمل الهلاك والدمار ، وحيث :

السيف أصدق إنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب
ولكن الواقع أن للخطابة قديما وحديثا أثرها الكبير في الحروب ، فهي الوسيلة الأولى لبث الحماسة في نفوس المقاتلين ، وتقوية الروح المعنوى ، وهو أمر ضرورى لكسب الحرب .

أما في الزمن القديم ، حيث كانت الحروب أقل تعقيدا وأبسط أسلوبا ، إذ كانت التحاما بين جيوش محدودة العدد ، في رقعة محدودة من الأرض ، يحمل كل فريق أسلحة متماثلة من سيوف ورماح ونبال ، فقد كان للشجاعة أثر حاسم في النصر ، لأن المقاتل لم يكن يخوض المعارك داخل دبابة أو مصفحة ، ولم يكن يصيب عدوه وبينهما المسافة الشاسعة ، وإنما كان يلقاه وجها لوجه فيكون بينهما نزال وصراع ، الغلبة فيه للكمى الشجاع .

وفي تلك الحرب لم يكن القواد يديرون المعارك من مكابتهم وراء خطوط القتال ، بل كانوا ينزلون مع جيوشهم إلى الميدان ، ويشاركون في القتال ، فكان اتصالهم لذلك مباشرا بالجفود . وكان من المألوف أن يخطب القائد جنوده قبل المعركة ليشعل فيهم نار الحماسة ، لأن الجهدى القوى الروح الذى يؤمن بالفكرة التى يحارب فى سبيلها أقدر على الحرب من سواه .

وقد حفظ لنا تاريخ الحروب القديمة الشواهد التى تؤكد هذه الحقيقة ،

كما حفظ لنا كثيراً من الخطب الرائعة التي خطبها القواد ، والتي أصبحت جزءاً من تاريخ تلك الحروب .

وحسبنا من تلك الشواهد شاهد واحد مما نعلمه عن حروب المسلمين في صدر الإسلام . فقد قهر المسلمون بجيوشهم القليلة الفرس والروم ، وبسطوا سلطانهم على الشام ومصر وشمال أفريقيا ، ثم عبروا البحر إلى الأندلس ، وكونوا أمبراطورية ضخمة امتدت من الهند إلى فرنسا ، وكان أكبر عامل لهم على النصر هو ذلك الإيمان القوى ، وتلك الحماسة الدينية التي كانت تدفع بالجندي منهم إلى القتال وهو يتمثل بقول الشاعر

ولست أبالي حين أقتل مؤمناً على أى حنب كان في الله مصرعى

كانوا يؤمنون بأنهم جنود الله ، يحاربون في سبيل دينه ، فكانوا يقبلون على القتال وهم يؤمنون بأنهم فائزون على كل حال ، فمن عاش وانتصر فله الفتيمة والفخر ، ومن استشهد فله الجنة ، فكانت جيوشهم القليلة العدة والعدد تنفصر على الجيوش الجرارة التي تساق إلى الحرب وليس لجنودها ما للعرب من حماسة وإيمان . وصدق الله تعالى حين يقول في كتابه الكريم « إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون » هكذا كان يحارب الجندي المؤمن ، الذي تمتلئ نفسه بالقوة ، وتفيض حماسة وإيمانا . ولقد كان لخطب القواد أثر كبير في إشعال هذه الحماسة . فهذا خالد بن الوليد ، سيف الله المسلول ، اعتاد أن يخطب جنوده خلال المعارك . هذا هو يقف بين الصفوف التي كانت تتأهب للاتحام بالروم في فلسطين ويخطب قائلاً :

— أيها الناس

« انصروا الله ينصركم ، وقاتلوا في سبيل الله ، واحتسبوا أنفسهم في سبيل الله ، وأصبروا على قتال أعدائكم ، وقاتلوا عن حريمكم وأولادكم ودينكم . واعلموا أن ليس لكم ملجأ تلجأون إليه ، وممكن تكمنون فيه . فأقربوا المناكب ، وقدموا المضارب ، ولا تحملوا حتى آمركم بالحملة . ولتكن السهام مجمعة إذا خرجت من القسي كأنها تخرج من كبد قوس واحد ، فإنه إذا تلاحقت السهام رشفاً كالجراد لم يخل أن يكون فيها سهم صائب . . . إلى آخر ما قال .

وهذا طارق بين زياد يعبر البحر إلى أسبانيا عند الصخرة التي سميت باسمه ، ثم يقف في جيشه خطيباً ، فيلقى على جنوده خطبته الشهيرة التي يقول في أولها :

— أيها الناس —

أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصديق والصبر . واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللثام .

وهل ننسى الحرب الصليبية التي شغلت القرن الثاني عشر ، لقد كان الخطباء من رؤساء الأديان هم الذين يشبهون نارها ، ويذكرون أوارها ، بخطبهم التي كانت تدفع إلى التعصب الديني ، حتى لقد روى أن القديس برنار ، وكان خطيباً بارعاً ورئيساً لأحد الأديرة في فرنسا ، كان إذا نزل ببلدة ليخطب فيها أخفى الأمهات أولادهن ، والزوجات أزواجهن ، خوفاً من إغراء الخطيب لهم بالتطوع ، لأنه كان إذا خطب في الحضر على قتال المسلمين امتلأت قلوب سامعيه .

ولكن ما هو أثر الخطابة في الحروب الحديثة ؟

لاشك أن أسلوب الحروب قد تغير تغيرا كاملا ، فأصبحت الجيوش تحشد بالملايين ، وساعد العلم الحديث على ابتكار الوسائل الجديدة ، فعرف عصرنا الحرب الميكانيكية التي تعتمد على الدبابات والطائرات والصواريخ ، وضمقت الصلة المباشرة بين القائد وجنوده ، لأن القائد يدير المعارك بوسائل العلم الحديث وهو جالس في مقر قيادته بعيدا عن خطوط القتال . وقد لا يرى الجندي قائده إلا مصورا في الصحف . ومع ذلك فإن للخطابة في الحروب الحديثة أثرها الملحوظ ، وأن تغير أسلوبها تبعاً لتغير أسلوب الحرب وظروفها . ولما كان من المستحيل أن يجمع المحاربون في مكان واحد ، فإن الجنود تسمع الخطاب مذاعة بالراديو ، وتتلقى الداءات الحماسية في شكل أوامر يومية . وليس بالنادر مع ذلك أن يستعرض القائد بعض الفرق جنوده ويلقى عليهم خطبة يسمعونها ويقرؤها زملاؤهم في النشرات . إن المدفع في حاجة إلى رجال يقومون عليه ، والدبابة تتطلب رجالاً يوجهونها ويستخدمونها ، وكل آلات الحرب وأدواتها لا تعمل وحدها ، فلا بد لها من جنود ، وبقدر شجاعة هؤلاء الجنود وحماستهم يكون أثرها حاسماً فعلاً .

وهذا هو رأى أحد أبطال الحرب العالمية الثانية . فقد وقف القائد الشهير « مونتيجمري » في إحدى مدن إيطاليا يودع الجيش الثامن قبل سفره إلى بريطانيا ليتولى قيادة الجيوش البريطانية المعدة لغزو أوروبا ، فكان مما قاله في خطبته :

— وإذ سألتهم ما هو العامل الجوهري الأول للانتصار في الحرب ، فأنى أقول لكم إنه العامل البشرى إذ يجب أن نذكر أن الدبابات والسيارات المدرعة أو البوارج ليست هي التي ستكسب هذه الحرب ، بل هم الرجال الذين يحر كونها ، وهذه الحقيقة مهمة جداً ، فإن العامل البشرى هو المحور الذى يدور حوله كل شيء . »

هذا هو مقاله « مونتجومرى » ، فإذا كانت حالة الجنود المعنوية وشجاعتهم عاملا مهما في النصر : فإن الخطابة في صورها المختلفة أهم وسيلة لبث الشجاعة وإثارة الحماسة في نفوس الجنود .

ومن ناحية أخرى فإن ويلات الحرب الحديثة لم تعد قاصرة على الجنود في ميادين القتال ، بل شملت المدنيين من غير المحاربين في بيوتهم ، وأصبحت المدن والقرى في خط النار الأول ، بعد أن حملت الطائرات والصواريخ إليها الموت والدمار بالليل والنهار . لذلك كان من الضروري الاحتفاظ بالقوة المعنوية للأهالى المدنيين أيضاً ، والا انهيار الشعب قبل أن تنهار الجيوش في الميدان . وهنا يبدو الدور الهام الذى تلعبه الخطابة في الحروب الحديثة . وقد عرفت الحكومات لها هذا الخطر ، فأنشأت وزارات خاصة للدعاية والأعلام ، وسممنا نوعا آخر من الخطب الحربية ، تلك التى يلقيها الساسة والزعماء يستنفرون بها شعوبهم للحرب ، ويثبتون فيهم القوة على احتمال ويلاتها . وهل ينسى أحد الأثر الذى كان لخطب ونستون تشرشل ، رئيس وزراء بريطانيا خلال الحرب العالمية ، فى الحالة المعنوية للشعب البريطانى ؟ إننا مازلنا نذكر تلك الخطب الرائعة فى الأيام العصيبة التى تلت انهيار فرنسا ، عندما وقفت بريطانيا وحيدة فى الميدان ، وهتلر يرسل إلى سماءها مئات من طائراته أفواجا متعاقبة تمطر المدن الآمنة بالقنابل ، فتقتل المدنيين وتنشر الدمار ، وزعيم ألمانيا النازية يهدد بمحو المدن البريطانية من الوجود ، ويلوح فى الوقت نفسه للشعب البريطانى بغصن الزيتون قائلا إنه ييسط يده للشعب البريطانى لأنه لا يرى معنى لاستمرار هذه الحرب . ولعله كان يقصد بذلك إلى تحطيم روح الشعب البريطانى كي يحمل زعماءه على عقد الصلح مع هتلر .

وكان تشرشل الرجل الذى ادخرته الأقدار لتلك الساعة الحاسمة ، فوقف وسط الخرائب والموت والآلام كالجبل الراسخ ، وارتفع صوته بخطبه النارية توحى إلى الشعب بالثبات والصمود والتصميم فيقول :

— نحن نحارب بمفردنا ، ولكننا لا نحارب من أجل أنفسنا فقط ، ونقف بلا خوف ولا وجل فى انتظار المعركة المقبلة . وإذا استطاع الغزاة أن يضعوا أقدامهم فوق أرض إنجلترا ، فإنهم لن يجدوا تسليحا وإلقاء للسلاح ، ولن يجدوا شعبا مهينا يقبل الذل ، ولكننا سنقاتل وندافع عن كل قرية وكل مدينة ، وسيقاتل سكان لندن نفسها فى كل شارع من شوارعها حتى يلبثهم العدو فى جيشه العظيم . وإننا لنفضل أن نرى لندن وقد تحولت أنقاضا وأكواما من الرماد ، من أن نراها مستعبدة فى خضوع واستكانة . . . »

ويقول فى خطبة أخرى :

— ليس من الوهم أن أقول إن هذه الأمة قد عقدت النية على أن تفوز أو تموت ، فما أعظم الفوز الذى نالته روح هذه المدن المهتمة على شرماتستطيعه النار والقنابل . إن كل واحد يفخر بأنه تعرض لنار العدو ، وبأنه يشاطر الجنود والبحارة ما يتعرضون له من أشد التجارب فظاعة ، ولا شك فى أن هذا العهد هو عهد بطولة عظيمة فى تاريخنا ، وأن نور المجد يسطع فوق رؤوسنا . . . »

ثم يقول فى خطبة أخرى :

— سنقاتل فى فرنسا ، وفى البحار ، وفى المحيطات ، وسنقاتل فى الجو بقلوب قوية ، وسندافع عن جزيرتنا مهما كان الثمن ، وسنقاتل فى الحقول ، وفى الشوارع ، وعلى رؤوس الجبال ولن نلقى السلاح ، وإذا فرض — وهو مالا أعتقده لحظة واحدة — وخضعت هذه الجزيرة أو جزء منها وتضورت جوعا ، فستواصل إمبراطوريتنا النضال فيما وراء البحار ، وتستمر فى كنفاحها

إلى أن يأذن الله بظهور عالم جديد . . فمن أعماق الحن والتضحيات ينبعث
من جديد مجد بنى الإنسان «

يمثل هذه الكلمات كان تشرشل يغذى روح الشعب البريطانى حتى استطاع
أن يكسب الحرب .

وفى مواجهة تشرشل كان يقف « هتلر » ذلك العبقرى المجنون الذى
هب على العالم كالأعصار المدمر ، وكان بدوره خطيبا من طراز فريد . وكذلك
كان « موسولينى » حليفه وأستاذه السابق ، مؤسس الحركة الفاشية . ولكننا
لا نتحدث فى هذا الكتاب عن الخطباء المعاصرين .

وحسبنا أن نختار من خطباء الحروب ، نابليون بونابرت ، أعظم عبقرية
عسكرية ظهرت فى العصور الحديثة .

نایپون پوناپرٹ

« لقد حول بوناپرٹ معارکہ الأولى بسحر بيانه »
« إلى انتصارات كبيرة فجعل لها مكاناً في التاريخ »
« إميل لودفيج »

نابليون بوناپرت

ليس هذا الفصل ترجمة لحياة نابليون ، فأن تاريخ هذا القائد الكبير معروف مشهور ، ولكننا نتحدث عنه كخطيب .

ولقد يقال ما شأن هذا القائد بالخطابة وقد قضى حياته في الميدان ، وبني مجده على الانتصارات الحربية ، وأقام امبراطوريته على أسنة الحرب ؟
والواقع أن نابليون كان في الصف الأول من خطباء الحروب ، ولعله كان أعظمهم جميعاً .

إن من يقرأ الخطب والنشرات التي كان يذيعها نابليون في الجنود يشعر بما كان في كلامه من بلاغة وقوة وإشراق ، فكان أسلوبه يمثل ما في الطبع الفرنسي من حماسة مشبوبة وخيال مضطرم .

تلقى نابليون علومه في مدرسة « بريان » ، ثم في المدرسة الحربية بباريس وكان « دومارون » أستاذه في الأدب يشبه كتابته بحجارة الصوان الحماء في البركان . وقد نشأ مشغولاً بالعلوم والآداب والفنون ، يحترم أهلها ويقدرهم ، وظل يحتفظ معتزلاً بلقب « عضو الجمعية العلمية الوطنية » وقد ورد في مذكرات « دي بوريان » كاتبه وكاتم سره أنه قال له يوماً بعد أن شهد تمثيل إحدى روايات « كورنيل » :

— لو كان رجل مثل كورنيل يعيش في أيامي هذه لا اتخذته وزيراً الأول وكان نابليون يقرب إليه الممثل « تالما » الذي كان يستطيع أن يعد نفسه صديقاً للامبراطور ، وقد قيل إن « تالما » كان يعلمه الإلقاء .

على أن نابليون كان قبل كل شيء رجل حرب ، بني لنفسه بحسامه مجداً

كسف مجد « هانيبال » ، وغطى على مجد الأسكندر ، وأنسى الناس مجد قيصر
ونبع في فنون الحرب نبوغاً لم يشهده التاريخ من قبل ، وانتصر في ستين معركة
أثار غبارها وخاض غمارها .

ومهما قيل في العوامل والأسباب التي كانت تكفل له هذا النصر ، فلا
شك أن نابليون نفسه كان العامل الأول في هذه الانتصارات . كانت له شخصية
ساحرة جعلته معبود الجنود ، ما يكاد يظهر لهم بمعطفه الرمادي الطويل ،
وحذائه العالي ، وقبعته المثلثة الأركان تعلو رأسه المستدير ، وتقاطيعه التي
كأنما قدت من الصخر ، وما يكاد يلوح لهم بقامته القصيرة وعينييه الراقيتين
الرماديتين ، وكتفيه اللتين تتمثل فيهما القوة الهائلة ، حتى تسرى فيهم حماسة
جارفة تطلق ألسنتهم بالهتاف وتبعث فيهم الشوق إلى القتال .

وليس أدل على قوة تأثيره في الجنود من أنه عندما هرب من جزيرة
« إلبا » لم يكن يعتمد على شيء سوى هذا الحب الذي جعل الجنود على طول
الطرق يهرعون إليه هاتفين مهللين . وقد أرسلت فصيلة لصدده والقبض عليه ،
فالتقت بالجنود الذين كانوا معه عند بحر « لافريه » ومنعتهم من المرور ، فأسرع
نابليون وترجل عن جواده ، فصاح قائد الفصيلة بأمـر جنوده بالاستعداد
لإطلاق النار ، ولكن نابليون تقدم إليهم وصاح فيهم قائلاً :

— ما بالكم أيها الرفاق ؟ ألا تعرفوني ؟ أنا الأمبراطور . ألا ترون
قائدكم ؟ . إذا كان بينكم من تحدثه نفسه بقتل قائده وأمبراطوره فهأنذا
أكشف له عن صدري .

قال ذلك وكشف عن صدره فتراخت أذرع الجند ثم ارتفع هتافهم بحياة
الأمبراطور ، وأستأنف العاهل زحفه إلى باريس ووراءه الجيش الذي أرسل

لمحاربته ، فدخلها دون أن تطلق قذيفة أو تراق نقطة دم .

وكان نابليون يعرف قوة تأثيره في الجنود ، ويدرك قيمة ظهوره بينهم فكان دائماً الاتصال بهم ، يستغل حبهم له في إثارة حماسهم بالخطب والنشرات والكلمات المثيرة التي كان يلقيها عليهم خلال المواقع .

وكانت لنابليون كلمات قصيرة مرتجلة تقوم مقام الخطب الطويلة ، فقد يلقي جملة واحدة تحمل من المعانى والتأثير ما تحمله الخطبة الكاملة .

في الحملة المصرية التقى بجيش مراد بك عند الأهرام ، فلما رأى ذلك الأثر الخالد الذى يمثل حضارة ترجع إلى أربعة آلاف من الأعوام ، صاح في جنوده : — إنكم ستقاتلون الآن المتسلطين على القطر المصرى ، ولكن اعلموا أن أربعين قرناً تطل عليكم من قمة هذه الأهرام . .

وفي إحدى المعارك اندفع نابليون وسط المعركة حيث كانت تتساقط القذائف والقنابل ، فعلت أصوات المحيطين به من قواده خوفاً عليه فصرخ فيهم قائلاً :

— لا تخافوا يا أصحابى .. فإن القنبلة المعدة لقتلى لم تصب بعد !

* * *

كان نابليون في كثير من الأحيان يخطب جنوده قبل المعركة يستفهمم للقتال . ففي حملة إيطاليا الأولى عام ١٧٩٦ وهى أول حملة هامة انتصر فيها عندما كان قائداً صغيراً ، تولى قيادة جيش قليل العدد والمؤن والذخيرة ، ولم يكن معروفاً لدى كبار ضباطه الذين زعموا أن ذلك الشاب الصغير ذا الوجه النحيل والقامة الضئيلة ، والذي أبرز لهم صورة عروسه مفاخرأ بها ، لا يمكن أن يكون تعيينه إلا نتيجة المحاباة . ويقول « مسينا » أحد قواده في تلك المعركة : « ولكنه بعد أن وضع على رأسه قبعة القيادة ، ظهر كأنما زاد في الطول قدمين

وبدأ يناقشنا في مراكز فرقنا ، وفي الروح المعنوى ورسوم لنا الخطة التى نسير عليها ، ثم أعلن أنه سيقوم فى الغد باستعراض الجيش ويبدأ مهاجمة العدو فى اليوم التالى ، وكان يتكلم بتؤدة وروية وثقة حتى أقنع كل من سمعه بأنه جدير بقيادة الأبطال . . . »

وفى الصباح استعرض الجيش وخطب فى جنوده قائلا :

أيها الجنود

والله إنكم لجياع عراة ، وإن الوطن مدين لكم بالكثير ، ولكنه عاجز عن إمدادكم بشيء . وإن الصبر والبأس الذى ظهر منكم بين هذه الصخور ليدعو إلى العجب والاعجاب ، وسأمضى بكم إلى أخصب بقاع الأرض ، وستقع فى أيدينا أغنى الأقاليم والمدن ، فأمامكم الثروة الواسعة والمجد الأثيل ، وإن صبركم وتجلدكم لن يجدياكم غير الشرف . . . فيا جنود فرنسا ، هل تنقصكم فى ذلك الشجاعة . . . ! ؟

ويقول أميل لودفيج فى كتابه الرائع عن نابليون :

— وحول بوناپرت معاركة الأولى بسحر بيانه إلى انتصارات كبيرة ، وجسم أهمية هذه الانتصارات فجعل لها مكاناً فى التاريخ ، وأدخل فى روع الأمة أنها أصبحت حرة ، وفى روع الجيوش أنها حققت كل شيء ، وأن كل شيء أصبح لها . ولقد جاء فى بلاغه للجيش بميلانو « أيها الجنود . لقد تدفقتكم كالسيل من أعالي جبال الأبنين فاستوليتم على ميلانو . نحن أصدقاء جميع الأمم ولا سيما أحفاد بروتس وسبيون وأولئك العظماء الذين اتخذناهم قدوة لنا . من ثمرات انتصاراتكم التى ستبهر الأجيال المقبلة سوف يعاد بناء الكايتول وتنصب فيه تماثيل الأبطال التى اشتهر بها ، ويحرر الشعب الرومانى الذى لم يذق غير الاستعباد منذ قرون . ولسوف

تعودون إلى بلادكم فيقول أبناء الوطن حينما يشيرون إلى الرجل منكم : « لقد كان هذا في جيش الحملة الإيطالية . »

ثم يتساءل لودفيج :

— من هو القائد الذي يخاطب الجنود بمثل هذه الكلمات المغرية ؟ ومن ذا الذي يخاطب الخيال والمشاعر بدلا من الدعوة إلى الطاعة كبونايرت ؟ وعندما أعد الحملة المصرية وسافر معها إلى طولون في طريقه إلى مصر خطب في جنوده قبل الرحيل فقال :

— منذ سنتين توليت قيادتكم ، وكان الشقاء مخيا عليكم ، وقد أنفقتم كل شيء حتى ساعاتكم لا بتياع ما تسدون به رمقكم ، فوعدتكم بإزالة شقائكم ، وسرت بكم إلى إيطاليا حيث توفر لكم كل شيء . فهل حققت وعودي لكم ؟

فصاح الجنود :

— أجل

فاستأنف خطابه قائلا :

— ولكن اعلموا أنكم لم تصنعوا حتى الآن شيئا مذكورا للوطن ، كما أن الوطن لم يفعل شيئا لكم . وهأنذا الآن أمضى بكم إلى بلاد تسجلون فيها لكم مجدا يزرى بكل مجد أحرزتموه من قبل ، وتؤدون الوطن خدمات نتوقعها من أبطال الحرب الذين لا يشق لهم غبار . إنكم ستعرضون لمخاطر جديدة مع إخوانكم البحارة ، فسكونوا معهم على متن السفن شاعرين بالمواطف التي يمتاز بها الأشخاص الذين تهمس في قلوبهم أصوات الواجب الوطني . تعودوا أعمال الملاحة وأنتم على المراكب ، واقدفوا الذعر على أعدائكم في البحر والبر ، وكونوا كجنود الرومان الذين دوخوا قرطاجنة في البحر وظفروا بها وهم في سفنهم في عرض اليم . . »

وعندما احتاجت حملته في أسبانيا إلى مدد جديد ، قرر أن يقذف في المعركة بكتائبه القديمة التي تعودت الظفر بالأعداء ، واستعرض هذه القوات وخطب فيها قائلا :

— أيها الجنود

إنكم بعد أن جررتم أذيال النصر على ضفاف الدانوب والفيستول عدتم فعبتم ألمانيا . والآن أرى أن الشرف الوطني يضطرنى أن أجتاز بكم فرنسا دون أن أمنحكم دقيقة واحدة من الراحة .

— أيها الجنود

إننى محتاج إلى شجاعتكم ، فإن الفهد الكريه الذى يقبع فى أرض أسبانيا والبرتغال يلوث تربتهما . فليفر مذعورا عندما يراكم . هلموا بنا نبليغ بأعلامنا المظفرة أعمدة هرقل ، ونثار اللاهانات التى أرادوا أن يلحقوها بنا . وستنالون جزاء على أعمالكم سلاما طويل الأجل ، ويسرا مقبلا . إن الفرنسى الحقيقى لا ينبغي له أن يذوق طعم الراحة قبل أن يحطم الحصار البحرى فتفتح فى وجهه البحار وتصبح حرة .

أيها الجنود

إن كل ما فعلتموه ، وكل ما تفعلونه فى سبيل سعادة الشعب الفرنسى ومجده سيخلد فى قلبى إلى الأبد . . . »

ولنستمع اليه يخطب الجنود قبل أن يهاجم جيوش النمسا التى انتهزت فرصة غيابه وانقضت عليه :

— إن أرض المحالفة قد انتهكت حرمتها ، وأن القائد النمساوى يريد أن نفر

هاربين من وجه جيوشه وأن نترك نصرة حلفائنا ، ولكنى قدمت بسرعة
البرق .

أيها الجنود

لقد كنتم تحفون بي حين جاء عاهل النمسا إلى في «مورافيا» وقد سمعتموه
يلتمس شفقتي ، ويقسم على أن يحفظ لي صداقة ثابتة . ولما كنا قد ظفروا
بالنمسا في ثلاثة حروب ، فلنا الفضل عليها في كل شيء . أما هي فقد نقصت
عهدا ثلاث مرات متوالية . ولكن ما أصبناه من النصر في الماضي يضمن لنا
ما نتوقعه من نصر في المستقبل . سيروا بنا ، وليعلم العدو عندما تقع عينه علينا
أننا المنتصرون . . . »

وفي معركة « أوسترتز » حيث ظفر نابليون بأمبراطورين ، وهزم جيشين
عظيمين ، خاطب جنوده وهو يستعرض الكتاب المصطفة للقتال قائلا :

— أيها الجنود

ينبغي لنا أن نختم هذه الحرب بصاعقة لا تبقى ولا تذر .

فرفع الجنود قبعاتهم على رؤوس الحراب وصاحوا هاتفين بحياة الإمبراطور .
وكان تاريخ المعركة يوافق ذكرى تتويج نابليون إمبراطورا ، فكان الجنود
يعتبرون أنفسهم في احتفال بذكرى التتويج . وفي الليلة السابقة للمعركة تفقد
نابليون المعسكر متفكرا فعرفه الجنود ، والتفوا حوله ، ورفعوا المشاعل على
رؤوس الأوتاد ، ودنا منه فارس من أقدم الفرسان فخاطبه قائلا :

— مولاي . . إنك لست في حاجة إلى تعريض حياتك غدا للخطر ، فأنا
أعدك باسم فرسان الجيش ألا نعملك تقاتل إلا بعينيك ، وسنأتيك غدا
بأعلام الجيش البروسي ومدافعه لنحتفل بذكرك تتويجك . .

وقد بر الجيش العظيم بوعدة للامبراطور ، ووقف نابليون يخطب جنوده بعد المعركة ويوجه إليهم هذا الكلام البليغ الرائع :

— أيها الجنود

إني راض عنكم ، لقد كنتم عند ظني فيكم فخلعتم على ألويتكم حللا لا تبلى من المجد . في أقل من أربع ساعات حطمت جيشاً يربو على مائة ألف مقاتل بقيادة أمبراطورين . أربعون علما ، ومائة وعشرون مدفعا ، وعشرون قائدا ، وثلاثون ألفا من الأسرى ، تلك هي نتيجة هذا اليوم المشهود . لقد أصبح السلم قريبا ، ولكني لا أريده إلا كما وعدتكم قبل عبوري الراين ، أي سلما أكيدا يكون فيه الضمان لنا والمكافأة لحلفائنا .

أيها الجنود

عندما وضع الشعب الفرنسي هذا التاج على رأسى كان كل اعتمادى عليكم لتحفظوا له مجده اللامع الذى بدونه لا قيمة له فى نظرى .

أيها الجنود

سأعيدكم إلى فرنسا بعد أن نحقق كل ما يكفل المناء للوطن ولكم ، فتكونوا موضع الإعجاب والتكريم ، وتستقبلكم الأمة بسرور وفخر ، وحسبكم يومئذ أن يقول الواحد منكم « لقد شهدت أوسترلتز » ليسمع من حوله يقولون : « إنه لبطل . . »

وفى أثناء إقامة نابليون فى « شفبرون » بعد معركة أوسترلتز عرض الجيش فلما وصل إلى الفصيلة الأولى من الفرقة الرابعة ، وكان قد تمزق شملها فى المعركة وأضاعت علمها ، وقف نابليون وخاطبهم قائلا :

- أيها الجنود . ماذا فعلتم بالراية التي سلمتكم إياها ؟ لقد أقسمتم على أن تبذلوا أرواحكم في سبيل الدفاع عنها ، فكيف وفيتم بعهودكم ؟

فأجابه قائد الفصيلة بأن حامل الراية قتل في المعركة فلم يبصره أحد بسبب الدخان الكثيف ، وأن الفصيلة لم تقصر في أداء الواجب ، فإنها مزقت شمل فرقتين وغنمت علمين قدمتهما لجلالته . فصمت العاهل برهة ، ثم طلب من الضباط والجنود أن يقسموا على أنهم لم يبصروا حامل الراية مجذلا فاقسموا على ذلك جميعا ، فانبسط أساريه الجامدة ، وقال لهم مبتسما :

- وإذن أعيد إليكم رايتكم .

* * * *

هكذا كان نابليون يخطب جنوده قبل المعارك ليثبت فيهم الحماسة ويستنفذهم للقتال ، كما كان يخطب فيهم أحيانا بعد المعارك ليثني عليهم ويشكر لهم حسن بلائهم ويعدم لقتال جديد .

وكان نابليون يصدر نداءات ونشرات تفيض بلاغة وقوة . فعندما فر من جزيرة إلبا وعاد إلى فرنسا ، أعد نشرات للشعب والجيش ، ومما قاله في نشرته للجيش :

- أيها الجنود

إننا لم نقهر . لقد سمعت نداءكم وأنا في المنفى فاقبلت إليكم غير مكترث بالمهالك . إن قائدكم الذي اختارته الأمة للجلوس على العرش ، وكنتم ساعده الأيمن ، وعماد عرشه ، قد عاد إليكم فهاجوا إليه . انزعوا هذه الأعلام التي نبذتها الأمة ، وانشروا الراية المثلثة الألوان التي حملتموها في أيامنا العظيمة . لقد تجرع جنود الجيش العظيم كؤوس المهانة ، وامتهنت ندوبهم المقدسة ،

واعتبرت انتصاراتهم جرائم ، وبطولتهم تمردا .

أيها الجنود

تعالوا واجتمعوا تحت لواء زعيمكم وسيسعى إليكم النصر مسرعاً . وسيطير
النسر بألوانه الوطنية من قبة إلى قبة ، حتى يبلغ أبراج كنيسة نوتردام ،
وحينئذ يستطيعون أن تفاخروا بأظهار ندوبكم . وعندما تدرككم الشيخوخة ،
يرحيط بكم مواطنوكم ليسمعوا منكم باحترام وإعجاب رواية ما كان من مجد ،
يستطيع الواحد منكم أن يقول بفخر « وأنا أيضاً كنت من رجال ذلك الجيش
العظيم الذى دخل مرتين فينا وروما وبرلين ومدريد وموسكو ، وأنقذ باريس
من الوصمة التى لطختها بها يد الخيانة .. »

وقد ذكرنا كيف نجح نابليون فى إثارة حماسة الشعب والجنود ، فانضمت
إليه على طول الطريق الفصائل التى أرسلت لصدّه ، ودخل باريس دون أن
تراق قطرة من الدم ، وعاد إلى قصر التويلرى محمولا على أكتاف ضباطه
القدماء . وفى الصباح عرض الجنود الذين كانوا فى العاصمة وخطب فيهم
قائلا :

— إننى قدمت إلى فرنسا فى تسعمائة رجل معتمدا على محبة الشعب والجنود
فلم يخيب أملى .

أيها الجنود . أقبلاوا شكرى العميق ، فأن الفخر الذى جنيته من أعمالنا مرجعه
إليكم . إن عرش البوربون غير شرعى ، فقد أقامته أيدي الأجانب بعد أن هدمته
الأمة ووافقت على هدمه المجالس الوطنية ، وليس فيه ضمان إلا لمصالح فريق يسير
من المدعين المتعجرفين . إننا سنزحف ليطرد من أرضنا أولئك الأمراء الموالين
للأجانب . نحن لا نبتغى التدخل فى شئون الأمم الأجنبية ، ولكن الويل لمن
يتدخل فى شئوننا .. »

وعلت أصوات الجنود بالهتاف للامبراطور ، واتفق في هذه اللحظة أن
وصل جنود الفرقة التي كانت معه في جزيرة إلبا ، فلما رأهم نابليون صاح قائلاً :
— هؤلاء هم ضباط الفرقة التي صحبتني في الفراء ، فكلمهم أصدقائي
وأعزائي . هؤلاء الشجعان أشخاص من جميع الفياق يذكرونني بالأيام
العظيمة التي لا يزال ذكرها عزيزاً لدى ، وجميعهم تزين أجسامهم ندوب
شريفة أصابتهم في المعارك الخالدة ، وقد أعادوا إليكم راية النسر التي ألفت
عليها الخيانة والأحوال السيئة غشاء محزناً ، ولكنها عادت بفضلكم إلى
الظهور . فاقسموا على أن تجعلوها دائماً في المكان الأسمى الذي تدعو إليه
مصلحة الوطن ، وليعجز عن النظر إليها الخونة ومن تحدثهم النفس بغزو
بلادنا ... »

وأقبلت إليه وفود من المتطوعين تطلب السلاح للدفاع عن الوطن فخطب
فيهم قائلاً :

— قدمت وحدي معتمداً على سكان المدن والقرى وجنود الجيش ،
ولقد حققتم جميعاً ثقتي فيكم ، وأقبل ما تقدمونه لي ، وسأعطيكم سلاحاً ،
وسأجعل عليكم ضباطاً لا تزال آثار الجروح بادية عليهم ، وهم الأبطال الذين
تعودوا أن يروا العدو هارباً أمامهم ..

وهكذا أخذنا نابليون يستنهض فرنسا للسير معه من جديد ، وأعلنت الدول
الأوربية التي باغتها فراره أنها لن تضع السلاح حتى تقضى عليه .

وأسرع نابليون إلى لقاء أعدائه على أرض بلجيكا ، وخاطب جنوده
للمرة الأخيرة فقال لهم :

— أيها الجنود

اليوم تذكّار معركة « مارنجو » « وفريد لاند » اللتين قررتا مصير أوروبا مرتين . وقد أظهرنا حينئذ من كرم الخلق مثل ما أظهرناه بعد معركة أوسترلتز ، ووجرام ، ووثقنا في أقسام وعهود الملوك الذين أبقيناهم على عروشهم ، ولكنهم قد خانوا عهودهم وتآلبوا علينا ، وأرادوا العبث بسيادة فرنسا وحقوقها المقدسة . فلنزحف لملاقاتهم . أولسنا نحن وهم كما كنا عليه من قبل ؟

أيها الجنود

أمامنا سير عنيف ، ومعارك ضارية ، ومقالب لا مندوحة لنا عن اقتحامها ، ولكننا سنظفر بالنصر إن نحن ثبتنا . لقد دنت الساعة التي يكون فيها شعار كل فرنسي في صدره قلب : إما أن أنتصر أو أموت . وألقى نابليون بنفسه في أتون المعركة ، ولكن آماله تحطمت في سهل واترلو ، وعاونت الطبيعة على فشل نابغة الحروب ، فتدخل النصر عنه لآخر مرة وللأبد .

وترك نابليون جيوشه المهزومة في الميدان ، وألقى بنفسه في غمرة القضاء والقدر ، فطوّحت به الأقدار إلى جزيرة سانت هيلانة .

ولم تكن له فرصة لتوديع جيوشه التي أحبها ، ولكنه كان قد ودع هذا الجيش قبل ذلك عندما تنازل عن العرش في المرة الأولى قبل نفيه إلى جزيرة إلبا . ففي يوم رحيله من « فونتنبلو » اصطف جنود الحرس الامبراطوري ليودعهم قبل الرحيل . ورفع نابليون يده مشيراً إلى أنه يريد أن يتكلم فساد سكون رهيب ، وأرهب الجميع آذانهم لتلقظ الكلمات الأخيرة التي يوجهها الامبراطور إلى رجاله الشجعان . وقال نابليون :

— يا ضباط وجنود حرسي القدماء ، أستودعكم الله فقد سعدت بكم عشرين عاماً ، وكنتم دائماً موضع فخرى . إن الدول المتحالفة قد جندت أوروبا كلها ضدي . وقد خان قسم من الجيش واجبه ، وشاءت فرنسا لنفسها حظاً آخر . إنني أستطيع أن

أخوض بكم وبالشجعان الباقين على ولائى حرباً أهلية تدوم ثلاثة أعوام ،
ولسكن ذلك يسكون وخيماً على فرنسا ويخالف الغاية التى أريدها .

لا تراثوا لى ، فأنى أكون سعيداً جداً حين أعلم أنكم سعداء . لقد كان
الموت مستطاعاً لى ولا شىء أسهل على من ذلك ، ولسكنى أسير دائماً فى طريق
الشرف . وقد بقى على أن اكتب تاريخ ما فعلناه .

إيها الضباط والجنود

لا تنسنى لى معانقتكم جميعاً ، ولسكنى أعانق قائدكم ، تعال يا جنرال .
وعانق نابليون قائد الحرس ، ثم طلب راية الحرس فقبلها وقال :

— أيتها الراية العزيزة . فليكن لهذه القبلة دوى فى أفئدة جميع
الشجعان . الوداع يا أولادى ، ولتصبحكم دائماً تميماتى الطيبة ، فاحفظوا
ذكرى .

بعض مراجع الكتاب

- ١ - خطباء اليونان تأليف ج . ف . دبسون ترجمة أمين سلامة.
- ٢ - قصة الحضارة تأليف ويل ديورانت ترجمة محمد بدران .
- ٣ - دائرة المعارف البريطانية .
- ٤ - ديموستين - - من سلسلة أعلام الحرية تأليف قدرى قلعجى .
- ٥ - نهج البلاغة .
- ٦ - الكامل لابن الأثير .
- ٧ - تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبرى .
- ٨ - العقد الفريد لابن عبد ربه .
- ٩ - البيان والتبيين للجاحظ .
- ١٠ - عبقرية الأمام اعباس محمود العقاد .
- ١١ - سيف بنى مروان لعبد الرازق حميدة .
- ١٢ - الحجاج - حياته وخطابته لعلى صافى حسين .
- ١٣ - ميرابو تأليف الوزير الفرنسى « بارتو » .
- ١٤ - دراسات تاريخية تأليف لورد ماكولى .
- ١٥ - عبد الله النديم للدكتور على الحديدى .
- ١٦ - سلافة النديم لأحمد سمير .
- ١٧ - مصطفى كامل بقلم عبد الرحمن الرافعى .
- ١٨ - تاريخ مصطفى كامل بقلم على فهمى كامل .
- ١٩ - مصطفى كامل بقلم فتحى رضوان .

- ٢٠- سعد زغلول بقلم عباس محمود العقاد .
- ٢١- مصطفى كامل بقلم أحمد رشاد .
- ٢٢- إنجلترا في مصر بقلم مدام جوليت آدم .
- ٢٣- آثار الزعيم في عهد وزارة الشعب بقلم محمد ابراهيم الجزيري .
- ٢٤- مجموعة خطب سعد زغلول .
- ٢٤- تاريخ نابليون الأول بقلم إلياس الحويك .
- ٢٦- نابليون تأليف إميل لودفيج وترجمة عادل زعيتر .
- ٢٧- مجموعة البلاغ الأسبوعي ، والرسالة ، والصحف اليومية .

كتب صدرت للمؤلف

- | | | |
|------------------------|--------------------------------------|------|
| ١ - الالهة المقدس | مجموعة قصص قصيرة | ١٩٥٦ |
| ٢ - نساء خالدات | صدرت عن الدار القومية للطباعة والنشر | ١٩٦٥ |
| ٣ - التوعية الاجتماعية | دار ومطابع الشعب | ١٩٦٦ |

رقم الإيداع بدار الكتب ٤٦٥٣ لسنة ١٩٦٩

المطبعة الفنية الحديثة
٢٠ شارع الأصمعيون ن ٨٦٤٨٧١



مكتبة الإنجلو المصرية